دار المقطم للصحة النفسية
المكتبة الأدبية العلمية

المشى على الصراط
"رواية علمية"



مدرسة العراة

د. يحيى الرخاوى
أستاذ الطب النفسى . جامعة القاهرة
ومستشار دار المقطم للصحة النفسية

دار المقطم للصحة النفسية
المكتبة الأدبية العلمية

المشي على الصراط
(رواية علمية)

الجزء الثاني

مدرسة العراة

د. يحيى الرخاوي
أستاذ الطب النفسي . جامعة القاهرة
ومستشار دار المقطم للصحة النفسية

الناشر
دار الغد للثقافة والنشر
٤٧ شارع الفلكي القاهرة

مقدمة

هذا هو الجزء الثانى من الرواية الطويلة « المشى على الصراط » ، وقد صدر الجزء الأول باسم « الواقعة » ، وفيه محنة « عبد السلام المشد » التى لا أجد نفعاً فى أن أوجزها ، لأنى أعتقد أنه إما أن يقرأ هذا الجزء الثانى على أنه عمل مستقل ، وهذا ممكن ، وإما أن يسبقه الجزء الأول برمته وهذا محتمل . .

كل ما أود أن أقوله أن هذه الرؤية التى تُحكى من خلال « مجموعة علاجية » تحضر العلاج النفسى الجمعى هى تكملة للمحاولة العلمية الفنية التى هممت بها والتى ما زلت غير آمل فى احتمالاتها المستقبلة .

فردوس الفيلاوى

مالى أنا ؟ يكفينى ما بى ، عيالى أولى بى ، همى يبقى ، مطبخى ، ستائر حجرتى ، ألا يكفيه أنى أهتم به ، حتى بإصلاح جواربه ، ما ذا يريد منى بعد ذلك ؟ .

صبرت حتى على العجز نفسه وعلى فضيحة انتحاره ، لكنه هو لا يتركنى فى حالى ، يريد منى أن أذهب معه إلى العلاج ؟ أى مصيبة وصلنا إليها ، أى علاج هذا المجنون ، ما ذا بى للعلاج ، كلام فارغ فى فارغ أنا عرفت حركاته ، يريد أن يلصقها بى فى النهاية ، لن أذهب ولو انطبقت السماء على الأرض .

* * *

تنازلت له عن كل شىء نسيت نفسى إرضاء لأنانيته : الليسانس ، وأحتفظ بورقته مع خزين البصل ، أهلى ، وانقطعت علاقتى بهم ، أصدقائى وانصرفوا عنا هرباً من قلة ذوقه ، حتى قراءة الفنجان التى كنت أعرف من خلالها نفوس الناس أحسن من طبيبه المخلول نسيتها وما كان قد كان ، ثم ها هو ذا لا يدعنى فى حالى ، أريد أن أعيش مثل الناس ، ما لها الست محاسن جارتنا ، وابنة خالتى صباح وتماضر الجحش زوجة سعد عرفة ، بل أم عنتر زوجة عم عبده البواب .

عشت معه طول هذا العمر وتحملت ما تحملت على أمل أن يكف عن الجرى فيما لا طائل ورائه ، وكاد يتحقق أملى بمرور الأيام حين أصبح مطيعاً سلساً بعد سنوات ، ثم حدثت المصيبة التى لا أدرى من أين جاءتنا ، مصيبتى

كبيرة فى هذا الرجل ، لا يعتقد أنى أملك جهازاً للتفكير مثله ، يحسبنى دائماً أعيش فى غيبوبة ، أقرأ فى عينيه نظرات الاحتقار وأصبر ، أنا أعرف الحياة أكثر منه ، وما صبرت عليه كل هذا الصبر إلا لأنى أفهمه أكثر مما يفهمنى كان أملى أن يكملها الله بالستر . . ولكن .

— مالى أنا بكل هذا يا عبد السلام ، الله يهديك .

— هذا هو رأيه ، وهذه مهنته ، وهو يعرف الصالح أكثر منى ومنك .

— وأنت ؟ أليس لك رأى؟ وأنا ؟ أنا مالى ياعبد السلام الله يهديك ، البيوت أسرار دعنا نعيش فى ستر ، دعنى فى حالى .

— أنا لم أذهب مختاراً كما تعلمين ، اضطررت إلى هذا الطريق عقب نجاتى من الحادث ، ليس أمرّ من المرّ إلا العجز والضياع .

— أنت الذى عملتها فى نفسك ، خيل إليك أن العالم انتهى وأن مصر خربت ، صدّقت الإشاعة وحسبتها الهزيمة التى لا نصر بعدها ، وسرعان ما هربت دون تفكير .

— عمر الشقى باق .

— وهذه مصر بخير والحمد لله .

— بخير . . إذا كنا بخير .

— نحن بخير يا عبد السلام . . وكفى جرياً وراء الأوهام .

— لست بخير يا فردوس .

— وماذا الذى يمنعك أن تكون بخير ؟

— . . . . .

— قل لى ما الذى يغمك ؟

— أنت

— أنا ؟ هذا ما عملت حسابه طول عمرى ، سوف تلف و تدور ثم تأتى باللوم على رأسى .

— لا أقصد أنت أنت ، ولكن أى « أنت »

— نعم ؟ نعم ؟ يا نهار أسود . . تريدنى أن أذهب معك هناك حتى يلتوى لسانى هكذا . . . لا قوة إلا بالله .

— يا امرأة ، إفهمى ليس أمامى خيار ، إما هذا أو الجنون أو الانتحار .

— سلب إرادتك يا حبة عينى ، أين أنت يا عبد السلام يا رجلى ؟

— يا ولية . . افهمينى . . ليس لى خيار لأن المصيبة داخلى وأريد أن أحافظ على بيتى لأنى لم أعد أستطيع الكذب ، هذه هى الحكاية .

— أى كذب وأى هباب .. أنت لا تحافظ على شىء إلا على جنونك.. أنا التى دفعت عمرى لأحافظ على بيتنا وأنت لست هنا من أصله .

— ما أعجزنى إلا العجز .

— العجز ؟ قل شاء الله يا أم العواجز .

— أنت لا تدركين الخطورة . . هذا البيت مهدد بالانهيار .

- تهددنى بعد أن صبرت كل هذه السنين ، تأكلنى لحمة وترمينى عظمة ، حقيقة لا أمان للماء فى الغربال .

— أى ماء وأى غربال .. أنا مريض وأعالج ، والطبيب طلب حضورك

— أيوه . . أيوه .. ضع الفاس فى الرأس .

— جرى من أجل الأولاد .

— مالك أنت بالأولاد ، أنت لا تعرف عنهم شيئاً ، أحياناً أتصور أنك لا تعرف حتى أسماءهم ، كفى تهديداً ، لى رب اسمه الكريم وعندى شهادة ، ولا أحد يموت من الجوع .

— وحبنا ؟

— الله . . الله . . تتكلم عن الحب .

— أبحث عن أى لغة تفهمينها ولو كانت بلا معنى .

— . . تضحك علىّ . . ولا تلبث أن تستهين بعقلى كالعادة لا تنكر أنك لم تعد تطيق رؤية اثنين يحبان بعضهما البعض ولو فى التلفزيون .

— لا أطيق الكذب .

— ما تسميه صدقاً هو الجنون ذاته .

— اسمعى . إما أن تحضرى أو أكف عن العلاج .. أو ..

— تهددنى يا عبد السلام . ؟

— أنا مضطر لإكماله يا فردوس

— . . . يا ليتنى أفهم شيئاً . .

— ٢ —

آخر زمن . .

علاج هذا أم قهوة للمساطيل ، مالى أنا وكل هذا ، هذا الرجل ليس طبيباً ورحمة أبى ، هارب من المستشفى بلا أدنى شك ، هو أكثرهم جنوناً ولكن خبثه يفوق غباءهم المستسلم ، لم يوجه لى أى كلمة ، لعله حسبنى لا أملك

ذلك الجهاز المعقد الذى يفكرون به ، ما أغباه .. أنا أستطيع أن أزنهم جميعاً بنظرة واحدة ، نظراته تخترق ما لا يعرف ، لن ينال منى شيئاً لأنى أذكى منه ومنهم .

* * *

وما هذه الأشكال كالتحف التى لا تصلح إلا للمتحف ، تلك المرأة التى اسمها « إصلاح » طبيبة مساعدة أم وسيط منوم مغناطيسى تكاد تأكله بنظراتها ، يجمع حوله الضحايا ويفعل بهم ما يريد .

* * *

قلبى يتقطع على تلك الوردة التى لم تتفتح « بسمة » ما الذى أتى بها إلى هذه المجموعة ؟ ليس بها إلا ما يمر على البنات فى سنها ، أنا نفسى طالما قلت ما قالت فى سنة أولى جامعة ، ارفعوا أيديكم عنها يا حكماء آخر زمن ، دعوها لتختار وحدها وتبحث وحدها وسوف تنسى كل شىء ، كلنا ننسى كل شىء ، مستقبلها فى شبابها وأولادها وبيتها ،

ما الذى أتى بك إلى هنا يا ابنتى ؟

* * *

لم أستغرب أن وجدتك هنا يا غريب ، هذا مكانك الطبيعى ، بدأ الفأر يلعب فى عبى منذ لاحظت زيارات زوجى المتكررة لك ، طول عمرى أقول عليك أعزب جبان ، لا بد أنك تريد خراب بيتى ليتفرغ زوجى لكلامك الفارغ ، لا بد أنك وراء كل هذا ومقام السيدة .

* * *

فهمت من ملكة وهى تكلم جارها « غالى » أنهما زوجان ، الحمد لله أنى وجدت مصيبة مثل مصيبتى ، ولكنها غيرى ، ثابتة لا تتحرك ولا تهتز وزوجها المتحمس المتكلم يعمل الواجب وزيادة ، ولكن لا يبدو عليهما رائحة مرض أو مشاكل ، نادِ هذا أم عيادة ، تكاد تحوطه بسلاسل نظراتها وهو منتشٍ فى حذر ، وكلما نظرت إليه فى وله صفا ذهنه وعلا صوته أكثر ، وراءهم حتى أعرف السر ، لا يخلو مجيئى من متعة نسائية .

فلتستيقظ هواية حب الاستطلاع ، وليكن هذا أول طريق الصحو والعاقبة عندك يا عبد السلام . .

* * *

وهذا الإنسان الحالم «مختار لطفى» ، إذا لم أكن قد نسيت اسمه ، أعتقد أنه ابن ذوات لا يجد ما يفعله ولا ما ينفق فيه نقوده فجاء يتسلى حسب الموضة ويتفرج على هذا المسرح الحى ، ولا بأس من أن يجد فرصة كذا أو كذا ، من يعرف ؟ طول الوقت ينظر إلى « نجوى » التى حسبتها مانيكان من طريقة حركتها وعنايتها بجسمها ولكن كل ذلك لايخفى حزنها، لعلها فقدت عزيزاً وتعالج هنا بتعقيد نفسها بالمرة لزوم العصر الحديث . . تتسلى بالكلام الفارغ عن الحزن الواجب .

* * *

وهذا الذى اسمه « كمال » يتجول على رصيف المجموعة طول الوقت ، يتسكع ولا يشارك أبداً ، أمّا عبد السميع فهو يغط فى غيبوبة لا تمت إلى عالمنا هذا ، شحوب وجهه يكاد يعلن أنه لم ير النوم من زمن سحيق .

* * *

أما «إبراهيم» الطيب فهو الإنسان الوحيد الذى ارتحت له بين الجميع، ملامح عظيمة وصوت ريفى نخم وقلب طيب فعلا، قلبه فى عينيه، وروحه فى يديه، ووجهه ينطق بكل أسراره دون كلام. أعدت النظر إلى زوجى عبد السلام وكأنى أراه لأول مرة. بدا لى غريباً عنى، لا.. بلى هو عبد السلام الذى تزوجته أيام الآمال والغباء، قلبى يدق للذكرى أو لعله يدق خوفاً من التذكر، أخاف أن يعاودنى الأمل، بسمة تذكرنى بأيام زمان، وعبد السلام يبدو مثلما كان، وأشياء تكاد تستيقظ فىّ تبدأ بحب الاستطلاع.. والبقية ترعبنى.

* * *

لا ... كل ذلك كذب فى كذب، وسوف لا أعود ثانية ولو ذبحونى ألعن شىء فى الوجود نبش القبور وخاصة إذا كان فى القبر أمل الحياة ذاته ـ الصداع يكاد يقتلنى.

— فاطمة، بنت يا فاطمة، كوب شاى وأسبرينتين.

قال عبد السلام مقاطعا:

— هـه؟ ما رأيك؟ لم تتحطم الدنيا..

— عندى صداع.

— الحمد لله.

— ما ذا تقول يا عبد السلام؟ أقول لك عندى صداع تقول الحمد لله.. عندى صداع ويبدو أننى سيرشح.

— ربما تحرك المـــارد

— اسمع: لقد طاوعتك على قدر عقلك من أجل خاطر الأولاد ـ أما أن تنقل هذا الكلام الفارغ ليكون أسلوباً حديثاً فى البحث فلا.. دعنا نعيش.

— سوف يحدث .

— لا بد أن تعقل عاجلا أو آجلا ، الناس كلها تعرف كيف تعيش بلا علاج ولا يحزنون .

— ... يعنى ..

— اسمع .. دعنى لأنام

— تصبحين على خير

— ......

أى خير أصبح عليه ، لا . . لن يكون هناك خير ما دام هذا الباب مفتوحاً ، فى عينيه لمحة انتصار لم أرها من زمن ، سوف يغط فى النوم عما قليل وأنا يكاد الصداع يفجر رأسى .

— فاطمة .. الترمومتر يا فاطمة

— ما ذا بك يا فردوس ؟

— أكاد أغلى .. لا بد أن بى حمى

— لا أحسب ذلك .. جبهتك باردة كالثلج .

— دعنى لحالى . . أكثر الله خيرك . . أنت عمرك ما اهتممت بصحتى ولا بى .

— ما تطلبينه ليس اهتماماً

— أنا لا أفهم ما تقول ، أريدك أن تشعر بى ، تسأل عنى تهتم بما أنا فيه مثل كل الناس .

— أنا طول عمرى أهتم ، ولكن بطريقتى

— الله يخرب بيت طريقتك ، هى التى جاءت لنــــا بكل هذه المصائب .

— . . .

— جسمى يرتجف من الصداع والحمى .

— ننتظر قراءة الترمومتر

— تتحدانى ؟ تكذبنى ؟ لن أقيس الحرارة وهذ هو الترمومتر ، هـه ، اسمع سوف أهرب منك ومنه مثل حبات الزئبق هـذه ، فلا تأمل فى شىء ، أنا أدرى بنفسى .

— فردوس .. هل فكرت فى أصل الحكاية ؟

— لا أصل ولا فصل والله العظيم أترك لك الحجرة ، أو أترك لك البيت إن شئت

— أنت حرة

— لا يا شيخ ، ما ذا تقول ؟ منذ متى وأنا حرة ؟

— أنت طول عمرك حرة

— كذاب . . كذاب . . كذاب

— رجعنا إلى أيام زمان

— بعيد عن شنبك ، لن يتكرر حرف من زمان ، لن تخدعنى بكلمات الحب والعالم الآخر ؛ سوف أذهب معك لتشفى أنت ، لا لأمرض أنا ، وأولادى أولى بى ، وأنت لا تفهم بشىء .

— ٤ —

بسمة يا حبة عينى، لا تغيب صورتك عن بالى ، كم أحبك ، كم أشفق عليك ، ما الذى جاء بك إلى هنا ؟ سوف أحضر من أجل خاطرك ، هؤلاء الوحوش لا يعرفون شيئاً عنك ولن يقدر أحد منهم ما بك ، أنا أدرى بك أنت شبابى يا ابنتى ، سوف أساعدك أن تكفى عن هذا العبث كله ، سوف أقاوم كل أمل لم أحققه هذا كلام يا ابنتى ، فض مجالس ، قد يفيد أحياناً فى الإغراء بالزواج ، أما أن يسكب هكذا فى عيادات الأطباء .. فلا .... إيش عرفهم بالحب ، والجنة ، والناس الذين مثل كل الناس ، أنت تعرفينه ، وأنا حلمت به ، وهو كلام حلو . . ولكنه أبداً لن يكون إلا كلاماً حلواً ، كلام مع وقف التنفيذ .. نتزوج لنحققه ولا نكتشف أنه مجرد كلام إلا حين نتورط فى الأولاد ، وعندئذ نترك لهم مسئولية تحقيقه، أما هنا فهم يحرقون اللعبة يا بسمة يا بنتى ، ويوهمونا أنه إما أن نحققه الآن أو نأكل بعضنا البعض ، ياساتر استر ، لماذا لا يتركونك تحلمين ، من جاء بك إلى هنا يا حبة عينى ؟ بسمة يا حبة عينى . . لا تأتى بعد اليوم أتوسل إليك ، كلمات الحب أصبحت مثل فقاقيع الصابون فى ماء المسح القذر مسح العقول ، مسح المنطق ، مسح الشخصية ، ليس لنا يا بسمة سوى ذلك المخزن الدافىء الذى يفقس فيه البيض ليصنع فيه العيال ، نعدهم للجنة التى لم نحققها ، الحكاية أبسط من كل ما يدعون ، يريدون أن يوقفوا الزمن ليحققوا بأنفسهم الجنة التى لا يعرفونها ، لن تصدقينى يا ابنتى ، قلبى يتقطع لما ينتظرك حين تعجزين عن الحركة فجأة : لن ينفعونك ولكنك لا تصدقينى، سوف أحضر من أجل خاطرك ، سوف أهدئ من تحليقك خلف هذ الرجل الذى يلهف منا النقود وليس فى قلبه رحمة ، يتظاهر بإطفاء النار وهو يشعلها ،

يغذى فيك الوهم والخيال وهو يتظاهر أنه يجذبك إلى الأرض ، خبيث ، جبان ، يشعل الحريق بالماء ، ألا تعرفين أن الماء الذى لا يكفى لإطفاء النار يزيدها اشتعالا ، ثم يحملك مسئولية أحلامك ، مأزقك أيقظ عقلى من جديد أصبحت ، أفهم مثل زمان ولكنى أكثر حكمة ، لا تصدقينه واعقلى يا بسمة يا حبة عينى ..

أنا أحضر من أجلك وسأحضر دائماً من أجلك .. ولكن كيف أوصل لك كل هذا الذى يدور برأسى بشأنك ؟

* * *

— لماذا تأتين هنا يا ملكة مع أنك تبدين مع زوجك فى غاية السعادة ؟

— نريد الأحسن .

— ولكنكما فى أحسن حال .. هذا ما تؤكدينه فى كل حين .

— ...

— عن نفسى أنا جئت مضطرة ، جرجرنى زوجى على وجهى ، أحياناً أقول أن تعاستنا تبرر وجودنا هنا فى هذه المسخرة ولكن أنتما ؟ ماذا ينقصكما ؟

— فعلا ... نحن سعداء تماماً

— إذاً .. ما الحكاية ؟

— غالى طموح ، وطموحه لا ينتهى ، يحب المعرفة ويعبد العلم ويسعى بكل وسيلة لتحقيق أفكاره لذلك فهو مصر على التجربة .

ولكنك عاقلة كما يبدو لى ، وتعلمين أن كثيراً ممن يعتنقون هذه الأفكار فى بلدنا إنما يتسلون بها فى الصالونات أو يعتبرونها متعة ما قبل النوم ، ما لنا نحن النساء وهذا الضجيج ، دعيهم يستعملوها لمظاهرات الجامعة ، أما حكاية تحقيقها فهى نكتة يضيعون بها الوقت ويصبرون بها أنفسهم على خيبتهم .

— من أين لك بكل هذه الحكمة ، هذه هى السلبية بعينها ..

— لا يخدعك ترهلى فأنا أحمل ليسانس تاريخ ، ولكن تاريخى الخاص يقول لك لا تنشغلى إلا بمملكتك الصغيرة ، لا تبعدى عن عشك السعيد ، أما هذا الـ . . . ؟ ما ذا تسمين ما نحن فيه ؟

— علاج .

— نعالج من ما ذا ؟

— الأمر لا يسلم .

— لا . . لا .. الأمر يسلم ونقف بعيداً عن هذا المكان الصناعى ، هيا نجتمع فى الخارج أرخص وأسلم ، هيا نقنع زوجينا بالكف عن السير فى هذا الطريق الخبيث .

— لا . . مستحيل يبدو أن طول بقائك فى البيت قد أفسد عقلك ، رائحة البصل تفوح من أفكارك ، أنا مع زوجى إلى النهاية وليس هناك ما يخيفنى ، غالى يعرف كل شىء ويدرك طبيعة الذى يسير فيه ، هو زوجى وحبيبى ولا بد للصراع الطبقى من نهاية .

— نعم ؟ نعم ؟

— ونهايته ستكون لصالح الطبقة العاملة لا محالة .

— اعقلى يا ملكة يا أختى ، وهل نهاية الصراع الطبقى سيتم هنا فى هذا المكان ، راجعى نفسك يا بنت الناس

— غالى مؤمن بالعلم فى كل مكان وفى أى مكان ، يقول أنه يجد الديالكتيك الحقيقى فى هذا الصراع العميق ، هنا بين العجز والإرادة ، بين الحياة والموت ،

— عندك . . . عندك ، ماهـــذه الألفاظ الكبيرة ، لا يجرى هنا إلا الاسترزاق من آلام الناس وحيرتهم .

— مرارة كلامك تذكرنى بالمرحلة الأولى من مجيئى هنا ، عليك أن تستمرى حتى تنفضى عن أفكارك رائحة الثوم والبصل ، الكسل والخوف كادا يقضيان عليك .

— عبد السلام هو الذى قضى علىّ حين منعنى من العمل ، ويدعى كل يوم أنى حرة .

— حاولى أن تتثقفى فى البيت فالكتب مليئة بالأفكار التقدمية .

— ولكنى أراك لا تحاولين يا ملكة ، ثباتك لا يوحى بأى محاولة ، كأنك وجدت الحل لكل شىء .

— أقدس العلم مثل زوجى .

— وهل تجدين هنــا علما ، هل سمعت عن عالم يستعمل كل هذه البذاءات ، هل سمعت عن طبيب يمارس كل هـــذه القسوة والهجوم بلا حساب ولا ذوق .

— هو أدرى بأصول مهنته .

— « بسمة » مثلا ؟ هل يعجبك هذه التجاعيد التى يفرضها هذا الرجل على وجهها الطفل بما يدعيه من ضرورة المشى على الأرض .

— مصلحتها تحدد خطواتها ... ولا شك أن الأمل فى الشباب .

— . . . . . .

— . . . . . .

— يبدو أنى أزعجتك .

— تحياتى للاستاذ عبد السلام .

— تسلمين يا أختى .

.....

حجر صوان ، جرانيت ، ليس لها مسام أنفذ منها ، أردت أن أستعين بها نخلت بى رغم أنى واثقة أنها لا تعنى حرفا مما تقوله ، لابد أن لهامصلحة فى كل ما يجرى ، خلية تدار لحبك مؤامرة ما لقلب النظام ؟ قاب أى نظام ، وكل نظام ، أكاد أفقد سيطرتى على نفسى حين لا أفهم إلى هذا الحد ، نجح الكلب عبد السلام أن يهزنى من داخل ، الحرملك بالديالكتيك . ، آخر صيحة فى العلاج المصرى ، سأقاوم حتى النهاية ، وإذا لم أستطع فالله وحده يعلم إلى أين سينتهى بى ما يتحرك بداخلى

— ٦ —

— ماذا تريد منى يا عبد السلام بعد الذى حدث ؟

— ماذا حدث ؟

— تستعبط حضرتك .

— ......

— حذار . . أصبحت أفهم لغتكم الآن . . فاستعد .

— أستعد لماذا ؟

— لاتحاول يا عبد السلام ، أنت الذى بدأت الطريق وعليك أن تكمله حلوه ومره .

— سوف أفعل لامحالة .

— لا تكن واثقا من نفسك هكذا .

— أنا فى انتظارك يافردوس من زمن بعيد .

— لا أظن يا عبد السلام .

— نعم ؟

— جاء الدور عليك لنبدأ من أول وجديد .

— لماذا ؟

— لأن هناك من أسرار اللعبة مالا تعرفه

— وأنت ؟ هل عرفته بهذه السرعة

— أحس بأشياء كثيرة قبل أن أعرفها تماما

— الإحساس وحده خداع

— يتحدثون عن الحب أكثر من اللازم يا عبد السلام وكأنهم يتبادلون السجائر .

— نعم ؟ هذه حقيقة ، ولكنها لاتعنى ابتذاله

— الأمر أخطر من كل تصور ، ربما تندم ياعبد السلام يوما ما على أنك فتحت عينى ، مسامى تفتحت هى الأخرى لحذار

— الحقيقة أصدق من كل وهم

— تقولها بشروطك

— أى شروط

— لا تدعى الغباء وتحمل مسئوليتك إن كنت رجلا

— رجعنا للبذاءة ، بماذا تهددينى بالله عليك

— أنا لا أهدد أحداً ولكنى خائفة من ثقتك بالحدود التى تحاول أن تطلقنى فى داخلها .

— أية حدود ؟

— لن تحتمل لو تخطيتها

— يجوز

— شىء يتفجر فىّ ياعبد السلام ، فهل أستمر ؟ هل تتحمل نتائجه ؟

— كل واحد مسئول عن فعله

— هذا كلام للاستعمال الظاهرى ولكنى أشك أن أحدا يعرف حقيقته

— يجوز

— أيوه . . . إبدأ فى تمييع كل شىء

— أنا معك إلى النهاية .

— كذاب . . كذاب . . بنفس القدر الذى تكذب فيه حين تقول أنى حرة .

— . . .

— هل مازلت مصرًا على أن أستمر .

— لا تهولى الأمر ، لقد تفجر فى يوما ما شىء مثل الذى تتحدثين عنه، ولم تقم القيامة ، جاءت سليمة .

— ما كل مرة تسلم الجرة

— ماذا تعنين

— النساء غير الرجال

— هذا كلام قديم

— لم أتعلم ذلك الدرس بعد ، بداخلى ثور أعمى وقرونه سيوف من ماس

— عقلك يصحو مثل زمان وتتكلمين مثل الذين يعرفون ماوراء الألفاظ . . نكاد نتفاهم من جديد .

— ليس عقلي فحسب . . ولكن خلاياى كلها

— لا تخافى شيئا

— لست خائفة فلا تلق علىّ خوفك .

— . . .

— . . .

— أنا لا أنكر خوفى ، ولكنى أحس بالتهديد والمساومة

— هذا الخطر يقول لى ، أنت لست حلى ، ولا هو ، كفانا هذا ياعبد السلام ودعنا نربى الأولاد .

— . . .

— . . .

— لم يعد فى الأمر خيار

— لاتصدق هذه الأوهام

— لا أرى شيئا آخر

— ذنبك . . على جنبك . . لقد حذرتك

— ٧ —

خوفه أكبر من خوفى ، هذا هو الطريق للعودة إلى عشى الآمن ، رأيت بعينى رأسى الفئران تجرى فى عبه ، بدأ صاحبكم يهتز وهذا سبيلى الوحيد لأوقف هذا الخطر الداهم ، عثرت على كعب عطيل وبدأت اتذكر

بعض صفحات التاريخ ، سأضرب على هذا الوتر الحساس ، ما أصبرك يا فردوس وما أقوى عزيمتك ، ولو أنى طاوعت غبائى ومكثت فى عقر دارى الخالات المتهمة طول حياتى بأنى سبب مرضه والعقبة فى طريق شفائه .. .. .. أما الآن : لنسلخ وجه من يزعل . . والبادئ أظلم

— ميعاد الجلسة يا عبد السلام

— أعرف

— صاحبك لا يحب التأخير

— ولكنه يتأخر هو أحيانا

— هو صنف آخر من البشر لا يسرى عليه مايسرى علينا .. أليس كذلك يارجل ؟

— ليس تماما .. وإن كان ذلك يخطر على بالى أحيانا

— هل سيحضر ابراهيم الطيب

— طبعا .. مثل كل مرة ، لماذا تسألين وهو لم يتغيب ولا مرة ؟

— خاطر خطر .. وقد علمتمونى التلقائية

— عندك حق ، إبراهيم إنسان رائع وأنا أحبه بل إنى أحيانا أحسده

— أنا أيضا أحبه

— هو يستاهل الحب

— لا تصور الأمر كما لو كنا نشرب قدحا من القهوة ، الحب طريق شائك .

— عن ماذا تتحدثين .

— هل أفقدك العلاج حمية الرجال ؟

— ماذا تعنين ؟

— أقول لك أحب رجلا ، تقول لى يستاهل ، إنى أحذرك ، ذهابى إلى هناك يوقظ فى ما كان قد نام من سنين .

— . . . ماذا تعنين ؟

— أعنى أنى أحاول أن أتمسك ببيتنا ، بالستر ، أحمى الأولاد من تجربة بلهاء ، أحاول أن نعيش مثل الناس .

— وما المانع أن نعيش بمشاعر يقظة ؟

— هذه المشاعر التى تهـــدد بالانفجار لا تستأذن أحدا ولا تحسب حسابا لشىء .

— ماذا تعنين ؟

— لو تطاوعنى ، اتركنى ألزم بيتى ، فلا يقدر على القدرة إلا الله .

— عن ماذا تتكلمين .

— عما أشعر به مما يمكن أن يسمى حباً .. ليس له روابط ولا حدود ، تثيرونه دون حساب .. ثم تحملونى مسئولية خراب بيتى .

— خوفك أكثر من كل تصور .

— لا دعنى أقول لك ما يدور بداخلى حتى لا يسكت قلبك من الهام

— كفى غموضك وهات ماعندك .

— لا فائدة .. كنت أظن أنك لم تنس رجولتك .

— تحاولين أن تجرحى شعورى لأتراجع .

— أنا أعرفك فلا تدعى الهدوء .

— هات ما عندك .

— هب أنى اكتشف أنى لا أحبك .

— . . . قسمتى .

— استسلام مائع .

— يملؤنى كلامك جزعا . . وَلكن لا سبيل إلى التراجع .

— نحن فيها ، والمخاطرة ليس لها حدود .

— عندك حق .

— اسمع كلامى وكفى رعونة

— ولكن تذكرى ما كنا فيه ، كان أبشع من كل مخاطرة .

— يكفى ما تعلمناه ، لقد أصبحت حياتنا أهدأ ، يكفينا هذا .

— إنها أهدأ لأننا فى انتظار الأمل ، ولكنها تنهار فوراً لو توقفنا .

— وجهك الشاحب يقول غير هذا

— لا أنكر خوفى .. ولكنى مستمر

— الناس يعيشون فى سلام ، ولم يعد بك ما يدعو لكل هذا .

— الناس يعيشون فى سلام لأنهم لم يروا ما رأيت

— وأنا مالى . . لماذا تصر على أن أرى أنا ما رأيت أنت ؟ وعلى كلٍّ فهأنذا أرى ماهو أكبر وأخطر .

— لأنك زوجتى . . وهذا قدرنا إن أردنا أن نعيش « معاً » . . لا بد أن نرى « معاً » .

— هل تعنى أنه لا حياة إلا مع هذا الذى تسميه علاجاً ؟

— لا مفر من المخاطرة تحت أى إسم . .

— عبد السلام

— نعـم

— أنت تلعب بالنار

— اللعب بالنار أهون من الحياة فيها

— ٨ —

خيبت ظنى يا رجل رغم أنى صادقة فى كل مخاوفى إلا أنى أمّلت أن تخاف أكثر لأستردك وتعود لبيتنا ، عينى عليك يا بسمة يا قطعة من قلبى كيف ستتزوجين لو أحببت كل الناس ـ هكذا يقولون ـ كيف ستجدين من يتحمل رؤية كل ما رأيت ؟ بدرى عليـك يا ابنتى ، وأنت يا ملـكة ا مناع كم أحسدك على هـذا الهدوء وهذه الثقة ، أنا التى أهرب وأراوغ وأتذكر مرة وأنسى عشرة لا أستطيع أن أطفىء ما بداخلى إذا ما تحرك ، فـما لك أنت لا تتحرك فيك شعرة خوف ، تحضرين وغالى لا يكاد يرى إلاّ معك ، من خلالك ، تجلسين فى هدوء ثم تخرجينه من بين ثنايا صدرك وتضعينه على الـكرسى ، فيتحمس ويقول ويعيـد وأنت لا تتحركين لأنك فى النهاية تضعينه فى مكانه بين ثنايا صدرك ، اطمئنانك عليه يفوق طاقتى ، يا ليتنى مثلك . . إذاً ما قاومت المجىء هنا أبداً ، سوف أتعـلم منك هذا الجمود العظيم الذى تسمينه ثقة ، وسوف أتعلم من غريب الفرجة من بعيد ،

وبعدها أستطيع أن أنتظر قرناً من الزمان ، كل شيء ينتهى إذا انتظرنا بدرجة كافية .

ولكن أحلامى تقول غير هـــذا ، لا أستطيع الصبر على شيء ، متى أستطيع التوقف عن التفكير فى كل ما يجرى ، هل أترك الأمور تسير كما يريدون . . وربما هم أيضاً لا يعرفون ، هل أحاول أن أعرف أنا ؟ هل ألعب الدور لنفسى بدلا من هذا الخوف البشع والانتظار ، الانتظار إلى ما لا نهاية على ما يبدو ، ولكنى أخاف من هذا الرجل ، إذا تركت العنان لنفسى التهمنى دون ضمان ، سأتبعثر بلا معالم ، عبد السلام مصر على الاستمرار وأنا فشلت فى الصبر وفى الفرجة ، الحوائط تقترب حتى لا تترك لى إلا هذه الفتحة التى يتسرب منها ضوء غامض وأنا لا أعرف ما ذا وراءها ، بسمة يا روح قلبى ... لم أعد أستطيع الفكاك ؟ ما ذا أستطيع أن أفعل ؟ ما ذا نستطيع أن نفعل ؟ فى الأول كنت أشفق عليك ، أما الآن فأنا أطلب العون منك كأنى صديقتك الصغرى ، أليس هذا هو الجنون ذاته ؟ لا أكاد أذكر « كيف » ، ولكن الآمال عادت إلى الظهور وكأنها لم تمت أبداً إلا أنى لا أجرؤ على مواجهتها ، كيف تغروننى يا أيها المجانين أن أبدأ من أول وجديد ، أن آمل من أول وجديد ؟ كان الشباب أقوى والعالم أرحب ومع ذلك لم نفعل شيئاً . . ثم آتى بعد هذه السن لأحاول من جديد ، الحقينى يا بسمة ، أعمليها أنت بدلا منى إن كنت شاطرة ، دعونى لأولادى وبيتى ، ولو أنى أشك أنى استطيع الرجوع الآن إلى عشى الدافئ المحاط بالخدر والنسيان ، بدأت أسمع فيه حفيفاً ما ، وأخشى أن يكون دبيب الهوام .

ربما أنقذنى ابراهيم الطيب ، ملامحه تبعث الطمأنينة ، سوف أقتهز

الفرصة لعلى أعرف حقيقة مشاعرى نحوه ، أو على الأقل ربما أحس عبد السلام بالتهديد .

— ابراهيم

— نعم

— أنا خائفة

— طبعا

— هل تعرف ماذا يجرى هنا

— نعم

— إبراهيم ، لاتبدو واثقا هكذا وإلا حسبتك مثل ملكة مناع

— هذا طريق أعرفه تماما

— من أين عرفته

— من داخلى

— يا بختك !

— لابخت ولا يحزنون

— إذا كان داخلك بهذا الوضوح ، لماذ أنت هنا ؟

— الوحدة ، لست إلها

— أو ستبقى هنا إلى الأبد ؟

— حتى أكسرها ، أو أكف عن الخوف منها ، أو الاحتماء بها

— كلامك صعب ، ولكن على أى حال ساعدنى على خوفى

— حاولى ألا تخاف من خوفك .

— يعنى أخاف ؟

— طبعاً

— إن الأمر يخصك يا إبراهيم

— لا يخصنى وحدى

— وكيف عرفت

— من داخلى

— أنا أحبك

— وأنا أيضاً

— يانهار أسود

— ليس أسود من قلوب الحقد

— أنا أحبك بكل ما يترتب على ذلك

— وزوجك ؟

— أحيانا أحبه هنا : وأشاجره بقية الأسبوع

— أحس أن حبك له « هنا » مثل حبك لى ؟

— . . تقريبا . . ولكن ماذا تريد أن تقول

— إذاً لماذا الخوف

— أكاد لا أفهمك

— بل تفهمينى أكثر من تصورك

— حرام هذا كله

— الكذب هو الحرام الأوحد

— ضاقت الحلقة ولا مفر من المواجهة

— ٩ —

— ماذا تريد منى يا عبد السلام

— أريدك معنا .. معى

— ولكنى كنت معك فرفضت ، وركبنا العجز

— لم نكن معا أبدا .. لأنه لم يكن هناك سوانا

— لا أفهم كلمة معنا . هل سنأخذهم «معنا» إلى البيت ؟

— لا أعنى هؤلاء الناس بالذات ، ولكن كل الناس .. أى ناس

— هذا صعب ياعبد السلام وأنا أنهكت وعجزت حيلتى

— هذا هو الطريق كما عرفته

— الإنهاك والضياع ؟

— .. مازال العمر طويلا

— هذا تخريف .. نحن نقضيها أياما

— فلتكن أياما مليئة بالحياة .. مازلت أنتظرك يافردوس

— ولكنى كنت أحبك طول الوقت

— أعرف ذلك ، ولم ينفعنى حبك إلا بعض الوقت .. بالصدفة ، ولكن شيئا جديدا هو القابل للاستمرار .

— يبدو أنه قد تولد فى هذا الشىء ولكنى أخاف منه ، هل تريدنى أن أجن مثلك حتى تصدق أنى أحبك .

— إبحثى فى داخلك . . مازلت ألمح الحياة بكل نبضها الخلاق

— كلام غير مفهوم ولكنه يكاد يطرحنى أرضا .

— أرى فى داخلك بسمة مازالت حية ترزق ، فردوس ؛ أنا ، ابراهيم

الله . . كل الناس .

— هذا كلام كبير . هذا أكبر من احتمالى

— لكنه الصدق نفسه . إحساسى يقول لا تتراجعى

— أعماقى تهتز لدرجة الدوار .

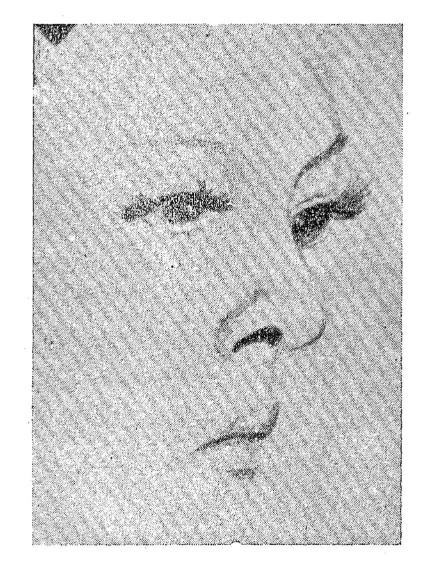
. . . . . .

. . . . . .

. . . . .

* * *

فى تلك الليلة ، حين حاولت الاستسلام كالعادة ، اشتعل بى شىء آخر ، لا . . . ليست شعلة ، شعور يقظ يتحفز ، نشوة تغمر كل كيانى ، بعثت فىّ الحياة حتى أحسست بها فى أظافر قدمى ، لا يمكن أن أصف ما أنا به ولا أعتقد أنه وصف عبر التاريخ ، عقلى ، عقلى نام يقظاً ، لم يتخاصم مع جسمى هذه المرة ، كالمأخوذة فى وعى كامل ، أصعد قمة مجهولة ولكن فى سهولة ويسر ، أعضاء جديدة تنبت فى أحشائى ، تتمطى مثل المارد الخارج من قمقم ، تتجول فى خباياى جميعا ، كائنات منقرضة تصحو وتقفز من المحيط إلى الأرض إلى عنان السماء ، رقصت كل جوانحى رغم أن الخوف لم يتركنى كان عبد السلام ، طيبا مختلفا هذه المرة ، أنا امرأة . . رجل . . الكون كله . . أنا لاشىء . . أو كل شىء هذه المرة . . أول مرة . . لم أعد أحتمل . لم أعد أحتمل .



فردوس الطبلاوى

الحقنى يا عبد السلام ، هذه المرة ••• المشاعر أكبر منى ، ماذا فعلتم بى شكراً ••• ، عليكم اللعنة ؛ دخلتها بالرغم منى . دخلتها بالرغم منى ••• داخلى ••• داخلك ••

لم يعد المجهول مجهولا •• ولا هو فى حاجة الآن لأن يكون معلوما ، حسرة على الأيام الأخرى ، أنا ملك يمينك يا عبد السلام منذ اليوم ••• وأنت داخلى •• وأنا ذائبة فيك •• الحمد لله ••• هو حلو •• وأنا حلوة وأنت ••• فليعش الكل•• تحيا الحرية . . . . الله أكبر !!

— ١٠ —

بالرغم من كل شىء فأنا ما زلت أعيش نشوتى معظم الوقت ، أرقص وأنا أمشى ، أغنى وأنا أتكلم ، أريد أن أذهب إلى كل الناس أحكى لهم عن معنى الصحة وفضـــل الأطباء على البشر والجنس •• لا يكدرنى إلا التغيير الذى طرأ على عبد السلام ، لماذا لا يتقبل فرحتى ، أليس هذا ما كان يسعى إليه ؟ حين كنت عجوزا يائسة كان هو فى إصراره لايجارى ، يقاوم عنادى ولا ييأس أبدا وحين أصبحت طفلة سعيدة تغمرنى النشوة بلا حدود تراجع عن ثباته واهتز وتشكك ، أنا لاأفهم شيئا من كل هذا سيدى ومولاى وحبى ، ماذا أفعل لك رداً لجميلك ، أريد أن أسعدك كما أسعدتنى ، أنا المريدة وأنت شيخى ، وأنت بدورك أخذت العهد على شيخك الطبيب ، عهدى أن أسعدك بلا تفكير أو هم ، فما هو عهدك بالله عليك ، لماذا هذا الشك والخوف والتردد .

— أليس هذا هو نهاية المطاف ياعبد السلام

— بل ربما بدايته إن استطعنا

— لست أفهم ما تعنى

— قلبي غـير مطمئن

— أما أنا .. فأسبح في بحـر الطمأنينة نفسه ، دون حركة ذراع

— لا بد أن نـكمل الرحلة

— شاطيء الأمان لا تلطمه الأمواج . . أفبعد هذه النشوة رحلة ؟

— أشعر أنها بركة آسنة .. مادام الموج فيها قد مات

— فأل الله ولا فألك . . متى تستغنى عن قلقك الأزلى

— هناك خطأ ما

— بضاعتى ليس فيها غش ، مازلت أعيش النشوة الدائمة

— قلبي ليس مطمئنا . . وأحلامى تؤكد خوفى

— عارف بالله ؟ . هذا الوسواس لا يتركك

— عارف بنفسى . . وبالدنيا المؤلمة

— تعالى نسعد بلا حساب

— يخيل إلى أنى عاجز عن ذلك ، لا أتقن هذه اللعبة

— ماذا هناك بعد ذلك ، يـكفينا هـذا ولنبدأ معا فى بيتنا دون تدخل الآخرين .

— هذا هو الخطر ذاته

— لا أميل إلى الذهاب ثانية

— لا أحب أن أخدع نفسى

— اذهب أنت وسأنتظرك دائما لأجعل من بيتنا الجنة بعينها

— فى الأمر خطأ ما . . لا بد من الاستمرار

— أنا شخصياً لا أرى هذا الخطأ ولا أجد مبرراً للذهاب بعد ما حدث ثم إنى خجلة من مشاعرى . . أخشى حين أهم بالكلام أن آخذ الجميع بالأحضان . بل أكثر من الأحضان .

— لا عليك . . لا بد أن نعيش الخبرة حتى أعمق أعماقها .

— لا تعقد علينا الحياة يا أخى . . الله يسترعرضك ، ليس هناك أعماق أعمق مما كان .

— ما أسهل حلولك .

— ما أصعب وساوسك .

— . .

هذا هو عيبه ، يخاف السعادة ولا يتمتع بالنعمة ، لا زال مصراً على الذهاب إلى العلاج ، علاج من ماذا بعد كل هـــذا ؟ ومع ذلك فسوف أذهب معه ، وليغمر الجميع طوفان النشوة .

— ١١ —

لماذا يرفضونى بعد ما تغيرت كلية ، أخشى أن ينطفىء ما بى نتيجة لإصرارهم على الشك فى ، يفكرنى عبد السلام وشيخه وبعض رفقته ، ينظرون إلىّ أحياناً كأنى سارقة مع أنى أعلن سعادتى فى وضح النهار ، هل على أن أدعى الشـقاء حتى يصدقونى ، حين كنت ست البيت العاقلة جرجرونى إلى هناك بأمر الطبيب ، وحين شفيت . . لم يهنئونى بالسلامة ، ولـكن مم شفيت ؟

هل كنت مريضة ؟ أنا لم أكن مريضة ولـكنى شفيت على كل حال ،

الوحيدة التى شاركتنى فرحتى هى بســمة الخلود ، و . . إبراهيم الطيب فرحان بى أيضـاً ، ومختار لطفى ينظر إلىّ بتَهَم ولـكنى لا أهتم به ، موقف الطبيب يشبه موقف عبد السلام ، دعينا منهم يا بسمة وتعالى نرقص رقصة الخلود ، أريد أن آخذك معى نتعرى على شاطىء بحـيرة ، نصفق بأجنحتنا مع الأوز ، نطير فى سمـائها كالنقرس ، ثم نعود إلى شـاطئها ، أقف أنا على كتف عبد السلام وسوف تجدين أنت أيضـاً من تقفين على كتفه ، مهما رفضتم مابى فسوف أظل أسبح فى هذه البحيرة الآمنة ، هذا حق وثمن ألمى طوال السنين ، ليس من الضرورى أن أصارع الأمواج حتى أتعلم العوم ، أنا أرفض رفضكم ، ليس من حق أحد أن يعسكر علىّ الحياة .

* * *

ــ ولـكن من يضمن الاستمرار يا فردوس ونحن ما زلنا على الأرض

ــ لا حاجة للضمان ، ألا تقولون أن الآن هو « الأبد » . .

ــ ولـكنك تستعملين ذلك للراحة والتوقف .

ــ تفسيراتك تشوه كل شىء

ــ والناس ؟ الناس يا فردوس ؟

ــ إياك أن تستعمل حكاية الناس هذه لتبرر هروبك الأزلى من السعادة ، ما للناس ؟ الطريق معروف ومن أراد أن يسعد . . فليسعد .

ــ نسيتِ يا فردوس

ــ لا . . أبداً لم أنس أنا لم أتذكر أصلا حتى أنسى ، وحتى لو . . فلابد للإنسان أن ينسى ، ما فائدة تذكرة الألم ما دمت قد دفعت نصيبى منه ، ثم استلمت المقابل .

— لا أنكر عليك ما بك ، ولكنه لا بد للحم من عظام حتى يصبح كائناً حياً . . له معالم .

— نعم . . ولكن هناك من الكائنات الحية ما لا عظام له

— عمرها قصير

— ما ذا تريد منى ؟

— أين أنت ؟ أكاد لا أرى داخلك ، كأنه انقلب إلى الخارج جميعه فلم يعد هناك جوهر داخلى ليس للإنسان كيان إلا بالحفاظ على أعماقه .

— أكاد لا أفهم كلامك مثل زمان

— هكذا ؟ . . على كل حال . . . . . . عدم فهمك أقرب إلىّ من حلك السهل .

— ما ذا تريد أن تقول ؟

— أحاول أن أكون صادقا .

— إبراهيم الطيب صادق أيضاً ولكنى أحس أنه يقبلنى هكذا ، ومختار لطفى يريدنى ويشتهينى هكذا تقول نظراته طول الوقت ، وبسمة سعيدة بى . . .

— ليس تماماً

— هذه شكوكك . . تريدنى كما تحب وفى الحدود التى ترسمها .

— أعيد النظر فى أشياء كثيرة .

— لا تقلق . . فما زلت أنت حبى وسيدى .

ـــ بهذا تتحقق مخاوفى أكثر فأكثر .

ـــ كيف أثبت لك أنى حيَّة ، وسعيدة ؟

ـــ لو كنت كذلك ، لاطمأننت بصحبتك إلى ما لا نهاية . . . .
ولـكن . .

ـــ جرِّب . . هأنذا

ـــ لا يمكن الاطمئنان إلى إنسان بلا أعماق .

ـــ أمرك عجيب يا أخى . . من أين أشترى لى أعماقا حتى أعجبك ؟

ـــ إبحثى عن السؤال الذى ليس له جواب ، وستجدينه فى أعماقك . .
ولن تنسين الناس أبداً .

ـــ سعادتى أجابت على كل الأسئلة فى لحظة .

ـــ هذه مصيبة المصائب . . . . . !! ، فى لحظة ؟ !

ـــ إذا كان الأمر كما تقول . فالبركة فيك وفى صاحبك

ـــ لم تتحملى الحمل والولادة . . .

ـــ عندى ثلاثة وأنا رابعتهم

ـــ يا ليتك عرفت كيف يولد الإنسان من جديد ، كيف يلد نفسه مرة
ومرات فى هذا العالم الطاحن المطحون ؟

ـــ ماذا تريد الآن ؟

ـــ نبدأ كل يوم من جديد

ـــ يا نهار اسود . . سورة هى ؟ لا تنتهى ! !

— .. ينبغى ألا ننساهم أبداً .

— مَن ؟

— الناس .

— هذا هو النكد بعينه .

— لا ضمان للاستمرار إلا بهم ..

— نعتمد عليهم ؟ لنهرب من أنفسنا كما تقول .

— يختبروننا ونختبرهم ، ولا بد من المشاركة دائما

— لماذا لا تشاركنى أنت ؟ ألست ناساً ؟

— أنا أحد الناس ولكنى لست بديلا عن الناس .

— ابحث فى خوفك من الحياة ولا تستعمل ألفاظا كبيرة ، أليس هذا بعض ما علمتونى إياه ؟

— لا أنكر خوفى ، ولكنى أعرف ما وراء اختزال الألم .

— كفانى ألماً .

— لا تنزعجى منه فداخل أعمق نبضة فيه .. ستجدين الحياة .

— سأحاول بطريقتى .

— ياليت ..

— ١٢ —

أخرجت شهادة الليسانس من بين أكوام الحزين ، عدت إلى العمل مدرسة إعدادى ، زاد تأكدى من ضرورة المحاولة ، لم يعد أمامى اختيار ، التراجع صعب والتوقف مستحيل ، الحلقة تضيق ولم يبق أمامى إلا طريق واحد .. واحد ، نفسي والبحث المستمر ، أقرأ التاريخ بطعم آخر أبحث عن

تجربة مماثلة ، تتراءى أمامى ملامحها فى فجر كل ثورة ولكنها تختفى سريعاً حتى أيأس مما نحن فيه ، انزعج عبد السلام فى أول الأمر من استقلالى ولكننا نتقارب بشكل أهدأ . . وإن كان أبطأ . .

أتساءل : هل كتب علينا أن نكرر التاريخ بنفس الخطوات : اليأس : الأمل : المحاولة : النجاح : الفشل : اليأس : الأمل : المحاولة ... ...

لا أحتمل طول التساؤل فى أغلب الأحيان ، ولا أستطيع النسيان . . ما أصعب كل هذا ! ! .

* * *

غريب الأطوار

هذا شيء آخر . .

لم أكن فى يوم من الأيام أظن أن جارنا عبد السلام المشد ، ذلك الموظف المسالم الغبي سيكون السبب فى أن اكتشف هذا الكنز فى جراب سحرى لهذا الحاوى العصرى الذى يسمى نفسه طبيبا ، جراب يوحى أنه يحوى كل شيء ، من غطاء الكوكا كولا الصدئ حتى خاتم سليمان ، هذه المجموعة لا يجمعها شيء إلا اختلافها وإشاعة خبيثه تشوه مأساة وجودنا بإطلاق أسماء أمراض غريبة على مشاعر الناس ، لكنها فرصة العمر وسوف أتفرج بلا توقف ، لو أنى قرأت مليون صفحة ما أدركت طرافة وعمق ما يجرى هنا ، ما يطمئننى هو يقينى بأن صومعتى هى نهاية المطاف ، ولكن قرون استشعارى تمارس نشاطها فى حيوية دافقة كنت قد نسيتها من زمان ، هذا أكبر من أحلامى للعيش فى ناد للعراة أو جبلاية يجرى فيها التمثيل بلا نص مسبق ، فى تجربتى السابقة كان هو فقط الطبيب وأنا المريض ، وكان على أن أشكو ، أن أفسر ، أن أحكى أن أعالج ، أما هنا فانى استيطيع أن أتفرج دون أن أنبس بكلمة وقد تحصنت خلف حواجزى المانعة بكل ما يطمئننى إلى موقفى الثابت ، من ذا يجرؤ أن يتخطى ألف حاجز وحاجز من الأسلاك الشائكة والخرسانة المسلحة بداخلى ، أضحك فى نفسى حين يحاول أحدهم الاقتراب منى ، أكسبتنى صومعتى مناعة ضد الاقتحام واكسبتنى عضلة عقلى النشطه مناعة ضد الكسر ، أصبحت مثل ساعات سويسرا المضمونة ، موجات نظراتهم قصيرة تسقط عند قدمى بعجزها وترددها ، لا أخشى إلا شيخهم الأكبر . . ولكنى أعلم كيف أحمى نفسى



غريب الأناضولي

من محاولاته ، مازلت على البر عواما . . وسوف أظل على البر أبدا ، ولكنى سوف أحضر بانتظام حتى لو اضطررت إلى التظاهر بالمشاركة فى النقاش وتبادل لعبة الإحساس أحيانا ، رائعة هذه اللعبة : الحياة فى أنبوبة اختبار ، يجتمع عدد من الناس فى عيادة طبيب ، ويجربون أنواع الملاقات المختلفة ، وكأنها معادلات كيميائية ، تكنولوجيا الحب ، والباشمهندس يحذق ضبط العدادات وتزييت القلوب ، «تدريبات المساء فى الإحساس بالشفاء» ! أتصور هذا الرجل المخدوع وهو يكتب النسخة العصرية لتذكرة داود « تذكرة عبد الحكيم نور الدين ، فى هداية المحبين ، إلى طريق اليقين » أجلس بالساعات بعدما أنصرف ، استرجع ما كان وأكاد أهلك على نفسى من الضحك ، منذ سنين لم أضحك هذا الضحك ، أثناء جلسة « تحضير الأوهام » ألبس مسوح الجد وأطرد عن ذاكرتى أى مقارنات بحركات فؤاد المهندس أو عبد المنعم مدبولى ، أحيانا أخاف أن يكتشفنى أحد وخاصة شيخهم المخدوع ، فربما هددنى حينئذ بالطرد أو العلاج ، سوف استمر فى هذه اللعبة بلا انقطاع وسوف أرواغ نظراته وإن كنت على يقين أنه لا يدرك أبدا حقيقة مايجرى ، هو لا يرى إلا ما يتصور ، وهو يسترزق فى جميع الأحوال .

مازال منظر فردوس المسكينة فى آخر جلسة يؤكد روعة الوهم الطبى الحديث ، كانت كالفأر المذعور وهى تتحدث عن حبها لكل الناس : وتخص بالذكر السيد السند ابراهيم الطيب على سبيل المثال لا الحصر « وتفضلوا سيادتكم بقبول فائق المحبة والشفاء » ، صاحبنا عبد السلام يتظاهر بالموافقة وداخله يرتعد خوفا من أن تفتح القطة عيونها دون استئذان ، أو أن يذهب بصرها أبعد من حساباته الغبية ، تعجبت أول مرة حين نجح أن يحضرها

للعلاج ، ما ذنبها هـذه السيدة الطيبة ، جارتى البلهاء ، حتى تضطر لسماع هذا اللغو وغاية اهتمامها حلة مسقعة ، لمـا ذا يفرض عليها أوهامه التفاؤلية بإمكانية الحياة ، لقد استجبت أنا لدعوته لأنى وحيد ولأنى قد سبق لى أن طرقت أبواب العـلاج ، وعلى كلٍّ فإنى لا أعرف أين أقضى وقتى حين يرهقنى البحث عن نظرية تائهـة بين سطور مغمورة علها تنقذ العالم من الضلال ، أحاول الهرب من سواد الكلمات إلى سواد الناس ، أما هذه السيدة فأنا ما رأيتها قط من نافذتى إلا وهى خارجة من المطبخ أو ذاهبة إليه حتى أنى صعقت حين عرفت أنها تحمل ليسانساً فى التاريخ ، عرفت السعادة يوماً على وجهها حين لقيتها مصادفة على الباب تسـتقبل صاجات كعك العيـد ووجهها معفر بالدقيق حتى بدا خداها الوردان فى حالة من البياض الظريف وعيناها اللامعتين بفرحة الأطفال مثل شعاع الشمس من وراء سحاب ناصع ساعة الأصيل ، هذه هى سعادتها الحقيقية يا عبد السلام أفندى ، ولـكنك مثل المقطف ، سمعتَ كلام ذلك الرجل الأبله وأحضرتها تتعلم الحب ، وأى حب يا رجل ، ولـكن يبدو أنها سوف تتقن الصنعة أكثر من تصوراتك ، وربما عم الخير الجميع ، والجار أولى بالشفعة .

حين تفجرت بيننا — حسب التعليمات — عرفت ذلك الشىء المثير فى تركيبها الأنثوى الحار وخفت عليك يا عبده يا جارى العزيز ، ويحك !! من أين لك بالصواريخ جو — جو وكيف ستلحق بها إذا حلقت هى فى سابع سماء ، خاصة وأن جناحيها ينموان بسرعة أكبر من تصوراتك ، لا أستطيع أن أن أنكر أنها تغيرت وإن كنت لا أعرف إلى أين — جمعنا الأتوبيس يوماً ولم تـكن أنت هناك يا عبد السـلام . . وتعجبت إذ بدأتنى هى بالحديث .

ـــ وأنت يا غريب أفندى . . . سالزيست

ـــ لا أبدا . . . عبد السلام هو الذى أغرانى بالمجىء .

ـــ ظننت العكس

ـــ ليس بى شىء على كل حال

ـــ ولماذا طاوعته ؟

ـــ العلم بالشىء ولا الجهل به

ـــ ولكنك لا تتغير أبداً ، فلماذا الغرامات .

ـــ ومن قال إنى أريد أن أتغير ، أما عن الغرامة فهنا أرخص من مسارح القطاع الخاص .

ـــ لم أكن أعرف أن دمك خفيف .

ـــ ......

ـــ ولا أنك سريع الخجل . .

ـــ لا شك أنك تغيرت يا فردوس هانم

ـــ ولكنهم يقولون ليس « هذا » هو المطلوب .

ـــ لا بد أن يقولوا ذلك . . ولكن المهم أن تعرف « من » الذى يطلب « ماذا » . . و « لماذا » ....

ـــ لا أستطيع أن أحسب مثل هذه الحسبة ولا أن أرسم خطة دون إدخال عبد السلام فيها .

ـــ . . . رجل محظوظ

ـــ تحقد عليه وأنت الذى ترفض النعمة !

— فردوس هانم

— أنت حر

— أنت لا تعرفيني

— يقولون هنا أن كل واحد مسئول عما هو فيه

— كلام

— ولكنى أكاد أفهمه من تصرفك

— تلميذة مجتهدة . . ولهذا تتغيرين بسرعة

— سأقولها حتى ولو جرحتك : « أنا أشفق عليك من كل قلبى »

رفصتنى البقرة الرقطاء بلا إنذار ، لكنى سرعان ما استعدت توازنى وصعدت فوقها درجتين لأنظر إليها من أعلى ، ما هى إلا ذبابة حقيرة تطن حوالى و تردد ما لا تعى .

* * *

هل أكف عن الذهاب وأكتفى بهذا القدر من الفرجة ، أصبحت المسألة بالنسبة لى محفوظة ! طلبات أو أوامر بالإحساس وتشكيك فى العواطف الإنسانية المتاحة ، ولا حقيقة إلا الفراغ و التبعية أكاد أفهم الآن هذه اللعبة الخطيرة وخاصة بعد أن بدأت تقترب منى ، حتى فردوس جارتنا البلهاء تتظاهر بالفهم وتحاول علاجى ! ! ما زلت أذكر قول الطبيب الآخر أنى حر وعلىّ أن أجد طريقى بنفسى ، الشقاء والوحدة والحيرة واليأس فى أسس تركيبنا الإنسانى ، وأى محاولة للتشكيك فى ذلك تشويه لحقيقة الوجود البشرى الكئيب بلا معنى ، العالم مقضى عليه بالفناء ونحن نخدع أنفسنا حين نتصور أن لأى شىء معنى ، وما يجرى هنا

ـ للاسف ـ يحاول أن يجعل ـ عبثا ـ لكل شيء معنى ، يحمل الألفاظ أكثر من احتمالها ، لم يخترع الإنسان الألفاظ للتفاهم فقط ولكن لتحميه من التعبير عن عواطفه الفجة بطريقة صادقة تعرض حياته للخطر ، الألفاظ هي الدرع الواقي من المشاعر المهددة بفقد الوعي ، فلماذا يحاولون أن يحملوها كل هذه الشحنة من الإحساس والمسئولية وكأنهم يرهقونها حتى لا تعود تحمينا ، لا أنكر أني بدأت أخشى الاقتراب أكثر وأكثر ، أعداد الذين يحاولون اختراقي تتزايد ، حين يلتحم البعض بصدق ـ كما يبدو ـ أخفي نفسي في أفكاري ولا ينقذني من المشاركة إلا إيماني بجنون هذا الرجل ، لم أعد آمن أحدا فيهم وإن كنت لم آمن لأحد أبدا ، أحيانا أرتاح لكمال نعمان ، أو عبد السميع الأشرم ، الغيبوبة التي يغطان فيها تؤكد لي خدعة الحياة الكبرى ، لم أصدق في أول الأمر أن هذا هو كمال نعمان بلحمه ودمه ، كيف يكون هذا الجالس معنا في ذهول لا ينقطع هو هو ذلك الإنسان الشاعر الرسام الذي تحمل ألفاظه كل مأساة الإنسان وخفايا الطبيعة ومافوق السحاب ، يخيل إلى أحيانا أنه يعمل في المخابرات العامة ، يحمل آلات التصوير السرية ويختزن الافلام للاستعمال الشخصي على الورق الحساس ، وأن هذا هو مصدر هذه الروائع مما نقرأ له من شعر حلو ، هنا لا شيء يثيره وإن كانت عيناه تتذبذبان مثل مؤشر جهاز الاستقبال لضبط الموجات ، حين أنسى نفسي يثير فيّ «مشاعري الخاصة» .. ترى هل هناك سبيل إليه ؟

أما عبد السميع فإن منظره وهو يحاول الإنتباه يثير شفقتي بحق ، أشعر أنه يحاول أن ينشل البحر بقدح قهوة مثقوب ، ثقبه أكبر من محيط قاعه ، في مرة تجرأت على الحديث معه .

— استاذ عبد السميع .

— نعم

— لماذا تأتى إلى هنا ؟

— أمعائى

— مالها ؟

— تقلص دائم ، نصف وقتى منصرف إلى محاولة التخلص مما بها

— وهل استشرت طبيباً باطنيا ؟

— هو الذى أرسلنى إلى هنا

— وهل وجدت هنا ضالتك ؟

— أبداً .. مازال الأمر كما هو تماما

— فلماذا تحضر ؟

— أعجبتنى الطريقة ، وعندى أمل فى الراحة

— ولكنى لم أسمعك تذكر أمعائك أبداً أثناء العلاج

— قبل مجيئك كنت أتحدث عن شكواى كثيراً ، ولكنهم نهرونى وقالوا إنى أهرب فى شكواى من نفسى ، ورغم أنى لم أفهم شيئاً إلا أنى كففت عن الشكوى .

— وهل أنت موافق على هذه الطريقة

— الطبيب أعلم بما يفعل

— ولكن ما يفعله إنما يفعله فيك أنت

— ربنا خلق الطب والمرض

— أو ليس عندك حيرة أو قلق أو حزن

ــ ولماذا كل هذا ؟

- هذه هى البضاعة التى تعرض هنا على قدر ما أرى وأسمع

ــ وأنا مالى

ــ لا شىء يشغلك من هذه الأمور ؟

ــ أبداً . . تديّنى يحمينى من كل شر

ــ هل يعطيك الإجابة على كل سؤال ؟

ــ طبعاً .

ــ وكيف تتحمل هذه الانفعالات والانفجارات من حولك

ــ أشفق عليهم واستغفر الله العظيم من الكفر والضلال

ــ ولكنهم يتخطون الحدود كما ترى

ــ ليس على المريض حرج

ــ استاذ عبد السميع

ــ نعم

ــ أدع لى !!!

ــ حاضر

ــ يا أخينا أنا أسخر منك ، أحاول أن أثيرك فأنا لا أومن بهذا التسليم ولا هذا الأمل ولا شىء

ــ يشفينا الله ويشفى المسلمين

ــ لا تجوز هذه الدعوة على ملكة وغالى ، فهم على غير الملة

ــ رحمة الله واسعة ، وهم من أهل الكتاب

— استاذ عبد السميع !!

— نعم

— لا شيء

ما هذا يالله العظيم ، أمان هذا أم تحذير عام ؟ ، أهذه هي الحياة التي دعوتني أن أطرق بابها يا عبد السلام أفندي ياأبله ؟ ولكن أكثر الله خيرك فقد رأيت مازاد إيماني باليأس طريقا أوحدا للحياة الصادقة .

* * * *

كنت قد قررت أن تكون تلك المرة آخر مرة ، فما الذي جاء بي إلى هنا ثانية ؟ اللعبة وحفظتها ، أستطيع أن أجيب بدل أي واحد منهم نفس الإجابة وبنفس الألفاظ قبل أن ينطقها هو ، خدعة هؤلاء البشر أكبر من كل ضلالات التاريخ ، هذا الطبيب بائع أوهام يحطم وحدته بإملاء أفكاره ، والذي يتنازل عن ذاته ويفقد وعيه يحصل على لقب « صحيح » أو درجة « متطور » أو « حــر » ، ويتقلد نيشان الببغاوية من الدرجة الأولى ، والآخرون يبذلون قصارى جهدهم في الحفاظ على معالمهم ولكنهم مازالوا يحضرون مثل حالاتي ، ما الذي أتى بي اليوم بعد أن عرفت كل ما عرفت ، هذا الشيخ يدعى الطب ، حلمت به لأول مرة ، ظهر في الحلم كحيوان الكنغر له كيس من لحم أمام بطنه ، طلبت منه أن أختبيء فيه من نمور تتبعني ، أمسكني من عنقي حتى كدت أختنق ووضعني فيــه بلا رحمة ، فوجئت بثعبان يقبع داخله ، لم يعضني الثعبان لكن ملمسه الناعم وحركة جسده اللزجة الزاحفة على جسمي كانت أبشع من الموت ذاته ، أنيابه ظلت ترقص أمامي كألسنة اللهب دون أن تقترب مني ، صحوت فزعا وحاولت أن أنسى الحلم دون جدوى ، هل أجرأ وأحكى لكم عنه ، هذه هي الصعوبة

طبعاً لن أحكى حرفا ، أنا لا أحس بالأمان إلا لابراهيم الطيب أحيانا ، ونادراً ما أجد اهتماما فى نظرات عبد السلام ، ولكنهما لا يرددان إلا مايقول شيخ الحلقة ، ومع ذلك فإنى أحس أن حواجزى الشائكة بطبقاتها الأسمنتية بدأت ترق بالرغم منى ، لابد وأن اعترف بأنى موشك على الوقوع فيما حذرت منه طول حياتى ، لا . . . لن يحدث هذا أبداً بعد أن عرفت طريقى إلى صومعة يأسى ، لن أتنازل عن ذاتى ولو كان الثمن هو الموت نفسه ، لماذا أتيت هذه المرة إذاً؟، الوجه الذى تراءى لى وأنا قادم فى الاتوبيس وانتظرت أن أراه فور حضورى هو وجه نجوى شعبان ، جمال هذه المرأة يتحدانى فى كثير من الأحيان ، مازالت غامضة بالنسبة لى ، ثقافتها أكبر من وظيفتها بمطار القاهرة ، عنايتها بجسمها لاتتفق مع صدق أحاسيسها التى تفزعنى أحيانا لم أستطع أن أكتفى بالفرجه عليها ، أثارتنى جنسيا وهى فى قمة انفعالها بالبكاء ، اثارتى كانت من نوع آخر مثل أيام البلوغ الأولى ، لم تكن دموع امرأة مسكينة أو مستعطفة ، ولكنها كانت دموعا مشبعة بالقدرة والتقبل فى نفس الوقت ، لابد أن أعترف أن هذا الرجل يبدو لى أحيانا مثل الحاوى حين أفاجأ بخليط من المشاعر مما لم أعهد تجمّعها معا حتى بين صفحات الكتب ، لعلى حضرت اليوم من أجلها . . . لا أظن ، أحيانا أشعر أنها تلعب نفس اللعبة السخيفة . . تستدرجنى بالدلال والإثارة حتى الموت . . ولكنها تفعل نفس الشىء مع الآخرين ، هذه هى إضافات البدعة الجديدة : حب الكل رغم الارتباط بواحد . . لايقدر على القدرة إلا الله . . لن أدخل السجن برجلى . . ولو كان فى الداخل جنة هى حوريتها وهذا الطبيب رضوانها ، فشلها الأول لا يعنى رفضها للعلاقات الامتلاكية ، وإنما قد يعنى خيبتها فى إحكام الأقفال ، لن يمتلكنى أحد ، لا طبيب ولا امرأة ، ولا رجل ، . إن كان ثمة حقيقة فيما يقال هنا فهى أنه لا يوجد

حب بين أحد وأحد وإنما احتياج ملتهم ، لكنهم يدعون وجود حب آخر يشمل الرجل والمرأة على حد سواء ، وهذا هو العبث بعينه ، يحاولون أن يخففون من هول الجمود الذى نعيشه بالأمل فيما لا يكون ، هذه الكلمة « الحب » ستنزع من القواميس ويكتب فى تاريخها أنها أكبر خدعة اخترعها الإنسان ، على هذا الرجل أن يثبت لنا حقنا فى « اليأس » من كل شىء إن كان صادقا . . إذا لآمنت به دون تردد ، أما التلويح بأشياء لا وجود لها فإنه يحطم الأصنام جميعاً حتى لا يبقى إلا صنمه هو ، وقرآنه هو وصنمه يسميه « الصحة » وقرآنه يسميه « التطور » بالله عليك يا عبد السلام تسأل فردوس عن فائدة هذا الكلام فى صناعة «حلة المسقعة» أو «شطف» غيار العيال . . . حين كنت استغرق فى القراءة كنت أستطيع أن أتصور هذا الحب الذى يحكون عنه ، الانسان أخ للانسان فى كل مكان ، يمكن أن تصنع من هذه الألفاظ بيت شعر أو نصيحة يوم جمعه أو لافتة فى استقبال رئيس دولة كذاب ، ولكن أن تحاول أن تجسد هذا الكلام لحما ودما فأنت تبيع الوهم والخداع ، لا مانع من أن تحلم بأن يحب الانسان الانسان ، ولكن عادلا لا يحب سماداً ، فاذا تريدين منى يا نجوى ياشمبانت .

— هل قررت شيئا يا غريب ؟

— ماذا تعنين على وجه التحديد يا نجوى

— أراك هذه الأيام لا تستطيع أن تحكم تماسكك

— قرارى قديم ولا قوة فى الدنيا تستطيع أن تغيره .

— القرار يتغير أحيانا من خلف ظهورنا ، ونحن لا نختار إلا الفرصة التى تسمح له بالظهور .

- تعلمتم جميعاً الحكمة من مدرسة نور الدين ، حتى فردوس جارتنا القوى لسانها ، والذى كان قد كان .

— لماذا ترجع كل شيء إليه ؟

— لأن الجمل والألفاظ وأحيانا تعبيرات الوجه تتشابه بشكل مزعج .

— خلقنا الله من نفس واحدة

. وخلق منها زوجها ليسكن إليها . . أليس كذلك ؟

— خوفك يصور لك أن المصائد تحيط بك من كل جانب

— أنا مَلِكُ مملكتى

— إن كان لك مملكة

— هى ذاتى بلا زيادة ولا نقصان .

— توقفت تماماً

— أقف بطريقتى وأمشى على مزاجى

— محلك سر ، على شرط ألا يتغير قرارك

— طبعا

— هل أنت سعيد بهذا القرار

— كفى خداعا يا نجوى ، التلويح بالسعادة هو المخدر الحديث ، والأطباء الأرزقية يحسنون استعماله كما ترين .

— وما البديل ؟

— إعلان اليأس التام

— هل هذا هو قرارك

— تماما

— لماذا تخاف الأمل؟

— لأنى عاقل ، تعلمت من تجاربى المرة ، فطلقت الألفاظ الفارغة من حياتى ، لم أعد أحتاج إلى الكذب حتى ولو غلفته المصطلحات الحديثة أو وزعوه بالبطاقات فى عيادات الأطباء .

— بغير الرجاء لا نعيش

— الواقع العظيم يقول : لا جدوى أصلا

— تقترح إلغاء الأمل من حياتنا بقرار رسمى

— الخدمة الحقيقية التى يمكن أن يقدمها هؤلاء الأطباء إن صدقوا مع أنفسهم هـــو أن يعلنوا فشلهم ، أن يصدروا مرسوما طبيا يسحب الآمال جميعاً . . حينئذ يعيش الناس فى الواقع ، ويسعون فى بله إلى اللاشىء مثل ، أجدادهم وأبناء عمومتهم من الفيلة أو النمل الأبيض .

— حياة الإنسان طاحنة ، ووعيه بها مرعب

— هـذا المرسوم ، الذى أقترحه بإعلان اليأس الشامل ، سيلغى الوعى الغبى إن صدق ، وسيوقف الجرى وراء المستحيل .

— ونستسلم للسحق والقهر ؟

— حين تدوس النمل بحذائك مصادفة لا تتوقف بقية المجموعة عن جر لقمة العيش إلى جحرها بـلا حركات ميلودرامية ولا هرب فى المستحيل ، وبهذا تحافظ على نفسها من الانقراض .

— بشع . . بشع . . . بشع

ـــ صدقيني ياتجوى

ـــ بشع وكئيب

ـــ الآن تقتربين من حقيقة الحياة

ـــ مرارتك سوداء .. حتى لأكاد أيأس

ـــ الآن يصبح للعلاج معنى ، هيا بنا للجلسة

* * *

انتصاري هو الهزيمة ذاتها

كنت أتمنى ألا تقتنع أبداً ولكنها حين استسلمت ليأسي بدأ اهتزازي ، لو يئس كل من حولك حتى لو كنت أنت السبب في يأسهم فإن أملاً ما ينبعث في داخلك دون إذن منك فتتحمل مصيبتك وحدك من جديد ولكن المشكلة هي « الأمل » الذي تدب فيه الحياة بعد أن توقن تماما باختفائه تحت الرماد ، ولكن فيم الأمل ؟؟ وكيف ؟..

دخلت إليهم مهتزا تماما حتى بدا للجميع أني غير متماسك . .

* * *

...

...

...

...

* * *

كيف حدث ذلك ؟

كيف سمحت لنفسي أن أتنازل عن وعيي دون حساب ؟

كيف بكيت فى حضن إبراهيم الطيب حتى خيل إلى أنى انتقلت إلى العالم الآخر من فرط الأمان والإذعان والتسليم ؟ كيف أحببت ذلك الطبيب الذى كرست كل فكرى ومشاعرى للنيل منه وفقس خداعه ، كيف تخيلت أن الدنيا بخير حتى تفجر الأمل فى كيانى وكأنه يهبط من شلال لا ينقطع ؟ كيف تمنيت أن أرضع من ثدى فردوس وهى منحنية على فى جنان غامر ، كيف نسيت نفسى ولو بضع ثوان . كيف أحسست بحلاوة الشهيق والزفير ، كيف شعرت بقسمات وجهى وأنا أبتسم ، وأنا أتكلم ، كيف رأيت تدحرج حبات الدموع على وجهى وكأنها الماء المقدس يغسلنى فتختفى الشكوك التى تراكمت طوال هذه السنين ، كيف انبعثت من جلدى أشعة دافئة لتذيب جبل جليد اليأس المتراكم حتى خشيت عليهم أن يصيبهم مكروه لو انهار عليهم ، كيف أحاطونى حتى لم أعد أميز الحدود بينى وبينهم ، حين أحاطتنى أيديهم حتى خيل إلى أن كل إصبع من أصابعهم هو عالم بأسره من الحياة ، اختلطت الأصابع بعضها ببعض وتكاثرت حتى ملأت الأرض بالعالم الطيبين ، كل هذا لم يستغرق سوى ثوان قليلة . . . هى الدهر كله .

وهأنذا أرفض كل ما حدث . .

أعلم أن السبب فى هذا كله هو ذلك الفلاح الجسيم إبراهيم الطيب ، نهر الحياة ينساب من ملامحه الضخمة بلا حساب ، يده التى كأنها قدت من جبل تقطر حنانا وثقة ، لم يكد يرانى مهتزا من استسلام نجوى ليأسى حتى انقض على يغمرنى بهذا الشىء الرائع الذى يسمى أحيانا الحب وهو أكبر من أى اسم ، مازلت أذكر كيف انفجرت فى البكاء فور سؤالى

عن إحساسى بمشاعر ابراهيم نحوى وعن قدرتى على إظهار ضعفى ، لم أكن قد استجمعت حذرى بدرجة كافية كان دبيب الأمل يشوش فكرى ، اختلت حساباتى فلم أتصور أنه يمكن أن أتبعثر هكذا أمام لحظة صدق مقترب ، لم تثر مشاعرى «الأخرى» وأنا فى حضنه .. أين ذهبت وهى سجنى ومعبدى فى نفس الوقت . . إن مجرد تصورى أنى بين ذراعى هذا الرجل الفحل كان يذهب بى إلى سابع أرض ، أين ذهب الخجل من مشاعرى الخاصة والخوف من كشفها ؟ بل أين هى أصلا ؟ كانت نجوى مثل إبراهيم مثل إصلاح مثل عبد الحكيم . كنت رجلا وامرأة بلا خجل ولا تشويه

* * *

ولكن همى الآن هو أن أمحو ماحدث وبأسرع ما يمكن .

لو أنى انقطعت الآن عن الذهاب لظنوا بى الظنون وحسبونى خفت من «الشفاء» أو من الحب كما يزعمون دائما . . لا . . لا يكفى أن أنسى أنا ما حدث بل لا بد أن ينسوا هم أولا ما حدث ، ولكن كيف ؟

أكبر خدعة خدعتها فى حياتى هى هذا الاستسلام القبيح ، أين كنت «أنا» حينذاك لما تنازلت فجأة عن كل مكاسبى وأشيائى الصغيرة وانتصاراتى الصومعية ويأسى المبدع ، أين كنت حين ألقيت تاريخى فى لحظة واحدة فى أرض لا أعرف أغوارها ، لا . . لن ألقى اللوم على ابراهيم أو نجوى ، بل هو شيخهم الخبيث ، لابد أنه وراء كل هذا ، لابد أنه سلطهم علىّ «ليحبونى» . . . رغم أنفى ، تكتيك مدبر لأفقد ذاتى ، لأنه متأكد أنى الوحيد الذى أعرف كيف يخدعنا جميعاً ، هذا هو التفسير الوحيد لتجنبه التفاعل معى مباشرة حتى الآن ، كله من خلال المريدين الذين يدربهم على تجسيد الوهم ، حب بالإكراه ، ثم . . لاشىء . . ، هأنذا ملقى فى

حجرتى والتراب يعلونى منذ أمس الأول مثلما تراكم على الكتب منذ شهور ، لم يبق لى إلا التفكير فى كيفية الهرب من هذا المأزق وتوقيت ذلك، قد اضطر للمضى فيه رغم أننى بعض الوقت ولكن كل شىء انتهى إلى غير رجعة ، أى حب هذا الذى لاينفض عنى حتى التراب ، ما الفرق بين هذا الخداع وبين أى لعبة غرامية نذلة ، ألفاظ عظيمة ، ولحظات وكأنها الصدق ، ثم لاشىء إلا النسيان والضياع ، من منهم يفكر فىّ الآن ؟ حتى أنت يا كمال الذى لاتعرف ماتفعله بى مشاعرى نحوك ، هذه فردوس هانم تتراءى لى عبر النافذة وهى تخرج من الحمام وعلى رأسها عمة تعلن انتصارا أنثويا من النوع الجديد ، ثم يدخل عبد السلام يغسل عن عقله الأفكار المتناقضة ليدعى كل منهما الصحة السلامة بجرعات الوهم واللذة المستباحة . . وأنا . . أنا ؟ كيف سمحت لنفسى أن يحدث كل هذا ؟ أمس سمعت جرس الباب يدق فى إلحاح ، أحسست أنه عبد السلام ولكنى لم أفتح ، أصر على دق الجرس دون جدوى ، انصرف فى خطوات مترددة ، أين الحب إذاً ؟ كان عليه أن يكسر الباب ، ولكنى على قدر ما تمنيت أن يكسر الباب على قدر ما اعتزمت قتله لو فعلها .

كان لابد لى من هذه الأجازة من كل شىء حتى الأكل والشرب وياحبذا التنفس والإحساس حتى أستطيع أن أجمع نفسى بعد ماحدث الذى حدث ، انسحاب تام إلى صومعتى وتوقف عن كل شىء إلا عن التفكير واللوم حتى فى نومى ، عضلة تفكيرى لاتهدأ وانتباهى يزداد حدة ، كيف سمحت لنفسى بهذا الذى كان ، كيف أمحو آثار العدوان ، أبشع عدوان عرفه التاريخ . . فجأة لاتجد لذاتك معالما تذكر وتصبح قطرة فى محيط دون إذن منك ، ولكنى لا ألوم إلا نفسى ، أنا الذى ذهبت

رجلى وأنا الذى أقنعت نجوى باليــأس التام ، وأنا الذى اهتززت حين صدقتنى فدب فىّ الأمل المتحدى .. ثم أنا فى النهاية الذى فملتها ، ولـكنى أيضاً أنا الذى سأمحوها من ذاكرتهم ومن ذاكرتى تماماً ، سوف أذهب من جديد لا محالة ، سـوف أستجمع كل قواى الدفاعية ولأراجع تاريخ أجدادى لأستجلب أقوى وسائل الـكر والفر والتمويه ، كيف أومن أنى أنحدر من أصل سلحفاوى وأن غطائى الحجرى وقدرتى على سحب رأسى وأطرافى داخله فى الوقت المناسب سوف تحمينى منهم ثم لا أقدّر أن الدفء يمكن أن يدخل من فتحاتى حتى لو اختبأت بالداخل ، خدعت فى نفسى حتى نسيت ضرورة البيات الشتوى لاستعادة النشاط واستمرار الحياة واسترحت إلى دفء خادع وكأن الشـتاء لا يأتى أبداً ، كل ذلك دون أن أدرى ، وأنا الذى كنت أحسب أنى لا أسمح لمسة خبرة أن تمر بى دون وعى كامل بها ...

ثم .. ثم هأنذا ملقى على ظهرى السلحفاوى المقوس كلـما حاولت أن أعدل نفسى تأرجحت كنصف الـكرة دون جدوى فى اسـتعادة توازنى بعودتى للارتـكاز على سطحى الأملس ، لم تنفعنى قدرتى على التقدم والتأخر برأسى المتلفت فى حذر ، لم ينفعنى بطئى الشديد ولا نفسى الطويل ولا حركتى الهادئة ، كانت حاجتى للدفء والهواء المتجـدد أكبر من حسابى لضرورة البيات والانسحاب فى الوقت المناسب لا بد من مراجعة كل دفاعاتى ، لا بد من البحث عن منفذ فى أجدادى ينقذنى من الخداع مرة ثانية ، سوف أنشر أشواكى وألتف على نفسى عند أول تهديد بالاقتراب .

أفـكارى تجوب الأرض وتسـتعرض التاريخ ، شللى تام وشـكوكى حادة . الحراب تدمى كرامتى وتحذرنى منهم ومن أى كائن حى ..

المهم الآن : من يقلبنى على بطنى الأملس ثانية ، لا .. لقد تعبت من طول المحاولة بلا جدوى .. لا شىء إلا التأرجح والدوار .

* * *

نظراتهم ترعبنى ، ما ذا ينتظرون منى بعـد ذلك ؟ أن أفعلها ثانية ؟ أن أعيد اللقطة حتى يتأكدوا من حسن الأداء وحذق المخرج ، « كلاكيت عواطف بشرية طازجة : سابع مرة » .

يا فرحتى بصندوق الدنيا الجديد ، كنا زمان نتفرج على السفيرة عزيزة وهى شبه عارية بمليم واحد والآن نشاهد عرض « ستربتيز » للتنازل عن الـكرامة والشخصية والوعى قطعة قطعة .. ولعاب المخرج يسيل لأنه لا يبقى « مرسوماً » .. إلا هو ، أنا أرفض نظرة الترحيب التى لقينى بهـا اليوم يا غبى ، لا تتمادى فى السعادة الشامتة لأنى تنـازلت عن ذاتى لحظات ، لن ترى هذه اللحظة ثانية حتى أموت ، أنا هنا لأثبت لـكم أنى ما زلت « غريب الأناضولى » بلا زيادة ولا نقصان ، وأنى ازددت اقتنـاعاً بأن الوهم الذى تبيعه أيها التـاجر الحاوى لا يسـتمر أكثر من ثوان ، وإن استطعت أن أحمى الآخرين من مثل هـذه المسخرة فلسوف أفعل بلا تردد قبل أن ينقلبوا على ظهورهم دون حساب . ترى ما ذا تفعل يا كمال لو استجبت له ، أليس من الأسهل أن تستجيب لى أنا وأنا أعمى لمسـة من طرف أصابعك ، هل تضمن أن تجمع نفسك من جديد لو تبعثرت منك تحت وهم العلاج ، هل ستعود ما يسـترو الألفاظ وسيد موسيقاها تقرض الشعر لتؤكد العدم ، الآن فهمت معنى الغيبوبة التى تتواجد بها بيننا لتحمى كيانك من الاعتداء ، والآن أستطيع أن أحترم معتقدات عبد السميع المقدسة لأنها أرحم من هذه المنـاورة الخطرة ، فليتمسك بها ضد مناورات ادعاء الحب

وليرتسكز عليها حتى ولو كانت دعائم نخرها السوس ، هى جزء من ذاته على كل حال ، أما ما تدعونا إليه أيها الحاوى المخادع فهى ذاتك أنت مهما صورتها على أنها الذات العليا ، أو اللاذات ، انطلقت مشاعرى «الأخرى» تذكرنى بنزواتى القديمة، أحس بها هذه المرة نحو إبراهيم وكمال بنفس العنف إلا أنى سأتجنب إبراهيم تماماً خوفاً من تكرار المأساة ، أما أنت يا كمال فالطريق إليك أسلم لو فهمت رغبتى فيك . . رغبة تؤكد موتى حتى لو غمرتها اللذة المرعبة .

— كمال . .

— نعم

— أنا أقرأ شعرك من قديم وأحس فيه بصدقك وحساسيتك وقدرتك .

— . . .

— . . . .

— شكراً . . أصبح الآن فى حكم الماضى . . خاصمنى القلم إلى غير رجعة

— كمال

— نعم

— ما رأيك فيما حدث لى فى المرة السابقة ؟

— أنت حر . . . هذا أنت

— أنا أتكلم معك فيه لأنى أشعر أنك ترفضه أيضاً

— ليس لى رأى محدد تجاه أى شىء ، على الأقل حالياً

— لكن رأيك لاذع فى شعرك ، ويقولون مثل ذلك عن لوحاتك رغم أنى لا أفهم فيها شيئاً ، كثيراً ما سألت نفسى هل أنت حقاً كال نعمان .

— وكثيراً ما سألت نفسى نفسَ السؤال .

— أنت فنان بكل معنى الكلمة

— ولكنى لا أعرف لهذه الكلمة معنى محدداً كما تحاول أن تصورها.

— هذه طبيعة الفنان بلا شك

— ولا عدت أعرف طبيعة للفنان : أنا هنا لأنى لا أعرف ، تبدون كلكم وكأنكم تدركون شكواكم أما أنا فشكلتى الأولى أنى لا أعرف ما هى شكواى على وجه التحديد ، إلا إن كان التوقف عن العمل أصبح مرضاً حديثاً .

— لهذا أنت صامت متأمل دائماً .

— ليس عندى ما أقوله أصلا . .

— ولماذا تحضر إلى هنا ؟

— ربما لأعرف ماذا أشكو منه

— يا خبرا وجودٌ إلى اللعب أشبه .

— هذه حقيقة أمرى

— وهل هو الذى نصحك بالحضور هنا معنا

— طبعاً . . . . لم أحضر بناء عن إعلان فى الصحف . .

. . .

— . . . .

— ما رأيك فيه

— حِرَفِىٌّ ماهر

— ألا تخاف منه ؟

— لا ..

— لماذا ..

— لكلٍّ حدوده

— هل تعتقد أنه صادق فى مشاعره ؟

— غاية على أنه فنان أيضاً ، وإذا كانت مادتى هى الألفاظ والألوان فمادته البشر

— ولكنك تحترم الألفاظ أكثر مما يحترم هو البشر

— الفنان لا يعرف الاحترام ولكنه يحاول الصدق

— تدافع عنه

— أقول لك إحساسى

— ولكن خبرتى تقول أن هذه لعبة خطرة

— يبدو ذلك

— ومع ذلك ستستمر فيها ؟

— فى الأغلب . . أجد متعة حقيقية فى الحضور والتأمل

— كثيراً ما يخيل لى أنك لست معنا أصلا رغم أنك الوحيد الذى تثيرنى ، الشيء الوحيد الذى استيقظ فىّ هو ما كنت أخجل منه . . دائماً ، كنت قد ألغيته بالنسيان والاستسلام للوحدة .

ـــ ما ذا تعنى ؟

ـــ إحساسى الفج أصبح على السطح ، وهو إحساس عنيف .

ـــ ما ذا تعنى ؟

ـــ ما فائدة الشرح والإفاضة ؟

ـــ لا أفهم ما ذا تعنى ؟

ـــ هل تزورنى فى البيت نـكمل الحديث . .

ـــ لا مانع

* * *

مناعتك تفوق الوصف ، كنت أحسب أنى أقدرهم على الفرجة ، يبدو أنك تفرز شحناتك أولا بأول على الورق فلا تضطر إلى مغامرة التفاعل بما تحمله من خطورة التعرى والتشقلب . . ثم اكتشاف الخداع الأعظم : . هذا هو أحسن ما يقدمه الفن لوجودنا المهدد ، هل أعاود الكتابة التى فشلت فيها قديمـاً ، ما أغبانى إذ اكتفيت بالقراءة لمـا أقنعت نفسى أنه لم يبق شىء يقال ، لم أدرك ساعتها أن فائدة القول قد تـكون لصاحبه أولا ، ما علىّ ، لو قلت كلاماً معاداً يحمينى ويحفظ تماسكى ، ولـكن هيهـــات . . ماتت أى أصالة وسكب الحمـاس على صفحات الـكتب بلا فائدة ، رسم الأولين كل الصور ووصفوا كل المشاعر وحـددوا كل الآمال . . ولم يتحقق شىء من ذلك ، وإن كان لنا أن نفعل شيئاً فهو أن نحقق بعض ما تمنوه ، والآن أتبين أى خدعة استدرجت لها حين تصورت أن ما يجرى هنـا هو شىء من هذا القبيل ، لم يبق أمامى الآن إلا حبك خطة للدفاع المنظم حتى يتم الانسحاب فى الظلام . . .

لماذا تخليت عنى يا كمال ؟ ، دعوتك إلى بيتى وتركت الطبق الشهى وذهبت ، ولما لقيتك تجاهلتنى كأنك لم تكن عندى بالأمس ، لا . . . لن أجرؤ على دعوتك ثانية . . قد تصبح قصة . . فقد عرفت حدودك وعرفت حقيقة مالى . .

* * *

تعجبنى يا مختار وأحتقرك فى نفس الوقت ، هربك أنجح منى كما يبدو أنه ألذ ، قرون استشعارك تبحث عن الفريسة فى كل مكان ولكن شيئا ما يفشلك فى آخر لحظة ، لو أنك وغد فقط لما جئت هنا أصلا ، أتساءل كما تتساءل لماذا أنت هنا ؟ ، ولماذا تواصل الحضور ؟ وكأنك سوف تجد شيئاً لا تعرفه ، ترى هل تغنيك شهوتك عن إكمال الطريق إلى وعى أشمل أم أنها هى هى الطريق إليه ، محروم من هذه المغامرة وأتقمصك فى كثير من الأحيان على أدرك بعض ما ينقصنى ، أفكر فيك أكثر تزورنى صفية وأواجه بعجزى ، ولكننى يا مختار ـ واعذرنى ـ على قدر ما أعجب بك على قدر ما أحتقرك .

* * *

لو كنت أعرف يا عبد السلام يامشد حقيقة ما ينتظرنى هنا من خداع لقتلتك قبل أن تدعونى لمثل هذه الخبرة المهينة ، لعن الله اليوم الذى طرقت فيه بابى ، كنتُ أيامها أستاذاً يعرف كل شىء ، وكنت أنت تلميذا لم تحفظ بعد حروف الهجاء ، والآن أضبطك أحيانا وكأنك تعيرنى بأستاذيتك لى ، كنت تقول أنك هديتنى إلى طريق الصدق والحياة ، ياخيبتك القوية . الصدق والحياة ؟ ما أغباكم جميعاً ، لولا أزمة المساكن لتركت لك البيت

من بابه حتى لا أرى امتداد مسرحية الخداع بينك وبين السيدة حرمكم طول اليوم ، يخنقني منظر « الصدق » المزعوم بينكما حتى لأفكر فى الهجرة إلى القطب الشمالى هربا من كذبكما البشع ، كل الناس تعيش فى ستر مؤلم ولكنهم لا يدّعون ما تدّعون ، استسلامهم أشرف من كذبكم ، خَدَعتكم ألفاظ «الحاوى» فتعلمت فردوس هانم النفز مثل الغراب، تصابيها لا يخدعنى وهى تدعى القطور والصحة ، أمعن النظر ياعبد السلام وسوف تتبين أنها صحوة الموت قرب سن اليأس وصاحبك يوهمك أنها الولادة من جديد أو البعث ، ويتحدث عن سنها بأنها سن النبوة ، ما شاء الله ياستنا فردوس جعلنا الله من بركاتك ، نجاحكم المزعوم ـ لو صدق ـ يهدنى ليلا ونهارا ، لا أقبل الكذب ولا الاستسلام ولهذا فأنا أعيش شرف الوحدة والعجز ، كيف انتقم من فعلتك ياعبد السلام التى ورّطتنى هذه الورطة ، ولكن صبرك ، . سوف أنسحب أولا ثم أمضى بقية عمرى انتظر فشلك الذريع ، وساعتها قد أمد لك يدى صادقا هذه المرة لأقنعك باليأس الصبور الذى هو راحتنا الحقيقية ، لو صدّقتُ ماتحاولان إقناعى به لا نزلقت إلى شباك نجوى شعبان ، أنا مهتم بها ولكنها تغطى فخ الزوجية السعيد بالأوراق المتساقطة من شجرة الصدق والحب . . سوف أحاول أن أنقذها من عماها قبل فوات الأوان .

— ٦ —

ـــ أنت تعلمين يا نجوى أنى مهتم بك شخصياً

ـــ أبدا . . ما المناسبة

ـــ نتحدث بشجاعة ؟

— ياليت . .

— أريد أن أحدثك فيما يجرى هنا . .

— ولماذا لانتحدث أمامهم

— أنا لاأخاف منهم،ولكنهم يثيرون جوا من المفروض واللامفروض بحيث يصبح الكلام ذا طبع خاص وقوانين محفوظه لاتسمح بأى صدق حقيقى .

— هات ماعندك

— ليس عندى شيء . .

— غريب ،.. هل نظرت فى نفسك

— أنا أحذرك

— ونفسك أنت ؟

— إياك أن تتصورى أنى انهرت ذلك اليوم ، كان تمثيلا فى تمثيل

— طول الوقت ؟

— يعنى

— أنا أشفق عليك من محاولة كذبك على نفسك . . لكنى أحبك

يانهار أسود ، أصبحت مثل شحاذى السيدة ، فردوس هانم وعذرتها وهى توزع كعك الرحمة والحنان ، أما نجوى التى كنت أحترمها وأقدر شجاعتها فى تحمل مسئولية فشلها الأول فلاأتصور أن تمنح هى الأخرى فضلات العواطف المبتذلة لأمثالى ممن تتوسم فيهم الغباء والجوع الجبان، ماذا يحركنى فى الداخل ، انفلت منى الزمام حتى لم أعد أحسن الحساب ، هذا كلامه هو

بلا نقصان ، انمحت شخصياتهم حتى لم يعد يصلح أن أكلم أحدا وحده ، نسخة واحدة ، لن يقبلونى إلا إذا أصبحت مثلهم ، هيهات ، لقد استفدت من الخبرة السابقة رغم عنفها بما يفوق الوصف ، علمتنى ألا أسمح لنفسى أن أغيب عن وعى ثانية واحدة ، نصف ثانية ، لولاها لما أشفقت علىّ الست نجوى هانم ، لو كنت فى عز زمان لكنت أصررت على اختراقها ، مالى بها وبهم ، فليذهبوا جميعا إلى الجنة ، أو إلى الجحيم فهم هنا وهناك سواء ، مسوخ لا تمييز بين واحد وآخر ... ، ما الذى جاء بى بين هؤلاء الناس فاقدى المعالم الشخصية ، ربما كان نوعا من الانتحار حين ضجرت من ذاتى المتضخمة ، أغرانى عبد السلام أنه يمكن التنازل عنها دون جنون أو ضياع ، كنت متمسكا بها حتى أمسكت هى بى فكدت أختنق ، حديث عبد السلام عن النفس الكلية وعن الذوبان فى المجموع وكيف يشبه الناس بعضهم البعض جعلنى أحلم بالجنة على الأرض ، ولكن هذه هى النهاية : ورطة وسط مجموعة من الكائنات الهيلامية بلا كيان ، ولكن هذا هو هدفى الخفى من مجيئى هنا ، شخصيتى المحدودة أرهقتنى ولم تغن عنى شيئا فما الذى أرعبنى حين فرطت فى وعيى ، لحظة جزءا من لحظة ، أنا أعلم أنى كنت دائما لا أرى إلا رأيى ، وحين تنازلت عن وعى تلك اللحظات كنت بدأت أشك أن رأيى هو رأيى . أقنعونى بطريق ما أن هذه آراء مفروضة علىّ ، وحتى إذا بدت معارضة ثائرة . . . فما هى إلا نقيض مافرضه أبى ـ والحكومة الـ علىّ ، كدت أصدقهم حتى أنى بدأت فى طريق البحث عن آرائى أنا ، كلام شبه الجد ، وحين فعلتها عرفت أى خدعة استدرجت إليها ، خيبك الله يا عبد السلام ، ما أسهل البحث فى الكتب وتصور مصائر الاحداث دون الدخول فيها ، التاريخ يحوى كل ما تريد

دون محاولة لاختبار الحياة من جديد «هنا» أو «الآن»، الثفاقةسوف تنتحر تحت أقدامكم حين تقفزون فوق خبرات الانسان كالغربان ياجهلة، يفقدناهذا الرجل ذواتنا لنصبح آنية شفافة يضع فيها سائله هو، لا أمان عندى إلا أن يتنازل هو عن ذاته أولا، ويبدو أن هذا مستحيل فقد أحاط نفسه بسياج من ادعاء الاستسلام وحذق ألعاب الحواة، لا ... لن أكون عليا ويكون هو معاوية يا عبد السلام يا أشعرى، أنت غيرى حتى لو استعدت أنت وزوجك الجنة المفقودة، لن أتنازل عن ذاتى إلا لله الذى تزعمزن، إن وجد، وهو ليس فى حسابى لأنى لست أبلها أضرب فى الظلام، آلهتى هى ذاتى، وواقعنا الشق، ووحدتى المقدسة، وليذهب كل ما عداذلك إلى الجحيم.

— ٢ —

— اسمعى يا نجوى

— ....

— هل هناك أمل أن نجرب شيئا آخر

— طبعا ..

— هذه اللغة الجديدة قيد على مشاعرنا التلقائية .

كفى حديثا عن الآخرين، وهات ما عندك ياغريب

— تقولين أنك تحبيننى ..

— طبعا ..

— الحب ليس فيه طبعا .. هذه لغتهم ..

— إسمع يا غريب، إذا بقيت على هذه الطريقة أبدا ذهبت عنك الآن،

ليس معقولا أنني كلما نطقت بلفظ ، نسبته لغيرى ، انظر ما بك من خوف بلا حدود ..

— أنا أرتاح لك وأثق فيك

— هذا طيب ... وأنا أشعر بالقدر الذى أستطيعه وأرفض ضياعك رغم أنك أقنعتني مرة بجدوى اليأس .

— جروحي قديمة يا نجوى ولا أمل فى نسيانها .

— ليس عندى ما أعدك به

— لا أملك أن أكون الوحيد فى حياتك ، ولا أستطيع

— لا أفهمك

— أريد أن أطمئن على قدرتك على تحمل مسئولية ذاتك دون الاعتماد الكلى على آخر

— لاسبيل للاطمئنان إلا بالتجربة

— ليس « معى » الآن على الأقل

— ولكنك ترفض المجموعة

— لا أعنى المجموعة ..

— إذا مع من ؟

— مع نفسك ، أريد أن أطمئن إلى اعتمادك على نفسك

— لست إلهه .. وفشلك أنت فى الاعتماد على نفسك لا يبشر بخير

— فشلى أفضل من نجاح زائف

— كلامك غامض ولا أفهم منه شيئا

— عندك حق .. لا شيء يطمئنني حتى « هذا » .

— . . . « هذا » . . ماذا ؟

— لا فائدة إلا أن تكونى بجانبى دون شروط .

— اسمع يا غريب . . إعرف أولا ما ذا تريد ثم تعال نتكلم .

— « أريدك » بلا زيادة ولا نقصان

— لا يا شيخ . . !! وشروطك الخفية

— نعم ؟ . . نعم ؟ . . تقلبها علاجاً وقذائف موجهة وقذائف مضادة

— أنت لا تستطيع أن تجزم بأمر ثم تتحمل مسئوليته

— تاريخى يقول غير ذلك ، لم يتحمل أحد عنى مسئوليتى أبداً .

— لذلك فأنت الشقاء ذاته

— هذا شأنى

— وشأنى أيضاً

— ترجعين إلى الوصاية تحت ستار ألفاظ الحب

— الله يلعن جبنك يا أخى . . حيَّرتنى

— شكراً لك . . أعرف طريقى

— نعم ؟ . . نعم ؟

— . . أحاول أن أعرفه على الأقل . . دعينى فى حالى . .

— والله معك .

* * *

« الله » يا حثالة المجانين . . مرة ثانية تتركينى يا كلبة ، يا مغرورة ، تريدين ذَكراً تلقين عليه اللوم كله ، وفى نفس الوقت تتمتعين بالحديث عن خدعة الحرية وَالتطور ، هوايتك المفضلة مثل كل بنات جنسك هى امتصاص الرجال والإلقاء بنفاياتهم مثل مصاصة القصب، لولا أنى مازلت أقدر عنادك

لكان لى معك موقف آخر وحديث آخر ولكن عماك صور لك أن اهتمامى بك يمكن أن يذلنى ، عندك حق ، فقد فقدت نفسى منذ سمحت لك أن تتفرجى علىّ ذلك اليوم . . لا احترام ولا كيان بعد اليوم ولكن شفقة واستهانة .

— ٧ —

هذا الحاوى المناور ، هذا الشيخ الساحر ، ما هى حكايته ؟ المصيبة أنى أحياناً أحبه ، وأحياناً أشفق عليه ، ومعظم الأحيان أشك فيه وأخاف منه ، هذه اللعبة أعرفها جيداً ، وقد أنهيتها مع أبى منذ سن مبكرة حين كفرت به وكفرت بالله فلم يعد علىّ سلطان يوجهنى إلا ذاتى ، من يومها وأنا أومن بذاتى إيماناً كاملا جعلنى أحياناً أتصور لنفسى قدرات خارقة جعلتنى مرة قرصاناً يقتل « موبى ديك » بطعنة واحدة ويقضم أنياب « الفك المفترس » ، وذات شطحة حكمت العالم سراً فترة من الزمن . كان حكما رائعاً لم أظلم فيه إنساناً ولا حيواناً ولا طائراً ، ساد فيه الأطفال وكانت الأعمار تسير بالمقلوب فيولد الإنسان عجوزاً وَيصغر حتى إذا ما بلغ عمر الطفل تولى منصب « اللاعب الأول » فى الدولة ، دولتى وزعت فيها الأرزاق بالعدل وزرعت البحر ونبتت أشجار الفاكهة على سفوح جبال السحاب ، كان ديوانى مفتوح على مصراعيه لكل الناس وكان رغم صغره يسع الناس جميعاً ، لم يكن عندى حُجّاب ولا وزراء ولا مساعدين فالأمور أبسط من كل تصور ، وحين استتب الأمر تماماً أحسست أنه لا معنى لسلطانى وَلا حتى لوجودى ، وحين هممت أن أتنازل عن كل شىء أدركت أن هذا الديوان لا بد وأن يشغله أحد غيرى ولم أجد أحداً يصلح له إلا الله ، وهو غير موجود فى يقينى ، وترددت حتى لا يفسد الناس من بعدى وقررت ألا أتنازل عن عرشى ولا أسلم العهدة إلا إلى الله نفسه ، وهو لم يأت إلىّ يتسلمها حتى الآن . .

وحين كنت أنزل إلى العالم الأدنى كنت لا أعرف المشى ولا الحديث باللغة السائدة ، ومع ذلك كنت أواصل السعى لأرجع مثخناً بالجراح إثر الوقوع واللطمات ، لم يتركون فى موقعاً إلا طعنوه ، ومضيت وجراحى تقطر دماً ، أضمد بعضها وأخفى ما يفتح منها حتى لا يشمت فىّ أحد ، أو يشك فى قدرتى أحد من رعايا مملكتى الخاصة ، والحمد لله أنى مثل الثعبان يتجدد جلده باستمرار ، فحميت بذلك نفسى من الشفقة والشماتة ، واستغرقت فى قراءة الكتب حتى أتأكد من فشل كل من سبقونا ، مجرد وجود هذه الكتب دليل على فشل البشرية فى الوصول إلى شىء ذى بال ، لو كانوا وجدوه ما كتبوه ، ثم جاء عبد السلام يغرينى بهذه المحاولة الخفية ، واستيقظ حلمى بمملكة العدل والأمان التى كنت مستعداً للهجرة إليها فى سابع سماء، ما أسعد المؤمنين البلهاء حين يحلمون بها فى الآخرة وسط أغلفة المجهول فى مكان ما بالكون السرى الغامض بعد الموت ، ألا يا ليتنى ما كفرت أبداً ، يا ليتنى ظللت أحلم مثلهم ، كل الذى فعلته أنى تركت لهم جنتهم بعسلها ولبنها حيث كل الناس مثل كل الناس ، لأحاول أن أصنع جنة خاصة بى ، شققت فيها أنهار العدل والأمان ، وانتهى بى المطاف إلى هذه الأصناف المكدسة على أرفف المكتبات لأتأكد من فشل الإنسان عبر التاريخ أن يحقق شيئاً ما . .

* * *

لماذا حكيت لى يا عبدالسلام عن الجنة المسحورة فى عيادة هذا الطبيب الأزرق ، ولماذا لوّحت لى بإمكان الحياة بشكل آخر ، من حقك يا عبد السلام أن تحلم بما يرضيك وأن تجرجر زوجتك المصونة وراءك

كما تحب ، ولكن من حقى أنا أن أحافظ على ذاتى من سطوة شيخك الغامض المغرور وهو أكثر خوفا واهتزازا منى ومن أى واحد فيكم، يغرينا بالتنازل عن ذاتنا فى حين يتمسك هو بكل قطرة من ذاته ، ألم تر أن نفسه متضخمة فاغرة فاهاتلتهم كل ما يلقى فيها من ضحايا الوحدة والألم . . وتقول دائماً هل من مزيد .

نفسى هى زادى وغايتى وشقائى ، وعيى يقظ طول الوقت .. فإذا تفجر فلسوف يتفجر لحسابى لأصنع مملكتى أنا . . . وضمانى الوحيد هو يقظتى بلا حدود . . . قرارى نهائى ولكنى أتحين الفرصة للانسحاب .

***

— قبل أن ذهب أريد أن أحذرك يا نجوى

شكراً . . ولكن تذكر أننا نحبك

— ألفاظكم أصبحت متشابهة . . . مثـــل السمك الميت فى حلقة روض الفرج ، أشم لها رائحة لا تسرك

— تثيرنى فى كل مرة ، ثم تقطع أى حديث بهذه السخرية المرة .

— أنا أشفق عليك تمـاماً . . جاء دورى لأفتح سبيلا للشفقة مثلما كنتم تفعلون .

— ما أجبنك وأغباك

— هذا الرجل يوزع حيرته الكبرى عليكم بالتساوى ويتفرج عليكم من أعلى .

— يجوز . . ولكن ما ذا عندك بدلا من ذلك . .

— حافظى على نفسك المحدودة المعالم ، فلن يعيش أحد بالنيابة عنك

— ولكنك جئت هنا لأنك أنهكت من المحافظة على نفسك المحدودة المعالم .

— نعم ، كنت مخدوعاً حين تصورت أن تنازلى عنها سوف يلحقنى بالذات الكبرى .

— لأنك غير مؤمن بالذات الكبرى .

— تبينت أنى أنا هو الذات الوحيدة فى هذا الكون

— وتنصحنى أن أثبت لنفسى أنى أنا أيضاً ذاتٌ وحيدة

— نعم .. كلٌّ وحدة قائمة بذاتها .. لا علاقة لها بالآخر مثل النجوم فى السماء ..

— ولكن النجوم تسبح فى كون واحد وبنظام واحد

— عبث تدعونه حتى لا نتصور التناثر .. عبث يوهمنا بإله مزعوم لا فائدة لاصطناعه ، فى حين أن كل منا إله فى ذاته .

— أربعة آلاف مليون إله على الأرض ؟!

— وما المانع ؟

— منظر الآلهة وهى تتقاتل على لقمة العيش أو قطعة أرض أو خمسة تعريفة يثير الضحك المر

— الآلهة طول عمرها تتقاتل ، والإنسان لم يصبه البله إلا حين قبل خدعة التوحيد ألم تكن حياة آلهة الإغريق ذوى الاختصاصات الرائعة أغنى وأجمل . إله للعدل ، وإله للجمال ، وإله للحب ، وحتى الشر كان عظيما

وله إله رائع ، ثم جاء الهرب الشمولى إلى شىء ليس كمثله شىء ، قالوا عنه التوحيد ، وصاحبك يقول عنه الصحة والعلاج :

— التكامل هو غاية كل إنسان

— هل هذا كلام يا نجوى ؟ . . هل هذه عيادة أو نوع جديد من من المخدرات ؟

— الوعى هنا يزداد والإحساس يستيقظ

— ثم يتلاشى الجميع فى الجميع ، وصاحبك يقظ يتفرج ، فلا يبقى إلا هو

— إذا تكامل الإنسان فلا فروق . . والإيمان ينساب . . دون استئذان .

— حذار أن تعتبرى التلاشى إيماناً

— خوفك وغرورك يعوقانك

— . . . . خبرتى مرعبة . .

— لأنك لم تكملها

— مستحيل . . ان أتشوه بإرادتى

— كفرك بكل شىء إلا نفسك يدفعك لتشويه أى احتمال آخر

— . . . . . .

— . . . . . .

— وهل أراك خارج المجموعة بعد انقطاعى

— حسب التساهيل

— قد أحب أن أتتبع ما يجرى ، لم أتخلص من حب استطلاعى تماماً ، ولكنى لم أعد أحتمل المخاطرة .

ـــ أنا أحبك . . ولكنى لن أخدعك

ـــ دائماً لكن . .

ـــ محاولة الصدق تساوى

ـــ . . . . ما أسخف كل شيء . . .

* * *

كل ما أتمناه هذه الأيام هو أن أنجح فى إقناعى بفقد الأمل ، أنا شخصياً يائس مثل البداية وأكثر ، ولكن شيئاً يطل على من الداخل وبلا مناسبة يلوح لى بما يسمى الأمل ، وكلما عاودنى هذا الهاتف بالرغم منى قفزت إلى عقلى فكرة الانتحار ، لم أعد أطيق أى شيء يوحى إلىّ بالأمل أو يدعونى إلى الحياة حتى زيارات صفية أصبحت عبئاً ثقيلا يواجهنى بعجزى أكثر فأكثر ، أفكر فى التخلص منها بكل وسيلة ، يخطر على بالى أن أواجهها مباشرة ولكنها قد تقاوم تحت وهم واجبها نحوى ، أمقت هذا الشعور وأفكر فى مختار أحياناً ، فقد يكون بديلا ناجحاً عنى أو حتى انتقاماً منها ومن إصرارها على الحضور لمساعدتى ، ينقبض قلبى كلما أحسست أنى ألعب لعبة خبيثة لا أعرف حقيقة أبعادها ، هذا السؤال الذى يحيرنى بين الأبيض والأسود ، بين أن أعيش أو أموت هو الذى يدفعنى إلى قطع كل صلة لى تربطنى بالحياة ، لماذا لصق هذا السؤال بالذات فى خلايا عقلى من بين كل ما شاهدت عندهم من قمامة ، زارنى عبد السلام ليدعونى ثانية إلى مواصلة الحضور ولكنى راوغته وحاولت أن أحطم كل آماله حتى يحل عنى ، شخص عنيد يخدع نفسه وتخدعه زوجه بغير حدود ، هو السبب ، قبل دعوته الأولى كنت متمتعاً بأنى «لا أعيش ولا أموت» كنت قد اكتفيت بأن أكون « ناعى الحياة الصادق » وبذلك أمزج الموت بالحياة سراً ، أتحدث عن الموت

وكأنى أعيش وأبحث عما يلهينى بين الكتب حتى يتلاقى الضدان فأستأذن إلى الراحة الحقيقية تحت التراب ، أما الآن فقد أصبحت القراءة عبئاً آخر ، كأن الكلمات تتحدانى شخصياً ، كلما قرأت لفظاً نابضاً وجدت شيئاً بداخلى يلزمنى به ، كأنى مسئول عنه ، عن تحقيقه ، عن اختيار إمكانيته ، أى مصيبة حلت بى ، لم أعد أستطيع الاكتفاء بهذه النشوة الصومعية ، أصبح لكل كلمة لسان تخرجه لى ، وحواجب تتلاعب أمامى وتتحدانى ، الحروف لها أسنة مثل الدبابيس تشكنى فى مقلة عينى .

مصيبة وحلت بى . . لا أستطيع نسيانها وإن كنت نجحت فى أن أخفى آثارها ، أواجه مصيرى وحدى بشجاعة :

لا ... لن أنتحر

ولكن ... لن أعيش ..

* * *

نجوى شعبان

كل شيء يقول إنه مستحيل ، وأنا لا أملك إلا أن أصنع المستحيل ، كلام غريب الأناضولى ينفذ إلى عظامى لأنه حقيقة ، ولكنه غبي مسكين ، أشفق عليه فى حماسه ومحاولته إقناعى وكأنى أعترض على آرائه ، أنا أعلم حقيقة اليأس أكثر منه عشرات المرات ، أنا خضت التجارب لحما ودما ، أما هو فقد قرأها فى صومعته ، وبعد أن تأكدت أن اليأس والفشل هما قانوننا الأعظم . . حطمت كل شيء لأفضح الواقع . . وقررت أن أصنع المستحيل ، ولكنه يثير فىّ رغبة فى الاقتراب منه ، ربما لتحديه .

أقول له أحيانا إن إعلان بؤس العالم لايبرر التسليم له ، أحرقت مراكبي جميعاً قبل أن أطرق هذا الباب ، زوجى ليس عليه ذنب فيما أحمل بين ضلوعى من نار مقدسة ، وفيما يذهب إليه نظرى من أعماق ، كثيراً ماقدرت أنها نار جهنم ، وهى أيضاً مقدسة لأنها من عند الله ، أرادزوجى أن تدفئه فأحرقته وانهار البيت بلا إنذار ، تركت ابنتى الوحيدة معه بين الأنقاض ، هو أولى بها ، يرحمها من جريى وراء المجهول المطلق ، أغرقت كل مراكبي فعلاقبل أن أخوض هذه التجربة ، لم يعد لى خيار بعدأن تركت بيتى . . وبترت أمومتى ، وذهبت أبحث عن أصل وجودى لأعرف على أى أساس أبنى علاقاتى بعد ذلك ، أحس أن هذا الطبيب يحبس عنا أشياء يجب أن يقولها .

هو لم يشترك فى قرارى ولكنه يلوحّ بإمكانية ركوب البراق فهو مسئول رضى أم لم يرض . سوف ألاحقه مهما هرب وراء أصول الصنعة ،

أو سر المهنه ، لابد أن يساعدنى لأحقق ما أريد مما أعرف ومالا أعرف ، لو فشلت فى ذلك لكانت نهاية العالم ، ماذا أفعل بهذه النار الموقدة ؟ كل شىء يقول «لا» ويحاول أن يهدئ من لهيبها ، كلام غريب ويأسه وصمت عبد السلام وصورة زوجته المشوهة ، غيبوبة كال وعبد السميع ، تفاؤل إبراهيم المشبوه ، وتردد الباقين ، كل ذلك لايزيدنى إلا اشتعالا لأنى أجد فيهم اليقين فى أن المستحيل مستحيل فعلا وبذلك أجد مبرراً لإثبات العكس ، وأجد مادة لإشعال نارى أكثر وأكثر ، وحتى حين أنجح فى أن أهملها أو أتلهى عنها فانها تندلع فى أحلامى فتكاد تحرق كل شىء .

— لماذا أنت صامت يا عبد السلام معظم الوقت مع أنى أشعر بشىء يجمعنا .

— أنت تعلمين أنى أشعر بك تماما .

— ولكنك بعيد عنى

— حملك ثقيل ولا أريد أن أخدعك بتهوين الأمر .

— لم أطلب منك أن تهون لى الأمر أو أن تحمله عنى أو حتى معى .

— أعرف ذلك ولكنى أتساءل إلى متى تصبرين عليه وعليهم ، طاقة البشر محدودة ، وأخشى أن تنكسرى وحدك ، حتى أمومتك ضحيت بها من أجل شىء لا معالم له .

— لن أنكسر أبداً . . أنا أعرف نفسى ، أنا لم تتحدد معالمى أبداً حتى أخشى عليها من الكسر .

— ولكنك تزوجت وأنجبت وطلقت وها أنت تسبحين عكس اتجاه التيار .

— حملتها جميعاً بشجاعة ودون ندم

— لا أعتقـد

— معك حق ، ولـكن ندمى سيكون أكبر لو لم أكمل طريقى

— هذا الطريق ليس له نهاية

— أعرف ذلك

— هل تريدين منى شيئا محدوداً

— نعم

— قولى مباشرة ماذا عندك

— فردوس

— مالها ؟

— لم أرتح لها أبداً ، لا فى الأول وهى كالبلهاء المذعورة ، ولا الآن وهى كالطاير العاجز المنتشى بوهم الطيران ، فى حين أن قدماه تغوصان فى الطين .

— أعرف كل ذلك ، ولـكن المسألة أصعب من كل تصور .

— أخشى أن تيأس معها ، فأحس بالوحده أكثر فأكثر .

— لست هنا لأ يأس

— اليأس يتربص بنا عند كل منحنى من الضـعف أو المراجعة ، وما بلغنا من العمر يبرر أى توقف .

— .....

— .....

— نجوى . . .

— ...

— أنت إنسانة عظيمة

— هذا يعطلنى . . فلا تكن غبياً كالآخرين

— معك حق

— ٢ —

حين أحسست بحريتى ، وأطلقت لمشاعرى العنان انطلق حبى الملتهب يغلف كل علاقة لى حتى بالجماد والموتى ، ولكن لا بد أن أعترف أن شيخنا هـــذا شىء آخر ، أحياناً يبدو لى أنه أبسط من كل تصور ، وأحيانا يبدو بعيداً غريباً لا يكاد ترى معالمه ، أحياناً يبارك عواطف الضعف حتى أحسب أنه حمامة تضع الحب لصغارها ، وأشك فى إمكان تحقيق أى شىء، ولكنه لا يلبث أن يثور كالنمر الهائج وكأن شعلة جنونه تصارع تاريخ البشرية المرعب ، وحاضرها الساحق ، ومستقبلها المظلم ، أية مهنة هذه التى تفرض على صاحبها صراع الدينصور وركوب البراق فى آن واحد ، أقسم أنه يحتاجها لكيانه الشخصى وأنه فى أشد الحاجة — لمجرد تحقيق وجوده — لكل هذا الإصرار والتحدى ، ولذلك فإنى أحبه ، وجوده يطمئننى حتى ولو لم يتكلم أبداً ، أحس به بالرغم منه ، يحاول أن يخفى شقاءه وراء صياحه وأن يغلف صناعته بتقديس المطلق ، والحديث عن إيمان جديد قديم ،فى حين أنه لا يطلب إلا الأمان فى أبسط صورة ، أخاف من سلطانه رغم يقينى بأن ذلك التضخيم نابع منى ، أحس أحياناً أنى لو سهوت عن نفسى لوجدت روحى ملقاة بين يديه ولا أدرى كيف أستطيع أن أسترجعها منه ، لا . . أنا لم أحرق مراكبى وأهدم بيتى لأسلم روحى لآخر حتى ولو كان هذا الآخر

نبى الله المرسل ، إن كان هناك احتمال للتسليم فابنتى وأبيها أولى به ، أعذر غريب الأناضولى وهو لا يكف عن هجومه عليه ووصفه بأبشع الصفات ، وأتعجب لماذا يصر على الحضور إذاً ؟.. أتمنى أن يستمر فى الحضور لأن وجوده يطمئننى فأنا فى حاجة لأن أسمع رفضه باستمرار حتى لا أنسى ، ولكن متى أستطيع أن أمسك خيوطى دون التماس العون من أحد ؟ إبراهيم الطيب مصدر آخر للأمان ، كم أحبه هذا الفلاح الحلو . . «الدنيا بخير» ما أروعك يا إبراهيم وأنت تحمل مشعلك المتواضع . مثل لمبة الجاز ذات الشريط العارى التى لا يطفئها الريح أبدا . . . .

— ألا يساورك الشك يا إبراهيم فى أن الدنيا بخير

— يساورنى

— وماذا تفعل ازاءه ؟

— أتأكد أن الدنيا بخير

— ألم يحدثك غريب ؟

— . . . حاول

— وماذا فعلت ؟

— لم أرد عليه . . لم أجد ما أقوله ، كانت مرارة حديثه الصادق أقسى من أن يخففها فيضان النيل قبل السد ، لكنه كف بعد ذلك منذ يوم الحادثة ، حين كاد « يؤمن » ثم ملكه رعب شياطين الأرض والسماء .

— عاد أسوأ من الأول

— خاف حلاوة الإيمان . . لا شىء يقضى على الأمل إلا تحقيقه . لأنها بداية مسئولية انتقال الحلم إلى الأرض .

ــ كلامك يجعلنى لا أتعجل تحقيق « المستحيل »

ــ ألفاظك ضخمة . . تبعث الشك فى حقيقتها

ــ أليس مستحيلا يا إبراهيم

ــ « نعم » ... و « لا » حسب موقفك وما تريدين

ــ أريد أن أجعله ممكناً ولهذا أحضر بانتظام

ــ ولكن غريب ما زال يحضر بانتظام

ــ الأمر يختلف يا إبراهيم

ــ أعتقد أنه سيتوقف قريباً ، ولا قوة فى الأرض تستطيع أن ترغمه على الحضور

ــ إطلاقا ؟

ــ إلا أن يفقد توازنه تماماً أو يدخل تحت أحكام القانون .

ــ ما أبشع رؤيتك وحكمك

ــ ... احترام الواقع هو زاد المعاد

ــ ومع ذلك تصر أن الدنيا بخير

ــ ولم لا ؟

ــ ألا تشعر أحياناً أنك تهرب بهذا التفاؤل الغبى . .

ــ اعذرنى هكذا يبدو لى أحياناً

ــ لست متفائلا . .

ــ اسمع ، لا تربكنى . فأنت تعلم أنى أهوى الحيرة لأنها تعفينى من مسئولية التحديد .

ـــ هذه مصيبتك

ـــ ردك سريع وجاهز ، ومع ذلك محير

ـــ اسمعى يانجوى ، لا تفترى بشجاعتك وتذكرى دائما أنك تسيرين على الأرض وكل ما عدا ذلك فهو الهرب بعينه .

ـــ تسمى تحدياتى هربا . . وتفاؤلك ليس هربا

ـــ قلت لك لست متفائلا .

ـــ الجميع يطمئنون لك لأنك متفائل ، حتى غريب نفسه لم يسمح لأحد أن يحتويه ذلك اليوم إلا أنت ـ صحيح صحيح كانت بضعة ثوان ولكنه كان فى حضنك أنت .

ـــ لعل السبب الحقيقى هو أنى أسير على الأرض رغم كل مغريات الطيران .

ـــ وما رأيك فى الدكتور

ـــ له شطحات مثلك ، ولكنى أحبه ، ووحدته أقسى من أى واحد فينـــا .

ـــ أحيانا أحتار من الذى يعالج الآخر : أنت أم هو

ـــ هو طبعا

ـــ اشعر أنه يكلفك سرا ببعض المهام العلاجية ، ويدهشنى منظرك وأنت تدفع الأتعاب كل مرة للممرض مثلنا .

ـــ فضله علىّ لا يمكن الوفاء به

ـــ ولكنك أكثر تماسكا منه

— هو الرائد ... ولا بد من احترام شقائه وألمه ووحدته

— أنا أحبه يا إبراهيم فوق ما تسمح علاقة المهنة .

— أعرف ذلك

— ما ذا أفعل ؟

— لا تتراجعي حتى تعرفي كل شيء .

— أريد أن أساعده وأسعده

— تعرفين الطريق إلى ذلك

— ليس تماماً

— سوف تعرفينه .

يتركني إبراهيم في كل مرة أحادثه فيها وأنا في جو من الأمان يرعبني كيف يمكن أن يكون هذا الإنسان « هكذا » أريد أن أعرف عنه أكثر وأكثر ، أريد أن أخترق صفاءه ، لأرى بحره حين يثور وأعوم في أمواجه ثم أغوص في أعماقه ، ثم أعلن مثله أن « الدنيا بخير » أو أنه أكبر أبله في العالم .

* * *

حين أرجع من هناك ، أواجه عالمي الأوسع في البيت أو في العمل أحس وكأني أكاد أختنق ، يعتبرونني في العمل آنسة أستحق الشفقة بعد طلاقي وحرماني من ابنتي ، ويتهامسون أحياناً أخرى وكأنهم يشكون في عقلي : ولا أعدم محاولات اقتراب مشبوهة بوصفي مطلقة حسناء — حاول أحد الوجهاء يوماً أن يأخذ مني ميعاداً خاصاً وقبلت لتوى دون أن أعرف

سبباً واضحاً لهذه السخافة ، كدت أتراجع بعدها ولكنى أصررت على أن أختبر قدرتى على الرؤية بعيداً عن جوكم الصناعى ، رجل فى منتصف العمر ، شديد العناية بالتفاصيل من أول ربطة عنقه حتى لمسات أصابعه وهو يبادلنى التحية ، لا أنكر أن شيئاً فىّ انجذب إليه ، زاد تصميمى على الذهاب حتى أتعرف على ذلك الشيء الذى ما زال مختفياً بين طيات نفسى ، أكتشفت بلا دهشة أن هذا عالم تركته من زمن ، ولا أمل فى الرجوع إليه ، كنت أتتبع حركاته ومحاولاته للتظرف — رغم أنه كان يبدو ظريفاً فعلا فى بعض الأحيان — وأتعجب على عماه وبلهه ، حاولت أن أثنيه من طرف خفى ، ولكنه كان يواصل كفاحه المجهد دون توقف ، . ما أغرب هؤلاء الناس ، حتى زوجى الطيب كان أكثر إحساساً بحقيقة الإنسان وبعض من داخله ، من هــذا الثور الأعمى ، تأكدت منه أنه لا خيار لى فى مواصلة السعى إلى المستحيل ، إذا كانت هذه هى العلاقات المتاحة فلا بد من تحقيق المستحيل يبدو أن الرجال صنفان لا ثالث لهما : واحد طيب غارق فى حسن النية متلهف إلى أمومة سرية ، وآخر غبى لا يرى إلا ذاته الذكرية اللامعة ويباهى بها فى ســذاجة عمياء ، هذه هى الاختيارات المطروحة يا إبراهيم فما قولك فى حتمية المستحيل ؟ إياك أن تقول لى بعــد ذلك سيرى على الأرض فليس على الأرض كما ترى سوى ذكر الطاوس أو ذكر النعام ، أنا على يقين من أن الله لم يخلقنا لنتراجع عن إنسانيتنا عند أول تهديد بالوحدة أو بالهجر ، لا أعرف مواصفات من أريد بعد ، حتى أنت تخيفنى أكثر من أى آخر ، أكثر من الطبيب نفسه ، أخشى أن تتكشف عن إنسان مخدوع لا يعرف ما يقول ، سوف أخوض المعركة وحــدى حتى أتحدى يأس غريب وتفاؤلك معاً ، مع غريب أكتفى بأن ألقى فى وجهه كلمات الحب بين الحين والحين لأتمتع



نجوى شعبان

فى خبث سافل بخلجات وجهه المرتعدة تترجم عن رعبه المروع ، أخشى أن يخطىء مرة فيقبل أحد عروض وديّ لجأة، إذاً لانتقل الرعب إلىّ.. فليس عندى إلا تكرار ما سبق لو أنى سمحت لأحد بالاقتراب أكثر من ذلك ، أتمتع الآن بهذه العلاقات على مسافة،ما زالت جروحى تدمى ويعاودنى الندم على ما فعلته فى زوجى الطيب وابنتى الطاهرة ، أين أنت يا حبيبتى الآن ، أخشى الانتقام من فعلتى وأحاول أن أكفر عن ذنبى بالاقتراب من بسمة وكأنها هى أنت ، ترى هل أستطيع أن أساعدها ؟ !

ـــ لماذا كل هذا الحزن يا بسمة ؟

ـــ لست حزينة ، ولكنى رأيت أكثر من احتمالى .

ـــ أنت رقيقة فلماذا سبقت سنك الغض، هلا اكتفيت بذلك ومضيت تسعدين بشبابك .

ـــ لا تقولى ذلك وأنت خير من يعلم كذبك .

ـــ أشفق عليك بصدق

ـــ لن أكرر مأساتك أو مأســاة فردوس ، ثم أنت لا تعرفين ماذا فى البيوت ، كل البيوت

ـــ هذا كلام عجوز يا حبيبتى

ـــ وغير ذلك كذب لا يقنع حتى الأطفال

ـــ الحكمة قبل أوانها تفقد الحياة بهجتها

ـــ لا حكمة فى تسمية الأشياء بأسمائها

ـــ وسهر الليالى وسحر الخداع ولمعان الحنان

— كل ما هو كاذب أو ناقص هباء منثور

— يدرى عليك يا حبيبتى

— ليكن . .

وأنت يا ابنتى الغالية هل أنجح فى صنع المستحيل حتى أخفف عنك كل هذه المرارة حين تصبحين فى سن بسمة ؟ سوف أنقذك من الاستسلام الميت ومن اليأس المر ومن الخداع الأعمى ، لقد تركتك وتركت أباك من أجلك ، وحين أتم الطريق سألقاك حتما . . ستحضرين وحدك لأنى أودعت فيك شعلة من نار وجودى ، ولن تتحملى المضى بها طويلا تحت الرماد ، قولى علىّ ما شئت الآن ولكنى لن أكف عن الصراع من أجلك ومن أجل بسمة ومن أجل كل البنات الزهور حتى لا تبذل قبل أن تتفتح .

— أريد أن أحدثك فى كلمتين يا نجوى

— خيراً يا فردوس

— لا . . على انفراد

— سر يعنى ؟

— تقريباً ، لكنى أخشى أن تردينى خائبة

— ما هذا يا فردوس ؟

— خرج الآخرون وأستطيع أن أقول لك الآن

— خيراً .

— أنت جميلة كالقمر

— شكراً . . ولكننا نتعلم هنا أشياء أخرى

— وأعرف أنك معجبة بجمالك

— ليس تماما

— طبعاً أنا أعرف أننا هنا .. « نتطور » أليس كذلك ؟

— نتـ .. ما ذا ؟

— نتطور .. أى نصبح أحراراً .. أليس كذلك ؟

— تنطقين بهـذه الألفاظ الرنانة وكأنك تتحدثين عن المقادير اللازمة « لطبق اليوم » .

— لما ذا لا تصدقوننى وأنا فى غاية السعادة بفضل علاجكم ، وإصرار زوجى على إحيائى

— ما ذا تقولين يا فردوس بالله عليك ؟ ما هذا الـكلام ؟

— ويخرج الحى من الميت

— هل تدركين معنى ذلك يا فردوس .

— هو الذى يقول .. وأنا أحفظ بعض عباراته وقد استسلمت له تماما

— أنت تظلمين نفسك .

— كنت زماناً كذلك ، كم ضيعت وقتى فى المطبخ ومع العيـــال ، أما الآن بعد « التطور » فلم أعد أظلم نفسى ، بينى وبينك سريرى يشهد على ذلك ، عبد السلام يجعلنى أضىء فى الظلام مثل الساعات الفسفورية .

— قلبى يتقطع عليك .. وأخشى أن أصدمك

— لا تـكونى مثله وتنكرين نعمـة ربنا

— ماذا يقول ؟

ـــ يقول أنه لا بد من الصبر حتى أعرف بقية كيانى .. ولقد انقلب كيانى حتى صرت أسعد الناس ، ولست أدرى لِمَ الصبر بعد ذلك ؟ لـكن ـ بينى وبينك ـ يبدو أنه يفرح بتطورى فى الليل ويرفضه فى النهار .

ـــ أخشى ذلك

ـــ ولم تخشينه ؟ كله مصلحة

ـــ وأنت ؟

ـــ أنا مالى ؟ كفى الله الشر

ـــ فى رأيى أنك كنت أفضل قبـل هذا التحول المفاجىء ، كنت أحس بترددك وحيرتك ورفضك ، كانت عيناك لا تغيبان عن بسمة فى فهم وحب ، أما الآن . . فقد غرقت فى بحر سحرى ليس له شطآن

ـــ لا داعى للهم والفـكر . . . ما دام الدكتور وعبـد السـلام يعرفان الطريق ، فسوف يساعدان بسمة كما ساعدانى حتى ينقلب كيانها وتنسى الهم إلى الأبد .

ـــ . . .

ـــ أخذنا الـكلام . . أنت حلوة كالقمر . . وخسارة شبابك فى كل هذا الفـكر

ـــ ماذا تريدين قوله ؟

ـــ زوجك الأول قليل البخت ولم يعرف كيف يحافظ عليك .

ـــ كان رجلا طيباً ولا لوم عليه ، ماذا عندك

ـــ عندى عريس

— ..... نعم ؟

— عريس كله شباب وصحة ، وحالته مستورة وقد حدثته عنك كثيراً.

— ....

— ما ذا قلت ؟

— فردوس . . . يبـدو أنك لست معنا هنا أصلا حاولى أن تفهمى ما يجـرى .

— لقد حاولت فى الأول حتى تعبت ، ثم كان ما كان وأنا الآن ليس عندى مشاكل فما ذا أحاول أن أفهم .

— ما أنت فيه ؟

— كل خير

— لا بد من أن أكلم عبد السلام

— لا . . . لا . . . إنه لا يعرف شيئاً عن هذا الموضوع

— ليس هذا الموضوع ، ولـكنى أعنى موضوعك أنت

— هل غضبت منى

— أبدا . . ولـكن لا بد أن تعيدى النظر

— أنا أفكر كما تريدون . . ولاتنسى أنى أحمل ليسانس فى التاريخ ، أنا لست جاهلة

— ياليتك تستعملين فـكرك بضع دقائق بطريقة أخرى

— أنا مستعدة لـكن قولى لى أفـكر فى ما ذا ، لما ذا ؟

— فى الناس ، فىّ ، فى سبب طلاقى

— أنت أدرى بهذا كله ، وما أردت لك إلا الخير قولى لى إذا شئت لم طلقت ؟

— لأبحث عن المستحيل

— اسم الله عليك . . لقد حفظت هنا كلمات كثيرة مثل التطور ، والحرية ، وها أنت تضيفين إلى القاموس كلمة أصعب ، ما هى حكاية « المستحيل » هذه ؟

— أن نعيش كما خلقنا الله

— اسم النبى حارسك وضامنك . . أنت امرأة مثلى وشبابك خسارة دعى هذا الكلام الصعب للرجال

— فردوس

— نعـــم

— ....

— ....

— الله يسامحك

— ٥ —

عينا مختار لطفى لا تتركانى فى حالى ، ما ذا يريد هـذا الرجل الجائع منى ، عيناه فيهما سحر غامض ينفذ إلى خلاياى الأنثوية دون استئذان ، ليس فيه زيف ذلك الوجيه المتـأنق ولا وضوح إبراهيم المزعج ، ولا يأس غريب الأسود ، نظراته وقحة تنفذ إلى أنوثتى مباشرة دون مقدمات ودون أن يغلفها بأى محاولة أخرى مع غريب أستطيع أن أجد لذة فى التحدى والعناد ،

أما مع ابراهيم فإنى أحس بالطمأنينه والأمان ، لكن مختار شيء آخر : ذكر فحل ، يناديني وكأنه يكتشفني أو يدعونى لاكتشاف نفسى ، كنت أتجنب التفكير فيه معظم الوقت حتى لا أجد نفسى أتجول فى بستان حلم وردى لا يكفى لتبرير تحطيم بيتى واغراق كل مراكبى ، ينجح فكرى طول الوقت فى السيطرة على الإثارة التى تسببها لى نظراته ، أحيانا لا أجد مبرراً لمقاومته ، قد يكون هذا كله عبث فى عبث ولكنه جزء من لعبة الحرية التى أريد أن أكملها للنهاية ، حقيقة أنا أسعى لتحقيق المستحيل ولكنى لن أعرف طريقى إليه إلا إذا طرقت كل باب . . قانونى الوحيد هو الصدق ولكنى أخشى أن اسمى الأشياء بغير أسمائها ، أنا أعيد تنظيم أبجديتى على مسئوليتى الشخصية ، قمت فزعة من نومى أمس حين حلمت به يسبح معى عاريا فى حمام سباحة سرى يقع فى بدروم مسجد أثرى ، كيف أتحدث عن الصدق والشجاعة وأنا لا أسيطر على أحلامى ولا أتصالح مع بقية ذاتى ، لابد من المحاولة مهما كانت النتائج . واجهته فجأة وكأننا نكمل حديثا بدأ منذ زمن .

— نعم يا مختار

— نعم يا نجوى . .

— عيناك تريدان أن تقولا شيئا باستمرار

— صحيح

— لماذا لا تقولها مباشرة ؟

— لأنك تعرفينها ما دمت قد أحسست بها

— دعنا من الألغاز ، أنا أدفع عقلى ثمنا المعرفة

ـــ كلامك كبير والحكاية أبسط من كل هذا .

ـــ حين أترك بيتى وابنتى فلابد أن تكون الحكاية أكبر من كل تصور ، أنت لاتفهم معنى البيت والأمومة .

ـــ هذا اختيارك فماذا تريدين بعد ؟

ـــ أن اخترق المجهول

ـــ أنت شجاعة ولكنك لست حرة

ـــ لاتتحدانى وإلا ندمت

ـــ المسألة ليست مسألة تحد ، ولكنك تضعين حدوداً لحريتك ، والحرية الحقيقية ليس لها حدود وأنا فى انتظارك بلا خوف ولا شروط .

ـــ الخوف الصادق جزء من لعبة الشجاعة .

ـــ ستظلين سجينة خوفك بقية حياتك

ـــ ماذا تريد منى

ـــ أن تكونى حرة فعلا

ـــ ماذا تقصد ؟

ـــ الحرية عندى هى الوجود ذاته ، الوجود قبل ودون أى شروط أو تفكير ، هى حرية الحياة ، قانون الخلية الحية أعظم من كل قيمة ، ولا بد للحياة أن تنتصر إذا أردنا أن نحقق أنفسنا فعلا .

ـــ سمعت أن التفكير والخوف هما من قوانين الخلية الحية أيضاً

ـــ لا داعى للمضى فى المناقشة ، فأنا لا أحب أن أفرض آرائى على أحد إن ما يحدد علاقتنا هو معرفتك لنفسك واحتياجك ، وأنا فى انتظارك . .

أين ينتظرنى هذا الخبيث ولماذا ؟ أحيانا أحس أنه أقرب إلىّ من نفسى ، ابتسامته الوديعة ونظراته النافذة تقول لى تصبحين على خير قبل أن أنام ، وفى أحيان أخرى استطيع أن اقسم أنه يكاد لا يعرف اسمى ، هو لا يخصنى بهذه النظرات بل يوزعها بالعدل على كل أنثى من أول مساعدة المرضى حتى ملكة متاع . الفائدة التى يمكن أن أحصل عليها لتوى هى ألا اتراجع مهما تكن النتائج . تمضى الأيام ولا أستطيع أن أتخلص من تفكيرى فيه .

— ٦ —

ـــ الا يعنى ذلك نكسة إلى الحيوانية يا مختار

ـــ الحيوان كائن متناغم مع نفسه ، يعيش فى حالة وجد كامل دون انشقاق أو ادعاء ،. الانسان هو الذى تدهور حين انقسم على نفسه .

ـــ كلامك كبير . . . وتتهمنى بالتفكير المعقد

ـــ هذا إحساسى الكامل بلا تفكير

ـــ أجد صدى لما تقول يثيرنى ويعزينى بالمخاطرة

ـــ ليست مخاطرة ولكنها عودة للوجد التلقائى

ـــ كلامك سحر ، ولكنه خطير

ـــ هذا الخطر من صنعنا نحن ، وهو يعوّق تكامل وجودنا ويحد من انطلاقنا .

ـــ انطلاقنا إلى إين ؟

ـــ إلى جنة الحيوان فى توافقه مع ذاته تماما

ـــ ولكننا بشر

ـــ حيوانات أعقد ، لكننا جزء من الطبيعة لا أكثر ولا أقل ، وما شقاؤنا وضياعنا إلا أننا خاصمنا الطبيعة بغباء منقطع النظير ، ولا سبيل للتوافق إلا إذا رجعنا إليها بلا تباطؤ .

ـــ أخاف من كلمة الرجوع

ـــ إذا اكتشفنا خطأ الطريق فلا بد من الرجوع

ـــ الحيوان ليس مثلى الأعلى

ـــ الحيوان أكثر توافقاً وصدقاً .

ـــ الحيوانات يأكل بعضها البعض

ـــ لا تفعل ذلك إلا إذا جاعت ، أما الإنسان الكذاب فهو يغلف هذه الجريمة بالمبادىء ويمارسها لمجرد الجشع .

ـــ اسمع يا مختار . . عندك تفسير لكل شىء ورؤيتك كاملة الوضوح فلماذا أنت هنا ؟

ـــ . . لا أسأل نفسى « لماذا ؟ » إلا نادراً ، أنا أفعل ما أحس أنى أريد أن أفعله فحسب ، وهأنذا لا أعرف لماذا أنا هنا فعلا ؟

ـــ أنا خائفة

ـــ بل أنت شجاعة ولا أحسبك تركت الزواج وضحيت بالأمومة ، إلا لاسترداد حريتك تماماً .

ـــ أحياناً أحس بالندم ، وأفكر فى الاحتماء بأول رجل يطرق بابى ، وأستظل بظله من أول وجديد .

ـــ لا أعتقد أنك تستطيعين أن تربطى مصيرك بواحد فقط مرة ثانية ..

ـــ مشاعرى تقول ذلك .. ولكن ...

ـــ لو أنك من أهل « لكن » لما هدمت بيتك من أجل حريتك .

ـــ ... هل أنت شخصياً « حر » ؟

ـــ ... تماماً ...

ـــ تماماً ... تماماً ؟

ـــ بلا قيـــود

ـــ ولماذا أنت هنا ؟

ـــ ثان ؟ طائر بلا عش .. أرتشف رحيقى من كل الأزهار

ـــ لكنك وحيد

ـــ لا أسعى لقتل الوحدة ، ولا للتمسك بها

ـــ ليس لك أصدقاء

ـــ لى ... ولكن دون وفاء ملزم ، حتى الوفاء يحد من وجودنا الحر

ـــ أى شيطان يزين لى كلامك .. فتتفتح أنوثتى بلا استئذان

ـــ أنا واثق منك ... ومن صدق إحساسك

ـــ ليكن ، وبعد ؟

ـــ ... حرة ... و ... وشجاعة

* * *

لا قوة فى الأرض تستطيع أن توقفنى ولا أن تنسينى هذا الحديث ،

ترى هل هذه هى حقيقتى ؟ حقيقتى الفعلية ، هل هذا هو المستحيل الذى سعيت إليه ؟ الذى تركت الدنيا من ورائى لتحقيقه ؟ هل أنطلق إلى حقيقة أعماق أعماق ؟ هل أنوى أن أنتقم من نفسى أو أن أمارس حريتى فعلا ؟ نظرات إبراهيم لا تتركنى وكأنه يعرف كل شىء .

— ٧ —

— إذاً ما الحرية يا إبراهيم ؟ فلقتنى

— هى المسئولية

— وهل الحيوان مسئول ؟

— وهل هو حر ؟ !

— يُخَيَّل إلى أنه كذلك ، أليست حريته هى حرية الخلية الحية .

— الحرية اختيار ، والاختيار وعى ، والوعى مسئولية ، والخلية لا تعى ذلك .

— لا تبالغ فى فلسفة الأمور أنت الآخر ، فأنا فى مأزق حقيقى .

— أعلم ذلك ، ومختار ليس حراً على أى حال . . بل لعله أبعد واحد فينا عنها

— لم أذكر اسمه . . هل تتجسس على ؟

— أعرف ألفاظه جيداً وخاصة حين تخرج من شفاه غيره

— الحقيقة ليس لها صاحب

— وأعرف قصته كذلك

— أنا أسألك بلا لف ولا دوران

— وقد أجبت

— تقول « مسئولية » .. مسئولية عماذا ؟

— عن كل شيء ، عن سعادتنا وشقائنا ، وسعادة الآخرين وشقائهم

— توسع الدائرة .... فلا حرية فى النهاية

— إما هذه الحرية .. وإما الكذب والتبرير

— ما أصعبها إذاً .... بكل مقياس

— وما أروعها فعلا لو عرفنا حقيقتها وبساطتها

— البساطة فى الانطلاق بلا قيود ولا قيم من الخارج

— عليك أن تجربى

— هل جننت . . أنت لا تعرفنى

— النصح لا يفيد فى مثل هذه الظروف ، ولا سبيل إلا التجربة .

— اسمع .. لو أطلقت نفسى فسوف أكتسح العالمين .. قد يتغير التاريخ . أنت تعرف أن طاقتى بلا حدود . . شهيتى لا ترحم

— أعرفها ، وأخاف منها أحياناً . . ولكنى أعرف أنها مهرب من حريتك الحقيقية .

— دعنا من حكاية حقيقية وزائفة هذه ، أحس أنها ألفاظ ، الحقيقة الوحيدة هى الحرية ، إما أن تكون حراً أو لا تكون ، هلاّ راجعت نفسك يا إبراهيم ؟ ربما كنت مكبوتاً خائفاً طول عمرك وأن هذا هو سر صبرك وتفسير شقائك الذى لا يعرفه أحد .

— ربما يكون شقائى هو حريتى

— أنا لا أعيِّرك يا إبراهيم . . لا تكن حساساً هكذا ، ولكنك تقيد فكرى حين تخطر ببالى ، كلما هممت بالانطلاق أو تجرأت على علاقة تذكرتك ، صورتك وصوتك يتراءيان لى ، صبرك وشقاؤك يذكراننى بجانب الحياة الذى أتمنى لو نسيته إلى الأبد .

— هذا ليس ذنبى

— لك تأثير سىء على حريتى

— لن أتصنع الانطلاق من أجل مساعدتك على إشباع حيوانيتك

— حيوانيتى ليست سيئة ، هى أنا

— ولهذا طلقت ؟؟؟

— ربما . . لأن الحيوانات الحيوانات لا تتزوج

— ليس دائماً . . بعضها يفعل

— إذاً فأنا من فصيلة الطيور التى تملك كل السماوات

— لا بد من عش فى النهاية . وأزواج الحمام تهدل فى كل مكان .

— بماذا تغرينى يا إبراهيم ؟ بالرجوع إلى زوجى ؟

— ليس عندى ما أقوله .

— وأنت ؟ لماذا لا تتزوج ؟

— أنا متزوج

— .... نعـــم ؟

— أنا مــــتزوج

— وأين هي ؟

ـــ مع عشيقها .... عشاقها ....

ـــ ماذا تقول ؟!!!؟

ـــ أقول ما قلت

ـــ لهذا فأنت صاحب فضيلة .. وتدعى أن الدنيا بخير

ـــ لا جدال أن الدنيا بخير

ـــ كذاب ، هارب ، هارب . . من منظرها بين أحضانه

ـــ أنت حرة . . !

ـــ .... رغم أنفك ....

— ٨ —

الآن تأكدت أنى مجنونة ، الألفاظ الرنانة التى كنت أستعملها لأخفى جنونى ، بدأت تتكشف على حقيقتها حين دخلت إلى الاختبار الحقيقى ، النار المقدسة التى كنت أتخر بها هى نار جهنم بلا نقصان ، المستحيل الذى كنت أحاول التماس الطريق إليه هو الشكل الجميل لخيال مجنون ، كنت أسخر من كل من يتهمنى فى عقلى لمجرد أنه يرفض تصرفاتى ، كنت أعتبره جاهلا لا يفهم ، وكم تساءلت لم أذهب إلى الطبيب وليس عندى أعراض ؟ أما الآن فإنى عرفت أن ما بى هو أردَأُ من الأعراض جميعاً !! لو كنت أرى أشباحاً أو أعتقد أن الناس تضع لى السم لهان الأمر علىّ وعليه ، لماذا لم يقل لى الطبيب أنى مجنونة « رسمى » منذ البداية ؟ هو المسئول منذ البداية ، كان عليه أن يشخص حالتى ويعطينى المهدئات اللازمة فى الوقت المناسب حتى أرجع إلى زوجى وابنتى ، لا أنكر أنه عرض على ذلك فى أول الأمر وأنى رفضته بإصرار ، لكن كان عليه أن يصر حتى

ولو أدى الأمر إلى استعمال القوة ، تركنى لنفسى حتى اكتشفت مصيبتى بنفسى .. ولكن بعد فوات الأوان ، أين أنت الآن يا ابنتى يا حبيبتى ، كيف تنامين وكيف ترضعين ، وعلى صدر من تبكين ؟

كيف ؟ ولماذا ؟ هل تقبلنى يا زوجى الطيب بعد الآن ؟ بعد ما كان ؟ كنت أخاف الانتقام مما فعلته بك .. ولكنى لم أتصور أنه سيكون بهذه البشاعة ، الانتقام يأتى من داخلى ، نار جهنم بالداخل بلا جدال .

أنا وهؤلاء الناس المخدوعين وقلوبنا التى تحجرت هى وقود هذه النار بلا نفاد ، ما أقسى العقاب وأعدل الجزاء ، ضاق على الخناق فى كل مكان ، مازالت صفعة أخى الأصغر أول أمس تكوى وجهى بماء الذل ، صوته يرن فى أذنى كالرعد ، ذلك الولد الذى كنت أعلمه المشى صغيراً — هو هو الذى صاح بى أمس « لا حُرَة ولا زفت ، أنت مومس يا كلبة » لم أرد عليه ، بل إنى لا أنكر أنى تمتعت بالصفعة كجزء من الجزاء الذى أستحقه ، لو أن ربع هذا حدث قبل ذلك لكنت انتحرت أو قتلت ، لكنى بلعتها فى صمت غريب لا بد وأن أمضى فى تعذيب ذاتى جزاء وفاقاً لما أتيت من ظلم للأبرياء .

أتبين الآن أن طلب المستحيل الذى يبدو براقاً وكأنه الشجاعة والطموح فى أرقى صوره ما هو إلا مهرب حقير من مواجهة الواقع ، وتحمل مسئولية حياتى اليومية ، هأنذا — يا طالبى المستحيل — انتقل من وجيه يعرض على خدماته فى كازينو على النيل إلى مختار الذى يغرينى بالحرية لحسابه الخاص ، وهو لا يكاد يعرف اسمى ، إلى إبراهيم الموتور المخادع ، إلى غريب المرعوب من مجرد اللمس .. كل ذلك يدور فى فلك سيدنا الشيخ ناظر مدرسة « تحضير الأوهام ؟ هنا والآن » .. أى عبث ، هدمت بيتى من أجله ؟

وأى ضياع ينبغى أن استمر فيه : . متى تغلق الحكومة هذه الحال التى تبيع الأوهام للعجزة والأغبياء أمثالى ؟ قاع البئر سحيقة حتى لتبدو بلا قاع .

— من لى بالرجوع أو التراجع . . يا إبراهيم

— يبدو أنه لابد من الرجوع ، وعليك إذا أن تعمليها وبأسرع ما يمكن .

— مالك أنت ، لا آكل من بيتك ، وسوف أرجع حين أريد

— مازلت تتكلمين عما تريدين وما لاتريدين

— سافل جبان . . تنتقم من زوجتك فىّ

— . . . الرجوع أو التراجع أفضل من الملاك مثلها ، إنك ترقصين على السلم هكذا ، لاتحصلين على عنب الشام أو بلح اليمن

— صفقة هى مابين العنب والبلح ؟ أنت لاتدرك مابى من ثورة ، وتنتهز هذه الفرصة لتسقط علىّ مخاوفك ، وعجزك عن إكمال الطريق

— مازلت تتحدثين عن الطريق وإكماله وأنت تسيرين إلى الخلف

— أحسن منك يا من أحكمت رباط عينيك وتوقفت تماما تدعى الفضيلة وتفرز الشقاء

— أنا سأكمله يا نجوى بالرغم من كل شىء

— وامرأتك ؟ . مبولة الرجال ؟

— لها عذرها . . لم تر شيئاً غير ماهى فيه . ولكنك أنت عرفت كل شىء . . وحدك . . وهذا مادعانى للاشمئزاز بك

— لاتخدعني . . فأنت تحتقرنى من البداية .

ـ كانت ثورتك تخجلنى من عجزى ، وكان إصرارك يزيد يقينى بالخير دون أن نتبادل كلمة ، كنت دائما آنس لك من وراء ظهرك

ـ كفى يا كذاب . . أليس أنت الذى كنت تنصحنى منذ لحظة بما لاترضاه لنفسك . . بالرجوع بأسرع مايمكن . . يافرحتى بالإئتناس بى

ـ أنا لا أنصح . . ولكنى أقول ماأرى الآن . . وكل واحد يتغير باستمرار .

ـ شكر لله سعيك . . عملتها وسأتحمل مسئوليتها كاملة

ـ احذرى أن يدفعك عنادك لتكرار ما كان بصورة أخرى

ـ حتى لو كررتها فمالك أنت ؟

ـ زوجك وبنتك أولى بك

ـ هذا ليس من شأنك

ـ لا . . هو شأنى ونصف ، سأمنع ضياعك بكل وسيلة ، إما الرجوع وإما المسئولية كاملة

ـ جبان . . كذاب ، لماذا لم تمنع زوجتك من الضياع من قبل ؟

ـ نهايتها البشعة هى التى علمتنى ألا أتهاون فى أن اقول ما أرى ، وفى الوقت المناسب

ـ ولماذا لاتقول لها ماترى ياسيد الرجال ؟

ـ مضى الوقت المناسب . . وأنا أمشى على الأرض ، لا آمل فى المستحيل

ـ جبان كذاب

— زوجك أفضل من مختار الف مرة

— أنت لاتعرف هذا أو ذاك ، لاتعرف إلا نفسك . . فلا تقحمها فيما ليس لك فيه شأن

— مختار لايكاد يتذكر اسمك بعد أن ينتهى من لقائك

— تغار الآن؟ أين كنت إذاً ؟ لماذا لم تنقذنى من أحابيله أيها الفارس الهمام ؟

— كنت أحسب أنك تعنين ما كنت ترددينه

— مازلت أعنى ما أقول

— أهذا هو « المستحيل » ! ؟

— . . . بعينه

— أى مومس بلهاء أشرف منك ، فهى لاتسمى ماتفعله مستحيلا . .

— وماذا تسميه امرأتك يافالح

- لاتحاولى ان تجرحينى فقد صفيت حسابى معها تماما

— ليس من حقك أن تحكم على مالا تستطيع

— أفيق يانجوى من واقع خيبتك

— لا أتعاطى شيئا يا مسطول

— الله يخرب بيتك

— لم يعد لى بيت والبركة فى « المستحيل »

— أنت التى طلبتيه

- ولكنكم أطمعتونى فى تحقيقه .. لو لم أجدكم تتبادلون هذه الأوهام وكأنها مُمْكِنة ؛ لفكرت فى الرجوع إلى بيتى وابنتى قبل فوات الأوان

ـ نحن فيها ..

ـ وهمٌ جديد .. أفسدتم كل شىء والذى كان قد كان .

ـ لا تهربى من مسئوليتك

ـ فقدت الألفاظ معناها .

ـ تكملين الطريق ..

ـ الوقوع فى النار خير من المشى على الصراط إلى ما لا نهاية .

ـ النار هى النار، أما الصراط ففيه من الأمل بقدر مافيه من الخوف.

ـ أنت هارب إلى الأبد

ـ لا تجعلى استسهالك يبرر انحرافك وخيبتك .

ـ لا انحراف بعد الضياع . صحراء اللاشىء ليس بهما دروب يمكن الانحراف عنها

ـ حذقتِ لعبةَ الألفاظ . . ولا سبيل إلى التفاهم معك الآن

ـ لا تحاول . . فإنى كففت عن المحاولة

ـ إذاً لماذا تأتين هنا حتى الآن

ـ المرض خير عذر ، عنا ما يفسد المنطق وتصطلى الأجساد بنار الحيرة والجوع للجنس . . فلا بد من اسم حديث يحمينا من المواجهة

ـ هذا من علامات الساعة

— الساعة العاشرة .. ولابد أن أنصرف حتى لا يصفعنى أخى الأصغر ، أو يبصق فى وجهى أبى الشيخ الضرير ، هذا ما صرت إليه كالبلهاء .

— يوماً ما سوف تدركين سخف ما تقولين .

— خطبة الجمعة بجرسها الممل ، أصدق من نواياك الطيبة السخيفة

— ٩ —

ضاقت بى السبل وانطفأت حاجتى للرجال ، جسدى أعلن الموت ، تجمد الثلج فى أحشائى وتراكمت الأتربة على مشـاعرى ، وما زلت أصر على الحضور بانتظام ، نسينى مختار تماماً وكأنه لم يعرفنى أبداً ، انقطع غريب عن الحضور ، طلق إبراهيم زوجته بعد أن اختفت من المنزل بضعة شهور ، ما أشجعها من امرأة ، أعتقد أنها خير من كل هؤلاء المخدوعين ، شيخنا العنيد يحصل على الإتاوة بانتظام ، كان عليه أن يعلن زيفنا وخداعنا منذ البداية فنتحمل المسئولية فى كل الأحوال ، أحسب أنه ينتظر أن نصنع له المعجزة التى عجز عن أن يصنعها بنفسه ، عبد السلام مازال يحاول فى إصرار وزوجته فردوس بدأت تحاول أن تفهم أحياناً .

— عبد السلام

— كنت أنتظرك يا نجوى ، من زمن وأنا أتابع كل ما يجرى

— قلت لك من الأول أن هناك شيئاً يجمعنا

— أعرف ذلك

— أرهقت تماماً وفشلت كل الحلول

— هذا تمهيد لبداية طيبة

ــ صبرك رائع ومزعج

ــ لم أتعلمه فى يوم وليلة

ــ وكيف حال فردوس . . أظن أن هناك شيئاً ثالثاً بدأ يظهر

ــ كما ترين . . لكن الطريق طويل

ــ . . . خطير

ــ . . . خطير . .

ــ أريد يداً أستند إليها بعد هذا الإعياء المشل .

ــ لم تتعلمى بعد يا نجوى

ــ لولا أن زوجى تزوج لذهبتُ خادمة له بقية عمرى

ــ لا أحسب أنك تعنين ما تقولين

ــ لا أعنيه . . ولا أستطيعه . . ولكنى تعبت ، أنظر إليكما
فى تعجب وأتساءل : هل يمكن أن يصبح السجن جنة بحق

ــ كل شىء ممكن لو لم تختصرى الطريق

ــ المشى على الصراط لا يقدر عليه إلا من أتى الله بقلب سليم . .

ــ قلوبنا سليمة ما لم تشوهها بالعجلة أو الطمع

ــ لو عرض كلب علىّ الزواج الآن لقبلت

ــ جهنم شرعية . . بدلا من جهنم الشقق والدوامات ، أليس كذلك ؟

ــ جلدى رخام صدىء . . . ونار جهنم لم تعد تؤثر فيه .

ــ هذا تشويه بلا مبرر . .

ــ يبدو أنى سأستمر بلا أمل . .

ـــ إذا لم تبيعى نفسك ، أو تكذبى عليها فسيتحقق الأمل دون السعى إليه

ـــ والشريك ؟

ـــ هذه مرحلة استهلكت

ـــ ولكنك تحاول مع فردوس باستمرار

ـــ وستحاولين أنت أيضاً . . ولكن بشكل آخر

ـــ حاولت مع إبراهيم لعبة الزواج . . وفشلت قبل أن تبدأ

ـــ لا بد أنه تعلم جيداً

ـــ لماذا لا يتزوجنى ألست كزوجته السابقة على الأقل

ـــ ولكنك أيضاً قادرة على أن تجاريه مثل زوجك السابق..على الأقل

ـــ وماذا فى هذا ؟

ـــ لسنا هنا لنعيش « على الأقل »

ـــ . . لا تبدو أمامى أية فرصة لمحاولة أى شىء آخر .

ـــ ليس بمثل هذه العجلة . . ولا فى هذا الوقت

ـــ الوحدة صعبة . .

ـــ وأصعب منها الكذب والضياع .

* * *

ليكن ما يكون يا نجوى يا شعبان . . هذا ما فعلته بنفسك . . أغلقت وراءك الأبواب ، لا تراجع بحال

ولكن أيضاً . . لا أمل حتى فيما وراء الأفق . .

— ١٠ —

....

....

....

....

ـــ إبراهيم .. سوف أتزوجك الليلة ..

ـــ يا خبر أسود

ـــ ليس أسود من ظلام الوحدة وعمى الكذب بادعاء الاستغناء

ـــ ... تتحملين مسئولية ما تقولين ؟

ـــ أعرف أى مصيبة نحن مقدمان عليها

ـــ بشرك الله بالخير ... ولكنك لم تنتظرى رأيى

ـــ أنا أتكلم بالأصالة عن نفسى والنيابة عنك

ـــ ولكنى سبق أن رفضت محاولتك الأولى ، فماذا حدث ؟

ـــ كان عندك كل الحق ... شتان بين زواج الاختباء ... وبين ضرورة الناس .

ـــ وإذا فشلنا

ـــ خيبتك ثقيلة

ـــ يبدو أنك تعرفين ما تفعلين

ـــ وأنت ؟

ـــ أعرف الضرورة وأحاول أن أقترب منها دون أن أتنازل

— ليكن ما يكون . .

— ليكن ما نصنع

— لا وقت للكلام .

— تثبتين أن المستحيل هو أبسط صور الممكن

— بلا ألفاظ رنانة . .

— ولا حديث عن التطور ولا يحزنون .

— الحديث عن القيمة يهدرها .

— كل يوم زاخر بكل شيء

— رباه . . كيف يظلم الإنسان نفسه بكل هذه الضجة !

— لا بد أن فى الأمر سراً .

— هو أن للاستمرار معنى .

— ربما . .

ملكة متاع

— إلى متى تظل تذهب إلى هناك يا غالى ؟

— إلى أن أعرف ماذا أريد؟ وماذا يريد هذا الرجل منى؟ .. أو «لى»

— لقد عرفنا ماذا نريد من زمن ، وانتهى الأمر ، أما هو .. فما هو إلا طبيب يسترزق ، وهو يريد نقودنا ونقود أمثالنا .

— أعرف ذلك ولكنى أعرف أيضاً أنه يمكن أن يحصل عليها بطريق آخر .. ربما أيسر ، وربما أكثر ..

— أعتقـــد أنه مضطرب مثلهم .. وهـذا ما يدفعه لسلوك هذا الأسلوب .. ولكن ما يهمنى أنه لا يعدو أن يكون برجوازيا مدعيا رغم ما يتظاهر به من حسن النية ، أو الشعور بالناس .

— قد يكون كلامك صادقا ، ولكن عليك أن تواجهيه لتعرفيه .

— هو لا يهمنى فى شىء ، أنا أذهب معك لأنك حبيبى ، ورفيق طريق كفاحنا ، هذا كل ما هنالك .

— لست أدرى ماذا كنت أفعل بدونك

— حبنا أقوى من أى اهتزاز .. لم نعثر على بعض مصادفة وإنما جمعتنا المبادىء والاصرار على رفض ظلم الكادحين واستغلالهم .

— ... طبعاً .. كفاح الشعب سينتصر حتما .

— أحيانا أشك أن هـــذا الطبيب يأخذ عمولة من القوى الرجعية والامبريالية لتحطيم الثورة التى تعتمل فى صدرى وصدرك وصدور الطبقة العاملة ، إذ يحاول جاهدا أن يقلب كل شىء « مشكلة شخصية » .

— يجوز . . ولكن .

— لا تلغى فكرك ، فالأمور تتضح يوما بعد يوم : ماهو إلا هارب جبان ، رجعى ، متعفن

— . . لكن عبد السميع الأشرم يعتقد أنه عميل لنا ويحاول اتهامه بين الحين والحين بالالحاد .

— إلحاد ؟ إنه أجبن من أن يلحد ، حديثه ملىء بكلمات الإيمان والخير والتوحيد ، وهو بذلك يخدع الجميع ، اليمين واليسار . ولا يبقى إلا نفسه .

— رجل محير .

— ليس تماماً ؛ « الذى تغلب به العب به » هذا هو مبدؤه الذى لا يفتأ يردده .

— لو ثبت ذلك ، فهى أكبر خدعة قابلتها فى حياتى .

— ليس هناك أدنى شك ياغالى يا حبيبى

— ولكن ما الذى يدفعهم للذهاب اليه بهذا الإصرار

— نفس الذى يدفعنا : ورطة . . وأمل مجهول

— لا بد أن شيئا ما يداخلنا يطلب بضاعته

— ولكننا لا نعرف ما يبيع وأخشى أن يستدرجنا إلى غيبيات

— سنرى

— متى ؟

— لست ادرى

— أحيانا أدعو على صديقك الذى أشار عليك بالذهاب اليه

— كنت أيامها لا أنام الليل

— ياليتك أخذت أقراص الطبيب الآخر ، وخلصنا

— كانت تقتلنى بلا نوم حقيقى ، وقد عرض على صاحبنا أقراصا فى أول الأمر ، ولكن أنا الذى قلت له أنى ما جئت لمثل هذا ، وقد طلبت حضور « المجموعة العلاجية » بنفسى .

— ... أذكر ذلك ، وقد خفت عليك منذ البداية ، قلبى حدثنى

— ... ولكنك شجاعة ، فقد أصررت على الحضور معى من أول مرة

— وسوف أكون أشجع حين نتوقف عن الحضور

— لا تتعجلى الأحداث . . ودعينا نرى

— مالنا ومالهم ؟ نحن ثوريون وهم مرضى ولا سبيل إلى الالتقاء

— أحيانا .. أعتقد أنهم ثوريون أيضاً ، بل إنى أحيانا أظن أنهم هم الثوريون ونحن الأدعياء . . ياملكة .

— غالى ؟!

— أقول ما أشعر به

— بدأت مخاوفى تتحقق ، حافظ على ثقتك بنفسك وبمبادئك

— لاخوف إطلاقا ، طالما نحن معاً فلا تهديد بالتغير

— نفسه طويل . . والطريق يبدو بلا نهاية . .

— الثائر لايخاف المغامرة . . إن كان على حق

— . . . طبعا نحن على حق ، إننا ثوار حقيقيون ، يكفى أننا لانخدع أنفسنا . .

— من يدرى ؟

— أنا أدرى

— صبرك يا ملكة . . أحيانا أقارن بين هؤلاء الناس وبين جماعتنا الثورية ، وأتردد

— انتبه ياغالى ، عقيدتنا أغلى مافى حياتنا ، فكيف نقارن هؤلاء المجانين الذين يتذرعون بالمرض بجماعتنا وكفاحنا .

— لا تنكرى حقيقة مايدور هنا ، فلا أحد الآن يستطيع أن يعتذر بالمرض أو يتمادى فى الشكوى ، ولكنها مواجهة مرة .

— واجهناها وانتهينا منها . . ولا بد من الكفاح . .

— طبعا . .

— هذا الرجل خطير ، هو عميل بلا أدنى شك . .

— يجوز

— مؤكد . .

— . . . مؤكد . . . إن كان هناك أى شىء مؤكد

* * *

— ٢ —

قلبى يحدثنى أن غالى يتغير فى السر ، لن أفرط فيه ولو دفعت حياتى ثمناً لذلك ، مسكين ، طيب القلب ، استدرجه هذا الرجل ليهتزه ويشوهه ،



ملكة متاع

لا أنسى كيف استقبلنى ببرود أول يوم حـــين فرضت نفسى عليه دون استئذان ، ولـكنه سرعان مانسى اعتراضى المتردد لمـا أشرت إليه أنى أيضا أشكو بعض المضايقات وأريد أن أعالج ، زيادة الخير خيرين ، جنيهين أحسن من واحد . . .

ثقتى بنفسى لايزعزعها شىء على الأرض ، أريد أن أنهى هذه الورطة بأسرع ما يمـكن ، لـكن غالى مُصر ، لو عارضته فسوف يعاند كالأطفال ، سوف أتركه حتى يمل هذا التـكرار السخيف ، نضالنا أشرف وأصدق من كل هـــذا ، ماذا يفعل شيخ المنصر هذا ؟ إلا أنه يجهض النضال ويثير الشكوك حول كل حـــل شامل ، زوجى يوافقنى غالباً على أرائى ولـكنه منقاد بلا مبرر ، كمال نعمان يجعلنى أراجع نفسى أحياناً لـكنى أتذكر أنه أول من هرب ، كمال كان زميل نضال عنيف لـكنه خاف السلطـــة فأصبح فنانا ، حين التقيت به هنا تعجبت ، ولاأنكر أنى أحسست فى قرارة نفسى بالشماته ، هـــذه هى نهاية الانسحاب من المسئولية الجماهيرية ، المرض وعيادة الأطباء بدلا من الناس وإرادة التغيير ، ادفع يا كمال يا نعمان الثمن حتى لو استمرت سخريتك لاذعة ، وشكك قاتل ،ولـكنى وغالى هنا أيضا ، لا أستطيـع أن أخفى عن نفسى تساؤلا مذلا : إذا كان هو قد مرض لأنه انسحب من ميدان النضال فلماذا حضرنا نحن هنا إذاً ؟ ما الذى يجمع بيننا ؟ لابد أن تنتهى هذه القصة سريعا حتى أتخلص من هذه المذلة ، أحتمل هذا الموقف الذى يذكرنى كل ساعة أنى مريضة ، أو أن غالى مريض ، أى مرض هذا الذى نضيع فى البحث عنه وعن اسم له ؟ لمـاذا نمضى هذه الساعات الطوال فى النقاش والعراك و« محاولة » الإحساس ؟ كل إنسان يحس بكل شىء فما الداعى للتشكيك ؟ حتى أنجح فى إقناع غالى بالـكف عن

كل ذلك ؟ لابد من عمل شامل ومنتظم لتحطيم هذا الوهم الخادع ، لأبدأ بكمال فهو صديق قديم وقد يسمح له فنه بالاستمتاع ، ربما عدل عن هذا الطريق ، لو نجحت فى إقناع كمال فسوف يستجيب غالى أسرع .

— هذه المناقشات تذكرنى ببعض ما كان يدور بيننا فى اجتماعات الإعداد لمجلة الحائط ، هل نسيت يا كمال ؟

— ربما لهذا أنا هنا . . ياست ملكة

— أنت هنا . . لأنك نسيت ؟

— لا . . لأنى لم أنجح أن أنسى

— ولماذا تريد أن تنسى

— لابد للانسان أن ينسى الفشل حتى يستطيع أن يستمر

— مازلت تتحدث عن الفشل كالقدر . . وهو اختيارك

— فشلنا جميعاً .

— أنت انسحبت ، فلا تحكم علينا

— ليكن ، . . لكل رأيه . .

— وتحاول أن تبرر فشلك بأن تثبت على وجهتك « لافتة مرضية » تعفيك من تحمل مسئوليتك .

— أفضل من لافتة « ثورية » توهمنى بتحمل مسئوليتى . .

— نجح الرجل أن يفسد عقلك ، وهذا هو ما حسبت حسابه

— لاأحد الآن يفسد عقل آخر إلا باختياره . . الفشل اختيار ، وفساد العقل اختيار .

— واختيارك الآن هو أن يفسد عقلك ؟

— خير من أن يفسد ضميرى وأخدع الناس تحت عناوين ثورية

— ماذا جرى لك يا كال ، أنت فنان حساس ، ولا بد من عمل نضالى بين الجماهير .

— جماهيرك بالملكة فى عقلك ، لن تعرف الجماهير إلا إذا كنت أنت الجماهير ، إلا إذا عرفتى نفسك ، وهذا ما أحاوله هنا .

— من أين نبدأ يا كال ؟ قصة قديمة ، الفرد أولا أم المجتمع ؟

— لن أنخدع ثانية بمناقشة القضايا العامة . . قبل أن أحدد موقفى

— ولكن أكبر خداع هو ما أنت فيه الآن ، ماذا بك حتى تحضر عيادة طبيب ؟

— عاجز عن فعل أى شىء

— أوهمك الطبيب بالعجز والمرض ، ولولم تستسلم لهذه الإشاعة العصرية لكنت مستمرا معنا الآن

— من أنتم ؟ وأين انتم ، الآن ؟

— نحن مع الطبقة العاملة .

— ولكن الطبقة العاملة ليست معكم

— الكادحون مسحوقون ، والنضال مستمر والعمال بدأوا يدركون حقوقهم .

— كلامك يوحى بأن القتال يدور من بيت لبيت ليل نهار ، ولا أرى إلا تأجيل مواجهة الذات لأجل غير مسمى .

— نترك الناس و نواجه أنفسنا ؟ في عيادة طبيب أرزق ؟ نحن يا كمال أو نهاس ؟

— أفضل من أن نترك أنفسنا و نضحك على الناس

— حتى لو صح اتهامك .. فالناس أقوى من أن يضحك عليهم مثلى ومثلك إلا بعض الوقت ، ماذا جرى لك يا كمال ؟

— لا بد من أن نعرف من نحن ، من هو « أنا » « الآن » ؟ وإلا ..

— نوقف مسيرة العالم والتطور حتى نعرف من هو « أنا » .. ومن هو « أنت » ؟

— حتى لا تباع الثورات لغير أصحابها .

— الثورة المطحونين من سواد الشعب

— أنت لا تعرفين سواد الشعب ولا بياضه ياملكة يا مقام ، كل ما تفعلينه أنك تحافظين على «قلعتك الخاصة» بأسلوب أيديولوجي عصري أنت وغالى من مستحق «وقف» الثورات .. أما صانعوا الثورات فأنت لا تعرفيهم .

— ليس لى قلعة ولا بيت ، حتى أمومتى ضحيت بها من أجل مهدى .

— أنت لم تضحى بأمومتك .. كل ما فى الأمر أن الحمل والرضاعة لم يعودا لازمين لممارسة الأمومة لديك ، أنت تملكين غالى .. وهـذا يكفى

— خبيث .. مهزوم ، تشوه الناس لتبرر انسحابك ، كله من تأثير هذا الرجل المجنون .

— .. لا تبالغى ، لقد جئته مهزوما جاهزا

— كنت تهرب منا فى الفن ، والآن تهرب من الفن فى المرض

— الحياة كلها تأجيل لمصيدة القبر ، وعلينا أن نختار الشكل المناسب للهرب ، قبل أن تطبق المصيدة علينا يوما ما

— حكمة اليوم هى إضفاء صفة الشرعية على الهزيمة ، ما أروع ما يجرى هنا

— ألا تحاولين النظر داخلك أبدا ؟

* * *

يبدو أنى أخطأت الهدف ، غالى أهون منه وأسلسل قيادا ، وثمة ذكريات لا يبدو أنه تخلص منها أو أنه يستطيع أن يتخلص منها .. أما هذا الكمال ، فهذه فرصته أن يهزنى وأنا لا تهزنى قنبلة ذرية ، لن أتراجع

— ماذا تظن فى داخلى يا كمال ؟ أنا لست مريضة كما تتمنى

- تحضرين للفرجه ؟ إذاً ؟

-- زوجى يحضر وأنا مع زوجى إلى النهاية

.. تخافين أن يضيع وهو راجع إلى البيت ، أو يخطفه أبو رجل مسلوخة ؟

— شيخكم هو الخطاف الذى أخشاه

— ليس لى شيخ

— ينتهز ضعف الناس ليستولى عليهم

— يعملها علانية إن صحت شكوكك ، ولا يستسلم إلا الأبله

— كذب ، فهو صاحب سلطة ، يقتل وحدته بإلغاء كيانهم

— لا يخدع أحداً ولا يجامل

— أنت أول المخدوعين به

— لا أنكر أنى احتاج لرعايته بعض الأحيان

— غالى له من يرعاه

— تريدين أن تحتكرى رعايته حتى يظل طِفلك الكبير ملكك وحدك .

— أنت لاتعرفه ، ثم إنى أكثر أمانة من شيخ المنصر هذا

— ملكة ياغالى .. تتنازع زوجك القوى مثل الحدود الصينية السوفيتية .

— سخريتك سخيفة ، وأنت لاتعرفه

— أعرف أنه رفع الراية البيضاء منذ زواجه بك

— وغد .. لا تريد أن تنسى أنك كنت غريمه ، ألم تعرض علىّ الزواج قبله .

— قدّر .. ولطف ..

— مازلت تريد الانتقام

— ... أنت تحلمين

— هو سعيد بحبى

— أراه وهو يسير دائما ويداه مرفوعتان فوق رأسه وفوهة حبك مصوبة طول الوقت إلى ظهره ..

— ظفره برقبتك

— مزاد سرى . ألا أونا ... ألا دُوَّا ... غالى أمتن من كال ..
والذى لايشترى يتفرج .

— لن تستطيع أن تسخر حتى النهاية

— أنا لا أعرف النهاية ولا أسعى لها

— خيبت ظنى .. هل تنوى البقاء فى التجربة بلا حدود

— أبداً .. فأنا أول الهاربين فى كل اتجاه .. أكره التحديد كرهى لعماك .

— وغد .. تفخر بجبنك

— أحسن من ادعاء غيره

— لابد من وقف هذا العبث

— تخافين المواجهة

— قلبك ممتلىء حقداً

— ... أمل لن يتحقق ..

* * *

— ٣ —

الخوف يتزايد ويكاد يحيط بى من كل جانب ، لو تركت نفسى استعمل لغتهم لقلت إن مصدر التهديد من داخلى ، لكنى لا أخاف على نفسى ، كل ما أخشاه أن يتغير غالى بالرغم منه ، لو تغير بإرادته فقد أتحمل النتائج مهما كانت ، أما أن يتغير تحت وهم العلاج وتأثير « شيخ الطريقة الصحية لتمييع

الثورية » فهذا مايهددنى فعلا ، غالى يعلن دائما أنه لايتغير ولكنه يستزيد من المعرفة ، ويقول إنه بذلك يســتطيع أن يختار ، ولكنى أتساءل هل سيختار من أول وجديد ، لقد اخترنا طريقنا بعد طول عناء ، لقد أجابت « النظرية » عن كل شىء ، ماذا بقى أمامنا لنختاره بالتعرض لهذه الخدعة الامبريالية ، أحس أننا نستدرج إلى مجالات ميتافيزيقية ألعن من كل المخدرات التى تعاطتها الشعوب عبر التاريخ ، هذه الخدعة العصرية تلبس مسوح العلم وتدعى الطب ، لقد اخترنا طريقنا بعد أن أنهكنا البحث فما الداعى لأن نعيد الاختيار ، لقد بدأنا النضال من زمن بعيد وقطعنا فيه شوطا أعطى لحياتنا معنى ، فماذا نريد أن نختار بعد ذلك يا غالى الله يهديك . . . ، وأنا . . ؟ هل أنا من ضمن ما سنعيد النظر فيه ، هذا هو عين الجنون .

- أما آن الأوان أن نكف عن الحضور هنا والتركيز على أنفسنا ، أن نعود إلى واجبنا لتحرير الناس . .

— تحرر الناس . . دون أن نتحرر نحن ؟

— نحن أحرار تماما . . وأنت تعرف ذلك ياغالى ياحبيبى

— مم تخافين إذا ؟

— أنا لست خائفة .

ولكنى أعلم أنى كاذبة ، كل ما حولى يؤكد لى أن خطرا ما يمكن أن يقع دون سابق إنذار ، ومهما اتخذت من حيطة وحذر ، شىء ما يتحرك فى داخلنا ويقترب من السطح دون إذن ، لا أستطيع أن أنسى غريب ذلك اليوم ، لم أكن أتصور أبدا أن ذلك يمكن أن يحدث ، وبالذات لغريب . ذلك الإنسان الهادىء المثقف ، كيف فقد كيانه فى لحظة ، مازالت أذكر

كيف رعبت ، وكيف تحرك داخلي يكاد يقفز ليحتويه تماما ، يحميه من كذبهم وادعاءاتهم «المحبة» ، لو كان رحمى عباءه وفكرى حصان أشهب لاختطفتك من وسطهم حتى أحميك من هذه المهانة ياغريب ، ولكنى فخورة بك ، سرعان ما رجعت محصنا أكثر من ذى قبل رغم محاولات نجوى التى لا تيأس — تلك السيدة المدعية لا تكتفى بإغراء مختار ، أو الكذب على إبراهيم ، ولكنها لا تكف عن ملاحقتك بكل الصور ، وحتى الطبيب نفسه لم يسلم من محاولتها ، لا . . لن أفرط فى « غالى » أبداً لن أخدع فى أحاديثهم وتمثيلياتهم ، ما أدراهم بالحب والمساواة والعدل التى يتكلمون عنها ليل نهار ، صورة جديدة ليوتوبيا الأفونين ، مقاعدهم وثيرة وكفاحهم بالألفاظ ، يتعاطون أفيون العواطف فى حجرة مغلقة ، لا بد أن يتغير المجتمع من أساسه أولا . المادة أساس كل شىء ، أما العواطف الإنسانية فلا بد وأن تصان من هذا العبث والتشويه ، الذى ينبغى أن نسارع بتحطيمه هو الملكية الفردية لا الكيان الشخصى ، أما العواطف فهى شىء آخر ، هذا هو التركيب البشرى الذى ينبغى احترامه .. العواطف أمور هيلامية ليس لها علاقة بالتطور المادى ، والعواطف ملكية خاصة من أخص خصوصيات الفرد ..

— ولكن أصحاب الأملاك يقولون أيضاً أن ملكية النقود والأشياء من طبيعة البشر .

— يدافعون عما يملكون بتشويه طبيعة الإنسان .

— لعلنا نفعل ذلك أيضاً ، حين نصر على خصوصية العواطف .

— ألم أقل لك يا غالى إن الرجل يتسحب إلى خلايا عقلك من الباب الخلفى .

— أنت تعرفين أنى أبحث عن كل الاحتمالات مهما كان الثمن

— ... حتى لو كنت «أنا» الثمن

— أنت فوق هذه القاعدة .. ، بالنسبة لك .. قد استقرت أمورى من زمان

— عن ماذا تبحث إذاً بعد أن استقرت الأمور .. ؟

— عن أى احتمال يوصلنى للحقيقة .. ومن ثم .. ربما القدرة . أو الفعل

— نعم .. نعم ..؟ وهل هنا عند هذا الرجل ستجد ما تتحدث عنه

— ربما

— هذا الرجل لا يقدم إلا احتمالا واحداً .. هو نفسه ..

— .. لكنى أحس أنه هو نفسه لا يعرف من هى نفسه ، فكيف يقدمها ، لعله يبحث مثلنا ـ معنا .. لعل .. كل شيء جائز ؟ ..

— خداع جديد ... وسؤال غريب ، هو الذى يعرفه تماماً ، هـذا الرجل عنده جواب لكل سؤال ورؤيته حادة مثل السكين ، تقطع كل من ينحرف عن حدودها

— إذاً كانت كذلك ، فما هى ؟

— لا أراها بوضوح ..

— فكيف تكون حادة كما تصفين ..

— سألته مرة عنها ، فقال « الحياة »

— كلمة تصلح لكل العصور ، وتختبئ وراءها كل الحيل ،

— ها أنت تفهم أحابيله .. ما زلت غالى حبيبى اليقظ الثائر .

ـــ لا أنال منه .. المسألة أصعب من هذه البساطة ، فلا تبالغى فى تجسيم اعتراضاتى

ـــ تدافع عنه ثانية

ـــ أنا لا أدافع عنه ولا عن أحد ، وإنما أسعى إلى المعرفة

ـــ وفى سبيل ذلك تنسانى ، وتغفل حبى يا حياتى

ـــ مادخل حبك ياستى الآن

ـــ لاحياة لى بدونك ، وقد وجدنا الطريق من زمان فلا داعى لضياع الوقت . .

ـــ أى طريق ؟

ـــ هل نسيت ياغالى : الحرية للشعب والسيادة للطبقة العاملة .. ، هذه هى المقدسات الحقيقية لأنها واقع الناس . . هل كفرت بكل هذا

ـــ لم أكفر ، ولكنى أحاول أن أحقق معنى الألفاظ: الواقع ؟ الناس ؟ هلا انتهزت معى هذه الفرصة لنتعرف على هذه الألفاظ من جديد ، ربما تكون مسئوليتها أكبر من احتمالنا .. أو ربما عشنا أصدق

ـــ نتعرف على « الواقع » و « الناس » من فوق هذه الكراسى الوثيرة

ـــ حيرتنا هى التى دفعتنا لهذه الكراسى الوثيرة ، وهى جزء من واقعنا ، وهؤلاء « ناس » من لحم ودم بغض النظر عن عدد « الست » التى تهتز من تحتنا . .

ـــ حيرتنا انتهت من زمن

— إذاً ما الذى أرقنى تلك الأيام ؟

— كل الناس تصاب بالأرق أحياناً

— ليست المسألة بهذه البساطة ، أنت تذكرين جيداً كيف أنى فجعت فى زعيمنا حين اكتشفت ماذا فعل بالخادمة الطفلة ؟

— خطأ عادى وما نحن إلا بشر .

— عادى ؟ .. أسوأ استغلال وأبشع سرقة .

— لا بد أن نواجه حقيقة الواقع .. لكل واحد هفوته

— ولكنه زعيمنا عالى الصوت ، كان وجهه يقطر استغلالاً .. وقد دفعنا حياتنا لمحاربة الاستغلال

— كفاحه المقدس لا تلغيه زلة عابرة

— كفاحه أم صياحه .

— زلة شخص مهما كان لا تهز المبدأ الصادق .

— ولكنها تدفعنى للتفكير فيمن يقدر على حمل مسئولية المبدأ .

— لنحملها نحن يا أخى

— ولكنى بدأت أشك فى كل شىء حتى فى أنفسنا نحن

— ما زلت تغلى بالغيظ

— من يومها وأنا لم أنم

— وها أنت تنام والحمد لله فكفى كل هذا

— إننى أغمض عينى فحسب ولكن داخلى لا ينام ، ولا بد من حل

— وهل الحل فى هذه المسرحية المعادة بلا نهاية ، فى عيادة طبيب مجنون

ـــ الحل فى الحصول على حريتى الداخلية

ـــ كلنا أحرار إلى قاع القاع

ـــ القاع ليس فيه أحرار مالم يسعوا إلى القمة المسئولة

ـــ مبدؤنا هو الحرية والإخاء

ـــ ياليتنا نستطيع

ـــ نحن نستطيع . . ونصف

ـــ ليس بهذه البساطة ، المبدأ رائع . . ولكن نحن ؟ أنا ؟ أنا ؟ هل أنا أهل له ؟

ماذا جرى لك يا غالى ؟ شكك يتزايد بدرجة لاتطاق ، حتى حريتك التى لاجدال فيها،أصبحت مجالا للشك والمراجعة ، أنت حر مادمت معى ياأخى ، هذه بديهية حياتنا منذ التقينا ، ماذا لو كنت زوجا لامرأة أخرى ليست «ثائرة» مثلى تضيق عليك الخناق وتحاسبك على نظراتك وسكناتك ، إنى لم أصر على حقى فى الأولاد حتى لا أفيد حركتك فماذا تريد بعد ذلك ، فكر قليلا لو أنك زوج ست البيت المتصابية فردوس هانم ، أو ست الحسن المغرورة نجوى شعبان ، ضبطتك آخر مرة متلبساً بتأمل جسدها ولم أفتح فمى ، لأنك حر ، ولأنى متيقظة طول الوقت ، فلماذا تأتى بعد ذلك تشك فى حريتك ؟ الحرية هى أن تحبنى كما تشاء وأن أحبك هكذا . . طول الوقت ، أنت إبنى وأبى ودينى وعقيدتى ، تستطيع أن تفعل بى ما تشاء من واقع حريتك ، أنا التى أحبك ياغالى ولن تجد أحداً سواى ، فلا معنى للتردد والشك والمراجعة

* * *

كل شىء قد تم تحديده بصفة نهائية يا كمال .

— نهائية !؟ إذا ماذا يعطى للحياة معنى يا ملكة ؟ أفيدينا أفادك الله.

— تسخر منى يا كمال ؟

— أبدا . . ولكنى أحاول أن أتذكر ما كنا نقوله ليل نهار

— المادية . . والحرية . . والحب

— . . . بضائع الرصيف المستوردة

— سخريتك لاذعة يا كمال . .

— وكرشك يسع عشرين رجلاً وطفلاً بلا تمييز

— لقد اكتفيت بغالى ، فلا تحلم بأمانيك القديمة

— مجنون أنا إذا تمنيت أن أتمتع بعصارات هضمك الملتهبة مثل ماء النار

— غيرتك سوف تقتلك

— غالى يبحث عن حريته من سجن حبك قبل أى شىء آخر ، وهو فى هربه منك يكاد يهرب من مبدئه وعقيدته ونفسه

— غالى ليس جبانا مثلك وهو يستطيع أن يتمتع بحريته بين أحضانى

— طبعا ، له أن يختار ، مسلوق أو مشوى جداً أو نصف نصف ، والأمر يتوقف على شهية « حظرتكم » .. ونار جوفكم الموقدة

— النار فى حقدك عليه

— لا تحلمى .. لا أحد يحقد على من يشوى فى أتونك

— أسماء تبرر حرمانك منه

— لا أسمى شيئا ، ولم أعد أعرف للاسماء معنى حتى أنى أنسى إسمى أحيانا

— معك حق .. فما عاد يصلح لشىء

— ٤ —

كان غريب هو الوحيد الذى يتعاطف مع مشاعرى العدوانية تجاه هذا الطبيب سراً وعلانية ، حين يدخل فى نقاش معه .. أو حين يتحوصل وينظر إلى هؤلاء البُله فى تعالٍ .. أحس أنه يقوم عنى بما أود أن أفعله .. حين يتكلم أحس أنه يستخرج الألفاظ من وجدانى .. ولكن ها هو ذا ينقطع عن الحضور فيتركنى وحيدة تماما ، كنت أحس به سنداً قوياً فى إدراكه لحقيقة ما يجرى ، لكنى فرحت بذهابه إذ طمأننى أننا يمكن أن نخرج من هذه الورطة ونحن أكثر صلابة وتماسكا بذواتنا وعقائدنا عن ذى قبل ، ليس معنى أن يصاب إنسان ما بالأرق لبضعة ليال أن يُفرض عليه التنازل عن كل تاريخه ومكاسبه لمثل هذا الطبيب الذى ينتهز الفرصة ليدعى أن ظهور الأعراض ما هو إلا طلب للتغيير ، فليكن ، ولكنه يشترط ضمنا أن يكون تغيراً فى اتجاهه ، ورغم حديثه عن العلم والحرية والتطور ، يخلط بين ذاته وبين العالم بطريقة بلهاء ، والعجيب أن أحـــداً غيرى وغير غريب لا يكتشف ذلك ، أكاد أشعر أن قانوناً غير مكتوب يحكم هؤلاء الناس ، غاية أملى أن يفهم غالى خبث هذه اللعبة قبل أن ينساق إلى ما لا يدرى ، لماذا التغير ، ليس فى الإمكان أبدع ولا آمن من القوانين المادية ، فلماذا نبحث عن قوانين أخرى مهما كانت ، لا بد وأن أحتفظ بغالى كما هو ، لا يخالجنى شك فى أنه سيترك هؤلاء الناس يوماً ما ويعود إلى ، ولكن متى ؟ هو لا يستطيع أن يتغير بدونى ، لا يستطيع أن يتخلى عنى ، فلماذا الحيرة وإطالة هذه المسرحية كل هذا الوقت ؟ ماذا ينقصه وأنا أوفر له كل حاجاته الفكرية والمادية والعاطفية ؟

الرجال لا يحمدون النعمة ..

كمال هو الذى أحذره أكثر من شيخهم نفسه ، حين يكلمنى يعرينى دون استئذان هل يعيبنى يا كمال أن كل همى هو أن أحافظ على زوجى ، هو إنسان صادق تألم بما فيه الكفاية واضطهد بما فيه الكفاية ، أنت تعلم كيف تعامل الأقلية من الأكثرية بغباء لا نظير له ، يكفيه ويكفينى ما كان من آلام .

— ألسنا نكرس حياتنا لتخفيف آلام المسحوقين بدلا من اجترار آلامنا الخاصة .

— لا نستطيع أن نكف عن معايشة الألم بقرار ياملاكة .

— الحب هو الوقاية الحقيقية من الألم

— ... حذار .. فقد يكون تسكيناً لا حلاً .. والخطورة أن ننسى

— الحب هو ترياق الحياة الشاقة ..

— حتى لو .. فمن ذا يحبنى « أنا » .. فعلا ؟

— نعم ؟ نعم .. ؟ أنا طبعاً التى أحبك يا غالى

— أنت حياتى .. ولكن

— لكن ماذا ، هل تشك فى حبى أيضاً ؟ أو أنه لا يكفيك ؟

— لا . ولكنى أخاف منه أحياناً

— لا مبرر للخوف فأنا لم أعص لك أمراً ، ونحن على وفاق حتى فى أفكارنا

— ربما هذا هو سر خوفى ، لقد ضحيتِ بكل شىء من أجلى . وأخشى ألا أستطيع دفع الثمن .

— لا أطلب منك ثمناً إلا استقرارك وسعادتك

— يا حبيبتى ... ماذا كنت أفعل بدونك ؟

— هل آن الأوان للانسحاب من العلاج إذاً

— ما بالك منزعجة هكذا ما دمت واثقة من حبى ؟

— ماذا تنتظر يا غالى ، هذه الدعوة خطرة وهى تسرى تحت شعار الصحة ، لا تنسى أننا أقلية ولا بد أن نحمى أنفسنا بكل وسيلة

— لا أشعر هنا معهم أنى مع الأقلية .

— نحن أقلية سواء بالولادة أم بالعقيدة الجديدة

— أعرف ذلك ولكنى أريد الحقيقة ، حتى ولو كنت وحدى

— عرفنا الحقيقة من زمن ، لا حقيقة إلا فى قوانين المادة التى تفسر كل شىء حتى التاريخ ، فلماذا تعود لتطرق أبواب الخرافة

— هل هذا علم أو خرافة ؟

— هذا الرجل يستغل لقبه ووظيفته أبشع استغلال

— أحياناً أشعر أنه عالم حقيق

— وهذا سر خطره

— ليس خطراً إلى هذا الحد

— الخطر أن ننسى عقيدتنا وواجبنا إزاء نضال الشعوب

— لا بد من المواجهة الداخليـة .. التى هى النار التى تشعل نضـال الشعوب

— بيتنا يوشك أن يتصدع .. وحبنا المقدس يهدده هذا العبث .. وسوف ننسى الشعب فى غمرة المواجهة الداخلية

— هل تخافين على الشعب .. أو على بيتك ؟

— أنا طاوعتك فلم أنجب أطفالا في سبيل الشعب ، قلت نتفـــرغ للـكفاح ولـكن يبدو أنك نسيت .

— لم أنس ، ولـكنك لم تحبي الأطفال أبداً .

— لا أحب تعريضهم للخطر دون مبرر

— لا توهمي نفسك بأشياء لا وجود لها ، الخطر الحقيقي هو أن نخدع أنفسنا ، أو أن نرقص على السلم

— نحن نعرف طريقنا .

— أحيانا أعتقد أننا لا نفعل شيئاً إلا أن نهرب في الناس من أنفسنا بلا انتماء حقيقي لإنسانيتنا

— أنت هذه الأيام تشـكك في كل شيء

— نتحدث عن حتمية التغير ، ولا ضمان لأي أحد ، ولا لأنفسنـا .. لو دخلنا امتحان السلطة .. والمسئولية .

— ماذا جرى لك ؟ هذا الـكلام أشبه بهمس رجال المباحث

— أراجع مواقفنا ، وأقيسها بمقاييس جديدة ، أتساءل وأرعب من تصور منظرنا على كراسي الحـكم يوماً .

— لا بد من التجربة .. قبل أن تدهمك الشكوك ، ألم تفـكر ؟ ما هي النتيجة إذا توقف الجميع عن النضال حين يشملهم الشـك مثلك ؟ سيقيم الطغاة الأفراح ، وتسحق الأقليات بلا هوادة

— هذا ما يرعبني

— من إذاً سيغير المجتمع ؟ أصحابك المجانين . وشيخهم الأرزق ؟ ف هذه العيادة السرية

— هذا ما يزعجنى

— آمل أن تفيق يا غالى .. بدلا من أن تكتفى بالانزعاج

— عجز هؤلاء لا يبرر كذبنا أبداً

— نحن لا نكذب

— ضرر هذا الرجل إن وجد لا يتعدى عشرة أو عشرات ، أما نحن ، فثقة الناس لو ملكنا أسرهم ترعبنى وتلزمنى بمواصلة طريق المعرفة الشائك ضماناً لى ولهم ...

بيتى مهدد ، حريتى مهددة ، عقيدته مهزوزة ، وكل هذا نتاج عناده وإصراره على الاستمرار فى لعبة حمقاء ليس لها معالم ، أنزعج حين أفكر فيما وصل إليه من عمى ، ماذا يريد منى ؟ أحياناً يعرض على أن أدلو بدلوى فى العلاج ؟ يا نهار اسود ، هل يريد لى أن أكون مثل فردوس العروسة الحلاوة المتصابية الحمقاء ، تلك المرأة التى لا تخجل من وصف نشوتها الجديدة ، وكأنها عثرت على كنز قارون ، كيف تجرؤ على هذه الوقاحة أمام طفلة مثل بسمة ، أنا امرأة مثلها ولا أعرف تلك الأحاسيس التى تخترعها اختراعها لتثبت شفاءها ، تتكلم عن الجنس وكأنه النجاح الأعظم فى حياة البشرية تحت رعاية زوجها المخدوع ، كيف لا تخجل من تصابيها المنفر ؟ كلامها يثير نى أحياناً لدرجة أشك فيها فى أنوثتى ، ما هذه القمم المجهولة التى تصعد إليها مع زوجها ؟ وما تلك الغَيْبُوبَةُ التى تصفها وكأنها انتقلت إلى الجنة فى كل مرة ، لا .. لن أشك فى نفسى مهما كان ، إن ممارستى الخاصة هى الطبيعة وما تلك الأحاسيس الأخرى إلا مشاعر الجنون ، أنا أعطى غالى كل ما يرضيه

وأنام راضية مسترخية .. أغلب الأوقات ، أنا أرفض تماماً هذا الحديث العابث الكاذب عن الأجنحة التى تطير بها أنوثة هذه المرأة متعبدة فى فحولة زوجها راقصة تحت سمائه ، أراهن أنها تستعمل وصفات رجب العطار مع التوصيات الخفية فى مجلة الشبكة لتخدع نفسها بهذه الصورة الشائهة ، هل هذا هو ما تبحث عنه يا غالى فى روضة أطفال الدعارة هذه ، هل هذه هى الحقيقة والمواجهة ، هل هذا هو طريق المعرفة الشائك ؟ أو أنك تريدنى مثل نجوى التى لم تكتف بغرورها بجمالها وتريد أن تكمل وجودها بالديكورات العلاجية الحديثة ، مع الاكسسوار الثقافى المناسب ، إلى متى أظل محكوماً علىّ بتأمل «غرائب الطبيعة» ؟ هنا على هذه الصورة : نجوى التى كانت لا تفهم معنى كلمة إيديولوجية تتحدث الآن عن الصدق والحرية والناس : وهى تروج بضاعتها الجديدة عند مختار وإبراهيم بعد أن هرب غريب بجلده . ليس أمامى خيار ، على أن أستمر فى التمثيلية إلى النهاية حتى أسترده وأرجع ، ولكن كيف أستطيع أن أتحمل كل ما يجرى ؟ كيف أسيطر على مشاعرى إلى النهاية ؟ كيف أمنع شكى فى أنوثتى من خلال تفجرهم الصناعى ؟ هؤلاء المجانين يخلطون بين كل شىء وكل شىء : الجنس والله والحب والناس ، كلام خطير يحرك خلايا الصخر ، فكيف أتحمله . ؟ وإلى متى . ؟ هل أنا باردة حقاً . ؟ ولكنه يرغبنى هكذا ، وهذا هو الضمان لاستمرارى وهذا وحده يرضينى تماماً ، لدرجة أن هذا الرضا يخفف آلام الاقتراب الجنسى ذاتها ، أحياناً تساورنى رغبة مجرمة للتحدث فى موضوع هذه الآلام وخاصة بعد أن أكد لى طبيب أمراض النسا سلامة أعضائى ، ورغم أنى أعرف تماماً أنى لن أفعلها ولو بعد ألف سنة إلا أنها تقفز إلى عقلى بين الحين والحين .

— ٥ —

بوادر خير تلوح فى الأفق ، بدأ غالى يفكر فى لعبة بديلة ، ذهبنا إلى بعض الأصدقاء الذين اعتادوا أن يتجمعوا حول الشيخ الضرير بعوده المتحفز ولسانه السوط ، فرحت بذلك وتمنيت أن نستغنى بهذه الجلسات عن ذلك الرعب الأسبوعى حتى لو كان الحشيش هو الوسيلة إلى ذلك ، حشيش الجوزة أهون من حشيش ذلك الطبيب النصاب ، دعانى غالى للشرب معهم ولكنى لم أستطع ، ضحك كثيراً وتكلم كثيراً ولكنه بكى ونحن راجعان فى التاكسى ولم أدر ماذا أفعل .

* * *

انتهى غالى .. بعد أن أفرغ شحنته ، وتمدد على ظهره هذه الليلة دون أن ينام ، أصدرت أوامرى لخلاياى بالسكون بعد أن أدت مهمتها الثقيلة ، وابتدأت الآلام تتضاءل تدريجياً ، نظرت إليه فى تساؤل ، لماذا لم ينم هذه المرة كما اعتاد أن يفعل كالطفل الرضيع .

— ما لك يا غالى الليلة ؟

— لا شىء .. ولكنى أفكر فيك ؟

— أنا بخير ما دمت سعيداً ، ألم أُرْضِكَ الليلة ؟

— وأنا .. هل أرضيتك ؟

— أنا راضية بك وبجوارك ليل نهار .

— طرأت على فكرة مرعبة فور انتهائى الليلة

— الأفكار التى تطرأ عليك هذه الأيام أغلبها مرعب وأنت مصر على الاستمرار

— هذه جريمة استغلال

— عن ماذا تتحدث ؟

— عن ما حدث الليلة

— ماذا حدث ؟ ! الليلة مثل كل ليلة . .

— ألسنا نحارب استغلال الإنسان للإنسان ؟

— هذه بديهية .

— وهذا الذى فعلته بك الليلة ، أليس أسوأ استغلال ؟

— غالى .. ماذا جرى لك ؟ أنت أغلى من عينى وروحى ، أنت زوجى وحبى ، أين الاستغلال ؟

— تفتحت آفاق على معان أخرى للاستغلال

— ماذا عندك أيضاً من مفاجآت ؟ بدأت أخاف كما لم أخف أبداً ؟ من يستغل من ؟

— أنا أستغلك يا ملكة ..

— هذا غاية سعادتى ..

— والعبيد كانوا أيضاً يعتقدون أنهم فى غاية السعادة فى ظل الإقطاع

— ولكنى فى كامل وعيى ، وبكامل حريتى ، كيف تشبهنى بالعبيد ؟

— تكتمين آلامك ولا تتمتعين بحقك ، وتطلبين عبوديتى ثمناً لذلك.

ـــ درس جديد حفظته من حضرة الناظر ؟ . . فى روضة الدعارة الصحية الحديثة ؟

ـــ لا تنسى إليه كل شىء

ـــ نحن نعيش فى وفاق نحسد عليه

ـــ أحسست أنى مجرم فى حقك

ـــ نعم ؟ نعم ؟ شفقة أم احتقار أم إثارة ؟

ـــ أفكر فى حقوقك . . أبسط حقوقك كامرأة

ـــ وهل اشتكيت لك يا أخى ؟ عجائب . . !!

ـــ هذه الجريمة يجب أن توقف

ـــ . . . أى جريمة يامجنون ؟ وأنا سعيدة ولا أجد مبرراً لكل هذا العبث الذى تحكى عنه .

ـــ أعتقد أن السعادة شىء آخر

ـــ شىء لابد أن يكون ممهورا بإمضاء شيخ الطريقة . . أليس كذلك؟

غالى : عد إلى رشدك قبل أن تفقد شخصيتك أنت الاخر

ـــ اسمعى . . لابد من المصارحة ، هل تصلين إلى . . إلى «النهاية» ؟

ـــ ماذا جرى لك ياأخى؟ نهاية ماذا وبداية ماذا ؟ هذا وهم وإشاعات تريدنى بقرة رقطاء مثل الست فردوس . أم لبؤة جوعى مثل الست نجوى؟ أنا امرأة حرة ومثقفه ، وهم لا يعرفون القيم الإنسانية فى الاقتراب الجنسى

ـــ . . أنا آسف على كل ما كان . . منذ . . منذ البداية

ـــ أية بداية

ـــ منذ زواجنا

— خبر أسود ، ياسيدى أنا راضية وسعيدة بكل ما كان ، وما هو كائن ، وما سيكون ، مادام منك ، وما دام يرضيك أنت ، مالك بى ؟

— لا أولاد . . ولا جنس . . من أين تأتى السعادة ؟

— غريبة أمورك هذه الأيام ، نحن نعيش هكذا من سنوات فماذا جرى لك ؟ ماذا استجد ؟

— رؤيتى تتضح يوما بعد يوم

— نجح الطبيب الذكى أن يقلب مشكلة استغلال الطبقة العاملة إلى البحث عن خرافة الجنة الجنسية الموعودة .

— لابد من بداية صادقة ، ثم نثق بعد ذلك فيما ندعى ، ونحقق مانتصوره حقا

— وهل هذه هى البداية ؟ على السرير ؟ ثم تتهمنى بالبرود

— أنا لا أتهمك . . أنا اتهم نفسى بالعمى والصمم ، ولن أقبل استغلالك بعد الان ، العادة السرية أشرف من هذه العلاقة .

— ذى الليلة السوداء . . لن تمر بخير

...

نجح شيخهم الكلب أن يقلب حياتى رأسا على عقب ، ودخلها من أسفل المسارب ، وسوف أنتقم لا محالة ، لا أحد يحس بى ، لا أحد يفهمنى ، هذه حياتى مهددة ، وغالى يبتعد عنى إكراما لإنسانيتى على الطريقة النور الدينية ! ! لن أيأس ولم استسن للغضب ، سأقاتل حتى النهاية ، ولسوف

أسترجعه بكل وسيلة ، يبتعد عنى ويدعى ذلك حبا واحتراما ، هـذا آخر تفسير للحب ، بعد أن أمتهنوا هذه الكلمة التى لا يعرفها أى منهم أبشع امتهان ، أحدث التفسيرات تقول إن أحسن طريقة للتعبير عن الحب هو الهجر فى المضاجع ثم الضرب بإذن الله (!) وهـكذا ننسى جوع الجماهير الكادحة ونتفرغ لتصنيف أنواع الحب السبعة ، أو الأربعة وأربعين .

* * *

— ٦ —

بدأت المظاهرات من باب اللوق(*) وانتشرت إلى وسط البلد بلا ترتيب سابق ، جاءت فى وقتها ياغالى ياجوهر ، عليك أن تواجه ذاتك يا كال يا نعمان ، أما أنت يا عبد الحـكيم يانور الدين فلسوف تتضائل أمامنا جميعا حتى يسعك حجر فأر يليق بجبنك وخيانتك ، وحين يقرصك الجوع سوف ألقى بـكلمة صدق عليها « سم » الفئران الحديث جزاء وفاقا لما تعمله بالناس ، الشعب استيقظ ويطالب بحقوقـه ، الحوانيت تتحطم ، والمتاجر سوف تنهب ليسترد العرايا والجوعى حقوقهم ، الأتوبيسات تحترق ، الثورة أعلنت فى الوقت المناسب ، وقت أن طعنت فى أنوثتى حتى كدت أنهار ، هذه هى الحياة والحرية والمسئولية ، هذا هو الامتحان فمن شاء أن يرى صدقه فلينزل إلى الشارع الآن ياكلاب . وحـين تعرف كذب ادعاءاتهم يا غالى فسترجع الى أحضانى آمنا نواصل الـكفاح مثل زمان

— قامت الثـورة . . وعلى كل إنسان أن يعرف مـكانه ودوره . . ويتحمل مسئوليته

---

* انتهت كتابة هذه الرواية فى فبراير سنة ١٩٧٦ ولم يتعدل فيها حدث بعد ذلك .

— أية ثورة ؟ هل أخبرك أحد شيئا

— المسألة لا تحتاج إلى إخبار ، الشارع يغلى ياغالى . . فأين دورك ؟

— ياليتنى أعرف

— دورنا فى الشارع ياغالى

— ننزل الآن . . ؟ هل فى ذلك ما يفيد ؟

— أى شىء أحسن مما نحن فيه من ضياع منذ شهور ؟

— كنا نبحث عن حل

— وها نحن أولاء نواجه مسؤليتنا بحق . . ما قولك ؟

برودى الجنسى الذى تدعيه أشرف من برودك السياسى ياغالى ياحبيبى والفضل للعلاج السحرى المبتكر

— لا أنكر أنى أخجل من موقفى ومن جلوسى هنا الآن .

— هل يكفى ذهابنا للتدريب فى « مصنع العواطف المستوردة » ؟ ؟

— أحتقر نفسى ولا أعرف كيف أشارك الناس حقيقة مشاعرهم

— الأحداث أقوى من كل تساؤل

— هل نترك التلقائية تتحكم فى مجريات الأمور ؟

— أفضل من الحسابات الجبانة

— وهل التحطيم يكفى ؟

— إذا كنت لاتؤمن بالتحطيم فلماذا حاولت تحطيمى ؟

— هذا ليس حساب شخصى هل يمكن عمل شيء فعلا ؟

— ولكن هذا وقت الحساب الحقيقى ، أين أنت وأصحابك المجانين فى تلك العيادة السرية من كل هذا ، وعلى رأسكم شيخ المنصر ؟

— مواجهة النفس هى بداية الطريق ، هذا ما كنت أعتقده

— ويموت الناس جوعى حتى تتم مواجهة أنفسنا ، أليس كذلك ؟

— الحماس وحده لا يكفى .. لا بد من تخطيط وضمان للاستمرار

— فى عيادة للمجانين ؟ .. أليس كذلك يا غالى ؟

— أى طريق يكتمل به الإنسان ؟. سوف يخرج منه ثائراً يستطيع أن يتحمل نتائج غليان الشارع

— هذا تأجيل إلى ما لا نهاية

— محتمل ... ولكن ما حيلتى فى الرؤية الجديدة

— وهل الثوار جميعاً قد شلتهم رؤيتهم ؟

— يؤدون دورهم بحماس من وجهة نظرهم

— يا ليتنا أحذية فى أرجلهم

— .. ولكنهم إذا دخلوا الامتحـــان الأكبر قد لا يستطيعون استيعاب هذه المشاعر الجماهيرية الغالية لو ارتقوا الكراسى

— .. وصى حضرتك على المكافحين الشرفاء

— لست وصياً ولكنى خائف .. خائف من الخدعة الكبرى ..

— لا بد من التغيير

— ولكن مجرد التغيير ليس هدفاً فى ذاته ، لا بد من صدق ومسئولية

ومعاناة شخصية واستمرار ، والخطوة التالية أهم من مجرد الغليان ، وأنا أشك فى نفسى ، بشع ما هو بالداخل ، ومن أدرانى من يرث المسئولية

— يعملون كل ما هو إيجابى .. على قدر وعيهم

— أحاسيسهم بعيدة حتى عما يعملون ، لا يقدر أحدهم على التعرى لمعرفة حقيقة وجوده ... فلا ضمان حين تتغير دوافعهم وظروفهم وآمالهم وموقعهم من السلطة والناس .

— أصبحتَ فيلسوفاً ؟ قاضياً على منصة يحكم على المناضلين بالتسطح العاطفى ألست خجلا من نفسك ؟

— كلى خجل .. ولكننى أريد شيئاً جديداً ، كم تحمسنا وقُتل زملاؤنا ، ثم ورثها الأعلى صوتاً .. لا الأعمق إحساساً ومسئولية ، وأخشى أن تتكرر المأساة كل مرة ، لا يا ملكة سوف أرفض تكرار المأساة .

— وماذا تصنع بخجلك من نفسك الذى تدعيه ؟

— سأواجهه بكل الألم .

— ثم تعلقه على الحائط مصلوباً

— لا أستطيع أن أخدع نفسى وأنا بكامل وعيى

— الناس تموت فى الشوارع

— قد يكون هذا هو الحل

— أن يموت الناس ؟

— لا ... أنا

— غالى .. ماذا تقول ؟

— العجز يحكم قبضته على ، والخجل أكبر من احتمالى

— لا بد من المشاركة .. هذا هو الحل الحقيقى

— شاركت قبل ذلك .. وقلت لك سلمناها لأمن ممن حطمناهم .. لا بد أن يتغير معنى الثورة ، والقائمين عليها ، والوارثين لها ، .. يبدو أن المسألة تحتاج لإعداد جاد وطويل ..

— أفسدك العلاج

— أنا أحمل مسئوليتى وأمضى

— والشعب يا غالى

— من الشعب ؟

— الطبقة العاملة .

— وأنا وأنت ؟

— هذا ليس وقت للقافية؟

— أعنى ما أقول .. هل نحن من الشعب أو لا ؟

— نحن من صميم الشعب الحر

— ولكننا لسنا أحراراً

— سجننا خوفك .. وخوف أمثالك

— لست خائفاً .. ولكنى لا أخادع

— فسانى ؟

— المواجهة مُرة .. ولكنها حتمية

— كنا نعيش فى وضوح وصدق

- لم نكن نعرف معنى الوضوح أو الصدق
- كنت أحسب أن نار الشارع سوف توقظك
.. نارى أشد اشتعالا ، وكتابى منشور أمامى
- ماذا تعنى ؟
- لو لم أصل إلى « معنى » ، فالنار جزائى بلا ندم
- ميتافيزقيا خرافية جديدة ؟
- ماذا يفيد لو كسبت العالم وخسرت نفسك ؟
- ترتد إلى الغيبيات لتبرر سلبياتك
- بل الرؤية الصادقة بلا رتوش
- الأفيون يسرى فى عروقك بسرعة البرق
- لن أخدع نفسى ثانية

***

ضاعت الفرصة وهدأ الشارع بفضل الطب الحديث ، والأمن المركزى

- لابد من مواصلة المحاولة . . ولو هلكت
- نمشى على حافة النار مغمضى العينين ونتحدث عن الرؤية الصادقة
- لاسبيل إلى العمى الاختيارى
- أصبح للتفكير الخرافى شكل علمى طبى حديث ، يعفى من المسئولية على صك جديد يسمى « روشته » ، ويستدرجنا إلى ماوراء الطبيعة هربا من مسئوليتنا .

— بل إلى ماوراء العقيدة بحثا عن حقيقتنا . .

— لا حقيقة إلا فى المادة

— المادة البشرية شديدة التعقيد . . ولا بد أن نبحث قوانينها بأسلوب آخـــر .

— قوانينها هى العقيدة الصادقة لأى عاقل يحترم عقله

— وكيف لنا أن نعرف . . أو نضمن ؟

— يبدو أنهم يصنعون الأفيون هذه الأيام فى معامل كليات الطب النفسى .

— رددى ماحفظناه سويا، لكن هذا كله لن يعفينا من مسئولية البحث

— ويهلك الكادحون حتى ننتهى من البحث أولا ؟

— من يسمعك يخيل إليه أن يدك على الزناد فى ساحة القتال ليل نهار

— تشك فى ثوريتى أنا الأخرى ؟

— . . . . . .

— تسخر منى لتبرر هربك

المناقشات لاتنقطع وإصراره يزيد ، أين أنت يا غالى ، أين حماسك وإصرارك ؟ إلى أين أنت ذاهب فى مجاهل الغيبيات ، ونحن لم نخرج منها إلا بعد جهاد مرير ؟ هل نسلم عقولنا ثانية للقوى الخفية حتى ولو سمت نفسها بأسماء علمية ؟ ثم تتهمنى أنا بالجمود ؟!

* * *

— أحيانا أفكر فى وجه الشبه بينك وبين عبدالسميع الأشرم ياملكة

— أنا . . يا غالى

— تعصبك لدينك المادى ليس أقل من تعصبه لدينه السماوى

— لابد من الإيمان بنظام للحياة

— الإيمان ينبع من داخلنا . . إذا عرفنا الطريق، أما هذا الذى تردده ليل نهار ، فهو دين جديد مع اختلاف التفاصيل .

— ماذا تريد منى الآن بعد كل هذا ؟ ألا يكفى أن أذهب إلى شيخك المجنون أبحث عن الحقيقة . . فى تهويماته البلهاء ! ثم تشبهنى بعبد السميع المعتوه يا غالى ؟

— عبد السميع لا يدعى الحرية مثلك . . وهو ينتظر الفرج فيما بعد الموت .

— يبدو أنه لانجاة لك إلا بتشويهى وتشويه معتقداتى التى ما عرفتها إلا منك

— مازلت مؤمنا بمعتقداتنا ولكنى أبحث عن الطريق الذى يحافظ عليها .

— لا تخدع نفسك . . فلن تجده فى عيادة طبيب

— أبحث عنه فى نفسى

— لعبة أخطر . . لأنها بلا نهاية

* * *

— ٨ —

مطعونة فى أنوثتى ، مهاجمة فى عقيدتى ، مهجورة فى سريرى ، بدأ الشك يتسرق إلى طريقتى فى الحياة ، بدأت تساورنى الشكوك حول غالى وحول علاقاته ، أتتبع نظراته إلى نجوى برعب حقيقى ، إصلاح مساعدة الطبيب تتعاطف معه بشكل ظاهر ، تهتز كل خلجة فيها حين تتفاعل معه . .

حتى بكت مرة ، طبيبة أم مريضة هى ؟ انقلبت كل المعايير ، يبدو أنى خدعت فى كل شىء ، آمنت به وبمبادئه ودفعت ثمن العيش معه : أمومتى ، وربما أنوثتى لو صح اتهامه لى ، ثم ها هو ذا يكاد يترك لى مبـادئه ويتراجع دون إنذار ثم كأنه يطالبنى بالتراجع معه وكأنى مذياع يتغير استقباله بحركة خفيفة من مؤشر جانبى ، هذا جزائى ، لابد أن أدفع ثمن التنازل عن كيانى فى مقابل شخص ، أو حتى مبـدأ ، لن ألوم إلا نفسى ، كل الحلول التى تطرأ على بالى تفشل قبل أن تصل إلى وعيى ، لو تراجعت عن مبـادئى من أجل خاطره لاحتقرنى لا محالة ، لو أصررت على موقفى فلن يكف عن الهجوم والتشكيك فىّ ، كيف أتنازل عن شىء حفظ كيـانى وصورتى أمام نفسى وأمام الناس طوال هذه السنين ، صحيح أنا التى تبعته ، من أجـله ، لـكنى اقتنعت بهشخصياً طوال هذه السنين ،سألت نفسى مرة فى لحظات يأس عابرة هل أنا ـ حقيقة ـ أعرف ماذا أقول ؟ وأجبت بالإيجاب « طبعاً ».. ولـكى تعلمت أن أشك فى نفسى كلما قلت « طبعاً »، هل أطرق الباب الذى أحكمت إغلاقه من سنين ؟ باب أمومتى المقتولة هل يكون ابتعادنا عن ما هو عادى سبباً فى ارتمائنا وسط هؤلاء المجانين ثم اهتزاز عقائدنا الجديدة ؟ هل ما زلت امرأة تصلح أن تتحرك حياة جديدة فى أحشائها ؟

— ما زلت أحبك يا غالى

— وأنا كذلك

— هل راجعت نفسك وأعدت تفسير مبررات هجرك لى ؟

— لم أهجرك ، ولـكنى عجزت عن خداع نفسى . . ، وظلمك

— ما زلت تسمى علاقتنا استغلالا

— هذا ما يغلب على ظنى .. حتى أتأكد من حقيقة سعادتك معى

ــ أنا راضية . وسعيدة

ــ لا بد وأن ترضى كل خلاياك

ــ وكيف أعرف ذلك دون أن نجرب

ــ معك حق

* * *

حاولت أن أقوم بتمثيل كل ما سمعت عن القمم الجنسية والخلايا ذات الأجنحة فى جنة المتعة ، ولكن يبدو أنى لم أنجح فقد كانت نظراته مليئة بالألم . وقد حاول أن يمنع نفسه من إنهاء مهمته إلا أنه لم يتمكن ، وطال الصمت بيننا حتى قطعه بقوله :

ــ فشلنا أفظع

ــ لن يعنى هذا انسحابك ثانية

ــ .....

ــ أعدك أنى سأحاول

ــ صحيح ؟

ــ على شرط أن تعاونينى

ــ من عينى

ــ لكنك لم تسألنى عن حبوب منع الحمل

ــ هذا شأنك أنت

ــ قررت أن يكون لى أطفال .

ـــ هكذا فجأة ؟

ـــ نعـــم

ـــ أرجو ألا تكون خدعة جديدة

ـــ لا خداع فى الأمومة

ـــ ليس لى سابق خبرة ..

* * *

ما إن تأخرت العادة الشهرية حتى أحسست بالأمان يغمرنى بطريقة لم أشعر بها من قبل ، طريقة لا تقارن بالأمان الذى كنت أتصوره من خلال حماسى بعقيدتى المادية ، هذا شىء آخر . نجحت خطتى ـ لكن فشلى الآخر يتزايد والآلام الجنسية أصبحت أكثر حدة حتى أعلن انسحابه ثانية ، استقبلت انسحابه هذه المرة براحة عميقة ، أنوثتى جرحت بنفس الحدة إلا أن أحشائى تحوى ما يثبت أمومتى رغم دعاوى اللذة المجنونة ، الأنوثة هى الأمومة أولا وقبل كل شىء . وديننا الذى هجرته يقول هذا ، أحيانا أفكر فى العودة إلى دينى ودين أهلى بدلا من كل هذا الضياع والوحدة .. من يدرى ؟ ولكن هل سيغنينى الدين عن أنوثتى المطعونة ؟ هل ينتهى بى المطاف إلى هذه الحال من الخوف والاهتزاز ؟ هل أحاول أن أسترد ذاتى بأى ثمن ؟ سوف ألتقط نظرات مختار النهمة التى لا تميز

ـــ من أنت يا مختار ؟

ـــ طائر بلا عش ، قادر على الطيران إلى ما لانهاية

ـــ غالى شككنى فى كل شىء ، وهأنذا أشك فى حريتك

ــ أتابع تطور علاقتكما بشغف

ــ شغف ؟

ــ أكبر جريمة أن تنسى المرأة جسدها

ــ جسدها .. ؟

ــ الجسد أصل الحياة

ــ هو وسيلتها

ــ فلسفتك أضاعتك ، وهذه هى النتائج

ــ أنت لا تهتم بأحد ، ومن حقى أن أشك فى كلماتك

ــ هذا أفضل حتى تخرجى من سجنك لحساب نفسك،لا لحساب غيرك

ــ سجنى ؟ . نفسى ؟ غيرى ؟

ــ جسدك سجين أفكارك وخوفك

ــ أحياناً أحس أنك منحل انتهازى لا أكثر ولا أقل ، نصائحك كلها لصالح غرائزك أنت

ــ تخافين من رغبتك فى الحياة ، فى الحب الطليق ، مصهر الجنس هو الطريق إلى الحقيقة .

ــ غالى يقول إنى باردة

ــ لم يعرف الطريق إلى مفاتيحك

ــ مختار ..!!؟

— إذا أحببتِ جسدكِ كما أحبه فسوف تتعرفين على العالم من خلاله

— زوجى له رأى آخر ، ويسمى الجنس استغلالا

— .. لا تلومى زوجك على كرهك أنت لجسدك ، كيف يحبه هو وأنت لاتحبينه

— أنا خائفة

— لا تخافى الحرية

— .. أية حرية هذه المرة ؟ ضاعت المعانى نهائياً .

— أنا فى الخدمة .. ولكن بمحض حريتك

— قد احتاجك لو جننت

* * *

لملمت ما تبعثر منى فى تلك الأيام العصيبة . اكتشفت من خلال خبرتى الغريبة أنى أخطأت الطريق حين تنازلت عن أسلحتى الطبيعية دون مبرر حقيقى أو بديل كاف،فليكن الولد ولدى ثم تحل مسائل السكون على مهل .. غالى ما زال يبحث عن نفسه ، هكذا يقول ، ويضيف أنه حين يجـدها سينطلق لتضميد جراح البشر وإزالة الظلم ، بتحقيق عقيدته هى هى، أصبحت لا أهتم بتحـذيره من الطريق المغلق ، أحياناً يتردد على الكنيسة دون أن يخبرنى وأنا سعيدة بذلك ، ما زلت فى انتظار إنهاكه ، توقفنا عن الذهاب نهائياً إلى حيث الكابوس الأعظم ، قال إنه عرف ما يكفيه ، يزداد وداعة

وتسليما يوماً بعد يوم ، علاقتي به هادئة إذ يبدو أنه نسي حكاية البرود والاستغلال بقدرة قادر ، ولكني لم أنسها أبداً ، ويا ليتني أفعل لتخف الآلام قليلا ، متى ينتهي هذا الواجب الأسبوعي بأى ثمن ..

. . . .

. . . .

. . . .

تغير غالي تماماً منذ الولادة ، حين أنادي على إبني فيناغي وكأنه يفهمني أقول لنفسي « إن الضمان الأوحد لاستمرار الإنسان وتطوره هو في أن تنجب النساء أطفالا » .

غالى جوهر

— ١ —

المصيبة أنى لا أصدق ما أحاول أن أقنعها به ، النقاش يزداد يوماً بعد يوم وهى تدفعنى لأن أقول حججاً وبراهين تكاد تقوض حياتى قبل حياتها ، أكأنى أنساق بهذا العناد إلى التشكيك فى كل ما كان ، لا أستطيع ون أتخلص من ألفاظى التى لا تقنعها وكأنها تقنعنى أنا ، يبدو أنى أحاول أن أقنع نفسى بالتمادى فى إقناعها ولكنها هى التى لا تكف عن النقاش ، صحيح أنا الذى صنعتها على مقاس فكرى حينذاك ، ولكن ما ذا لو تغير المقاس بعوامل التعرية والمبالغة فى الدعاية ،.. الأفكار التى لا تندمج فى عواطفنا وتحدد سلوكنا فى صحونا ونومنا ألفاظ داعرة ، أجسام غريبة تدخل إلى عقولنا تطمسها ونبيع أنفسنا لها فى مقابل أن نتخلص من الخوف والمواجهة ، أحاول أن أراجع نفسى فى حذر ، بل إنى مضطر أن أراجع نفسى ولذلك فأنا حـــذر ، لكنها هى . . . ، هى تتمسك بما كان وكأنه نهاية اللوح المحفـــوظ ، صحيح أن الأفكار التى اعتنقناها قد رحمتنـــــا من شعور الأقلية بالاضطهاد . . وأدرجتنا ولو أمام أنفسنا وأصدقائنا — فى مرتبة الثوار التقدميين ، وها نحن الآن مع الأغلبية بلا نزاع ، مع العمال الكادحين ، كنا أقلية بالولادنا فأصبحنا حماة حمى عمال العالم ، ليسقط الاضطهاد والظلم إلى الأبد ؟ إلا أن هذا الموقف الجديد يكاد يضيع علينا حجة الاضطهاد والحديث عنه والاعتذار به ، صدقت ملكة أننا الأغلبية الجديدة ونسيت وحدتنا القاسية الحقيقية ، شتان بين حياة داخل أسوار ضخمة ، صنعها الخوف والحلم فى المجهول ، أفكار جاهزة ومخاوف

حقيقية تحميك من التفكير ومن الحرية ، وبين الحياة فى غاية مكشوفة ، صدرك عار وقرار المستقبل بين يديك ، تحمل هموم العالم ليل نهار ، لا تنجح فى أن تخبئها حتى تحت الوسادة ، تنام مفتوح العينين وإلا اغتالك داخلك والتهمتك الوحوش ، أى مصيبة جلبتها على نفسى ، كنت مع الأقلية — بالولادة — وكان لى رب يحمينى ، وأب يسمع لى ، وجنة تنتظرنى ، كنت أوقد ناراً مضطهدة لكل من يضطهدنى أو ينكر عقيدتى حتى ولو كان كل الناس ، أما الآن فأملى فى الدنيا أن يتساوى كل الناس بكل الناس فى الخير والحب والعمل والسعادة والجنة والنار ، لا ليس أملا بل واجباً يومياً ، كيف ؟ ومن معى ؟ . . . من فعلا لاشعرا ؟ ؟

حين أخذت نفسى بهذا الالتزام وجدتنى وحدى تماماً ، حتى ملكة . . ، أقنعتها بأفكارى حتى ارتاحت إليها تماماً . . . فتركتنى وحيداً فعلا

لم أتأكد من مخاوفى الجديدة إلا حين رأيته ينهار أمام صفقة عاطفية رخيصة ، هو زميل عملى لكنه موسوعة مذهبية ، إجاباته جاهزة دائماً وصوته مرتفع ، ولكنى لا أعرف ما ذا حدث تماماً ذلك اليوم حين تأخرت فى مكتبى لعمل إضافى وكان هو أيضاً ينهى بعض مهامه بعد مواعيد العمل ، سمعت صوت شجار عنده ثم ارتطام كراسى بالحائط ثم استغاثة ، دخلت مسرعاً فوجدته قابعاً فى ركن الحجرة يرتعش مثل فأر فقد الطريق إلى جحره وأمامه «ذلك الغريب» ممسكا بالكرسى من أرجله فى الهواء وهو لا يضربه ولا يتركه ، كان منظره مرعباً حتى تسمرت فى مكانى لحظات ، سمعت الغريب يواصل هجومه بعد أن ألقى إلىّ نظرات غضب واحتقار معاً وكأنى شريك فى جريمة ما ، قال له كلاماً كثيراً ما بين السباب والمعايرة : «نذل ، جبان ، تغرر بالبنات وتفسد عقولهن لصالح شهواتك » زاد وجومى وتسمرت خوفاً وحيرة ورغبة فى معرفة المزيد،

الغريب ضعيف البنية وصاحبنا لخال جسيم ، الفيل يركض أمام ابن آوى ، بلغت المأساة أوجها حين صاح صديق بى لما رآنى « إلحقنى ياغالى » ولم أدر كيف ألحقه . . شيخ الحلقة دائماً

لم ألحقه ، ولم أستطع أن أقاوم أو أخفى الرغبة الخبيثة فى الاستمرار فى الفرجة المستطلعة المندهشه ولكنى أحسست بانهيار العالم حين تبينت جلية الأمر لما تمادى الغريب فى ثورته « سرقتها وخدعتها مثل أى جبان . . انتهزت فرصة غيابى وهى أمانة فى عنقى ، أحضرتها من بلدنا كإبنة من بناتى » « كيف تدفع ثمن تغريرك أيها السافل الجبان ؟ »

لم أكد أتبين أبعاد الموقف حتى أكمل الغريب « ضحكت عليها بالكلام عن حقوق العمال والفلاحين حتى أعطيتها حقهامن قذارتك النتنة ، لو كنت أعرف أنك تستأهلها لأرغمتك على الزواج منها ياجبان ــ طفلة ذات خمسة عشر عاما يا وغــــد ! ! ــ ولكن ظفر المكوجى الذى خطبها رغم علمه بكل شىء برقبتك ، أما أنت فلا تستأهل غير هذه » .

بصق فى وجهه وانصرف لا يلوى على شىء . هدأ لحظات ، وأخذت أهز رأسى يمينا وشمالا حتى أفيق من صدمتى وأستعيد الموقف ، وظل هو قابعا فى ركن الحجرة كالمغمى عليه ، لونه فى لون الموتى ولكن العرق يعلن استمرار نوع ما من الحياة ، لم لا يقوم يدافع عن نفسه ، لم لا يمسح البصاق من على وجهه ؟ من هذا الذى أمامى ؟ مرت فترة أخرى قبل أن أستطيع أن أتمالك نفسى وأسمع منه بعض ردود مقتضبة زادتنى اقتناعاً أنه نذل بكل معنى الكلمة .

لا يمكن أن تقسم المبادىء فتنظم الكتائب وتكتب الفلسفات لتحطم

الملكية البدائية ونترك عواطفنا فى أدنى درجات بدائيتها ، لا يمكن أن أنسى منظر الرعب الذى كان على وجهه مهما تغير المكان والزمان ، وجهه ويديه وجسده ، نبرته مختلطة جميعها بحبات العرق وبقايا البصاق وصفرة الموت ، كيف أستطيع أن أستمر فى تصديق كلام يقال بلا اختبار واقعى لإمكانية تحقيقه ، كيف أفصل بين ما رأيت وما أسمع ، كيف يمكن أن أعتبره حادثاً فردياً وأمضى فى إيمانى المذهبى الجديد الذى أنقذنى من مشاعر الاضطهاد ، وحرمنى منها فى نفس الوقت ؟

كيف أكف عن إعادة تقييم كل الزملاء ، من خلال علاقتهم الخاصة بعضهم ببعض وبأنفسهم ، أصبحت كلما اقتربت من أحدهم طالعتنى صورة الموت وحبات العرق البارد وَحيوان عاجز يتلمظ جوعاً واستجداء أمام أنثى تتبختر ...

ـــ ما ذا حدث لى يا ملكة ؟

ـــ كل هذا يهون أمام واجبنا المقدس

ـــ واجبنا مقدس . . نعم ، ولكن كيف يمكن تحقيقه ، ومن يحققه ؟ ما ذا يكون شأن مثل صاحبنا هذا الذى لم يؤتمن على طفلة ريفية ، إذا ما تولى الحكم بعد عبور بحور الدماء .

ـــ حادث فردى لعلك أسأت فهمه

ـــ الكذب والصدق لا يتجزآن .

ـــ لا تبالغ . . فلا دخل للعلاقات العاطفية بما تقول

ـــ إما ملكية . . أو لا ملكية ، إما شرف و ناس ،أولندع كلا يسعى إلى مصلحته بشجاعة ، وليتصارع الجميع فى النور

ـــ أي نور تتحدث عنه ياسيادة « المقدم » .

ـــ نور الوعى بحقيقة الضعف وضرورة العدل

ـــ كلام يشبه الجد ، ولكنه يخدع الضعاف

ـــ لابد أن يقوى الضعاف اولا فى النور حتى يكونوا أهلا للمسئوليه المنتظرة

ـــ تريد الناس ملائكة أطهاراً أولا ؟ نحن واقعيون قبل كل شىء

ـــ لا أريد شيئاً ، ولا أعنى شيئاً أكاد أفقد الشىء والمعنى معاً

ـــ أنت تبالغ وكأنك من أصحاب الفضيلة ، والحرية جزء من عقيدتنا

ـــ لا . . لا تشوهى مبدئى ، الحرية قبل تكافؤ الفرص خدعة عالمية ، أى فرصة متكافئة أمام خادمة ذات خمسة عشرة ربيعاً ؟ تصورى أنه كان يتكلم عن اختيارها ؟ . . المسألة أن اللعاب يسيل فى الظلام . . فى حين أن الصياح يعلو إذا أضيئت الأنوار

ـــ أنت تعمل من الحبة قبة . . ما ذا تريد الآن ؟

ـــ أريد أن أجد ميزاناً واحداً للناس . . والمال . . والعواطف . . والكلام .

ـــ الميزان هو اعتناق المبدأ بحماس وإخلاص

ـــ منظره وهو يرتعد فى ركن الحجرة أمام إنسان ليس فى نصف قوته لا يدع مجالا للخداع مرة ثانية بمجرد الحماس

ـــ حادث فردى ، وهذا موقف يهتز فيه أى واحد .

ـــ الصدق والكذب لا يختفيان عن عينى عابر سبيل

ـــ ما ذا تريد ؟ تتراجع ؟

ـــ لا . . . أريد فقط أن أنام

ـــ ذهبت إلى الطبيب وأعطاك أقراصاً ، ولـكنك لا تأخذها بانتظام

ـــ الأقراص لا تمسح ماحدث ، ووجوهكم أمامى تتوارد بصفرة الموت يعلوها حبات العرق ، ليس وجهه هو فقط بل كلـكم . . كلـكم .

ـــ كل من ؟

ـــ اختلطت علىّ الأمور

ـــ زاد الأمر عن احتمالى . . لم أعد أفهمك ، فلنذهب إلى طبيب آخر إذا لزم الأمر

ـــ مريض أنا ؟

ـــ لاهم لى إلا راحتك ، مهما كان . .

ـــ لا أعرف ماذا أفعل ؟

— ٢ —

إما أن أعيش كما تصورت يوما للناس وبالناس بلا تفرقة ولا كذب ولا أقلية ولا أكثرية ، وإما أن أهدم كل شيء بيدى حتى لو انهار المعبد على من فيه ، حتى لو رجعت إلى سجنى القديم أتعاطى المخدرات الميتافيزيقية بمحض إرادتى ، لماذا لم تهتز ملـكة مثلما اهتززت أنا رغم أنى أنا الذى علمتها كل شيء ، استجابت لى وأنا أحشر فى دماغها مالاشأن لها به ، ثم هاهى ذى تتمسك به أكثر منى وتتركنى أتخبط وحدى ، لماذا ارتاحت تماما لهـذا الحل رغم أنه حرمها من أمومتها ذاتها ، هل أجرؤ أن أعيد النظر فى علاقتى بها ، ولـكى أحتاج الى رعايتها المتفانية التى تحيطنى بها ، هل هذا هو الحل السعيد ؟ تطعمنى وتسقينى وتهز سريرى ـ جسدها أحيانا ـ حتى أنام أحلم بالجنة والعدل والسلام وإلغاء الأقليات من على ظهر الأرض ،

إصرارها على التمسك بالمذهب يغيظنى ويشعرنى بوحدتى أكثر ، ولكنى مطمئن فى جانب آخر من نفسى لأنى لا أصدق ـ تماما ـ ما أحاول أن أقنعها به ، وأتمنى أن أنسى ماحدث حتى أحلم بالجنة على الأرض ، لابد للانسان أن يحلم حتى يعيش وما دمت قد تخليت عن جنة السماء هربا من اضطهاد الأقلية ومذلتها فلأحلم بجنة الأرض ، ولكن جنة السماء جنة مؤجلة لا يمكن التحقق من عدمها ، أما جنة الأرض فصيبتها أنها تدخل امتحان التحقيق بسرعة ، لماذا أتعجل إذا فى التيقن من خدعتها ، ولكنى لم أتعجل . . . . هو الذى استغاث بى وهو ينتفض كالفأر الهارب ، مضطر أن أعيد النظر فى كل شىء ، هرب النـــــوم منى ولا سبيل إلا أن أسأل بدورى العـــون ممن عنده العون ، ولكنى أصبحت أشك فى أشياء كثيرة فكيف يمكن لأحد أن يعيننى الآن ، حتى ملكة لم أعد أتقبل عواطفها بنفس الترحاب والطمأنينة ، كانت قد تعودت أن توصل الطعام إلى فمى فى كثير من الأحيان ، مداعبة فى الظاهر وعادة فى النهاية . . ، ذات مرة رأيت حبات الأرز وهى تقترب من فمى على الملعقة فى يدها وكأنها شظايا ذرية ، انتفضت يدى فتناثر الأرز فى كل جانب ، وأخذت فى الاعتذار .

ـــ مالك ياغالى

ـــ لاشىء ، لدغة برغوت

ـــ تمزح ، ليس عندنا براغيث ، إلا إن كنت قــد استوردت بعضها من والدتك .

ـــ . . . أنت أمى وأبى ، ولكن هذا الذى تفعلينه بى كثير

ـــ أنا أحبك

— أعرف ، ولكنى أخجل مما تفعلينه أحيانا

— تخجل من حبى ياحبة عينى

— أخجل من نفسى

وتواصل إطعامى ، وتغطيتى ، وإحضار الشاى باللبن إلى سريرى كل صباح ، وترديد أفكارى ، والحماس لعقيدتى ، حتى تساءلت أى ملل يمكن أن يصاب به الإنسان فى الجنة ؟ وحين اقترحتْ استشارة طبيب آخر ذهبت وحدى حتى أتحسس طريقى أولا .. ولكنها لحقت بى بعد البداية بقليل .

* * *

— أحس أنى قد أتغير ، فهناك تطرح أسئلة كثيرة وإجاباتنا النظرية المحفوظة لا تكفى يا ملكة .

— هذا هو رابع المستحيلات ، لماذا نتغير بعد أن عرفنا تفسير التاريخ وشكل المستقبل

— عرفنا ؟ يا ليت

— أنت طول عمرك قلق ولكنى أعرف كيف أهدئ قلقك أولا بأول

— والأسئلة ؟

— أجبنا عليها كلها منذ التقينا ؟

— كلها

— تقريباً

— ما كان أشجعنا .. أو أغبانا !!

— هل نسيت ؟

ولكنى حقيقة لا أنوى ولا أريد أن أتغير ، فلماذا أصر على الذهاب إلى هناك ؟ الشغف إلى المعرفة وحب الاستطلاع يملكان علىّ حواسى إلا أنهما

لا يكفيان لتبرير المخاطرة ، أحيانا أحس أنها خدعة جديدة ، عقيدة سرية مطروحة فى صورة علاج حديث ، يشبهون الآخرين وإن كانت المواجهات أكثر حدة والمفاجآت أعنف والصياح أقل ، أنظر إليهم واحداً واحداً وأحاول أن أجد وجه شبه يربطهم فلا أجد إلا الحلم فى الأحسن ، عبد السميع الأشرم هو أكثر من يملؤنى غيظــــا ، نغم نشاز فى وسط فرقة تضبط أوتارها قبل البدء فى العزف الذى لن يبدأ أبداً ، فكيف يكون نشازاً بالله عليك يا غالى ، تكاد تفقد منطقك السليم ، عبد السلام المشد أكثرنا جداً وأعمقنا ألماً ولولا زوجته الصون الست فردوس لذهبت أبحث معه على الطريق المادى الذى يواصل السعى فيه ، والذى لا أعرفه ، كمال نعمان أقربهم إلىّ ، صديق قديم سبقنى إلى الانسحاب من الشلة الأخرى ربما لأسباب مختلفة ، فنان بحق ، لكن يبدو أنه لم يجد شيئا آخر ، فرحت حين وجدته معنا هناك ، مجرد صدفة ، لكنها رائعة ومريحة ، نظراته إلى ملكة توقظ الحذر فى داخلى ولكنى لا أفهمها ، أضمهما يتشاجران بين الحين والحين دون أن أتدخل ، إبراهيم الطيب يتحدانى دون استفزاز ، إما أنه بسيط لدرجة لم آلفها أو أنه مسحوز يتلقى تعليماته من تحت الأرض ، نجوى شعبان ممتلئة بالحياة ولا أعرف مدى ما يمكن أن يذهب بها تيار تدفقها .. أتوقع أن تصادف شلالا عميقا تتحطم عليه كل أحلامها الغبية ، ما الذى حشرنى هنا الآن ، كلما فكرت فى التراجع ـ مجرد فكرة .. ـ سهرت الليل كله حتى أقسم أمام المرآة أنى ذاهب ، ولا أطمئن حتى يأتى الميعاد وأتأكد أنى ذهبت ولكنه اطمئنان يثير قلقا فى الجانب الآخر ، بسمة هى « أنسى » فى حياتى ، لا بد أن أعترف أنى أذهب فى بعض الأحيان لأرتاح إلى أنها ما زالت على قيد الحياة ، مختار ينتظر عمزة سفارته فلا يُرى إلا وهو يصطاد طول الوقت ، بشرته تنبض بحياة رخوة مغرية يظهرها أكثر وأكثر أنه فى أغلب الأحيان يجلس

بجوار غريب الباحث وكأنه لم ير الشمس أبداً ، أما شيخهم ومساعدته فأنا حذر منه ومنها حذرى من المبشرين بدين آخر ، لو كانت المسألة دعوة جاهزة لدين جديد لأمكن مناقشته وقبوله أو رفضه . . . لقد تركت دين أهلى وذهبت مع الأغلبية لعلى أرتاح .. وقد كان .. فلابد ألا أدعه يعرض على حلولا جاهزة حتى لو كانت مغلفة بأوراق العلم والتجربة، ولو أنى أشك فى أنه يعرف شيئاً جاهزاً .. إنه يعرف شيئاً قوياً داخل كل منا .. ولكن يبدو أن هذا الشىء له مليون مظهر وتشكل .. ما هو الشىء المشترك الذى تلمسه كلماته فينا ؟

— إلى متى تظل تذهب إلى هناك يا غالى ؟

— إلى أن أعرف ماذا أريد ، وماذا يريد هذا الرجل منى ، أو لى

— . . .

— . . .

— هذا الرجل خطير، هو عميل بلا أدنى شك

— يجوز

— مؤكد

— . . . . . مؤكد

— لا شىء عاد مؤكداً

— ٣ —

— هل وجدت شيئا آخر يا كمال

— أبداً

— إذاً ماذا ؟ هل نستمر بلا هدف ؟

— لاتقول نستمر .. فأنت غيرى ياغالى

— طبعاً ولكننا هنا سويا

— تركتكم وتركت مبدأكم الرائع حتى لا أكون مع أحد . . .
فماذا تلاحقنى.

— فلماذا أنت هنا ؟

— أبحث

— وأنا أبحث كذلك

— كل واحد يبحث عن تفسير لخراب ذاته دون النظر إلى حل الآخر

— ولماذا لا نجلس فى منازلنا نبحث فى سرية وصمت

— إجلس يا أخى ... من منعك؟

— لم تكن قاسيا هكذا يا كمال

— أنا أنبهك من الأول

— وهل وجدت حلا أنت ؟

— لايهمنى أن أجده

— والفن

— لم يعد يكفينى

— أشفق على وحدتك وألمك

— لا أحتاج إلى شفقتك وليس عندى أدنى استعداد لأبادلك مثلها

— لكنى أريد أن أسمع منك

— .. ليكن،هذه نصيحتى إن شئت:لا تفعل مثلى ..لاتتراجع عن شىء قبل أن تجد بديلا ولو مؤقتا

— أنا لا أتراجع ، ولكنه هو الذى يتسرب منى يا كمال

— أسخف المعتقدات أفضل من لا شىء

— لو كان سخفا لاحتملته ، ولكنه حق . . إلا أنهم يشوهونه ، كأنهم ليسوا أهله ، كأنه الصدق يقوله كذابون .

— حيرتنى ؟ ماذا تريد ياغالى منى . . أفصح يا أخى

— مازلت تؤمن بمبدئنا، ربما أكثر منهم ، فلماذا انسحبت وتركتنا

— قلت لك . . لستَ مثلى فلا تطيل الإلحاح

— هل تستبدل المرضى والمجانين بأصحاب الرأى المناضلين

— هذا ما قالته لى «ملكة» ذات مرة

— ومصيبتى مع ملكة أعظم وأخطر ولو أنى غير مدرك أبعادها بنفس الوضوح

— لا يمكنك أن تستغنى عنها ، إنها تعطيك كل ما تحتاجه فلا تتمادى فى إيذائها

— أنا أحبها . . ولكنها تخنقنى بعواطفها

— هى إنسانة مخلصة إلى النهاية . . رغم اختلافى معها ومعك

— مخلصة إلى النهاية . . نهاية من ؟

— إلى النهاية والسلام

— هى لا ترتاح لك . . وتتجنبك

— أنا أرفضها . . ولكنى أحترمها . ، مثابرة وعنيدة

— تقول إنك هارب جبان

— ربما لاتتعدى الصدق فى ذلك

* * *

هذا الرجل . . هذا الرجل يعترف بعيوبه وكأنها عيوب غيره ، هرب بجلده ، ولكنه يثنيني عن الهرب ، أفضل مافى الوجود أن أؤمن بشىء مائة فى المائة ، أى شىء ، ملكة كانت مؤمنة بكل الطقوس القديمة ، ثم هاهى ذى مؤمنة بكل الطقوس الجديدة ، لماذا لا أفعل مثلها ، هذا هو كمال لم يصل إلى شىء ولا يريد أن يصل إلى شىء ، لست أجد مبررا للتراجع مهما كان الانهيار مزعجاً ومرعباً ، نفوس الناس ضعيفة لكن المبدأ ليس به عيب ، لابد من العدل والمساواة ، لابد من البدء بلقمة العيش وبأمان القرش ثم يكون بعد ذلك ما يكون ، عقلى يكاد يشت يا ملكة

— فلينهر من ينهار ولكن المبدأ لاغبار عليه

— قلت لك ذلك دائماً

— ولكن هذا الذى انهار هو الذى سيحكم البلد إذا ما استوليتما على السلطة

— توزع المناصب الوزارية منذ الآن لتبرر موقفك أو تمهد للتراجع ، يكاد هذا العلاج يفسدك



غالي جوهر

وحتى لو كان ذلك الطريق دو الطريق الصحيح ، فكيف أتمسك به وقد طمست معالمه داخل نفسى ولماذا أحضر إلى هنا ، هل أنا مريض مثلهم ؟ ماسكة تكدس كل جهودها كى أكف عن الحضور فأرد عليها تلقائيا بأن أعاند وأحاور وأداور دون اقتناع كامل من داخلى ، ياليتنى لا أحضر ، لو كففت يا ماسكة عن هذا التشنج فلربما فكرت مرتين حتى أكف عن الحضور ، أنا لا أثق فى أحد منهم ومازلت أشعر بانتمائى للأقلية ، أى أقلية ، أينما ذهبت فأنا الأقلية وهم الأكثرية ، كيف أثق فيهم أو فيه ، أخشى أن يتكشف هذا الطبيب عن خدعة نذلة مثل صديقى على الصوت المتكوم فى ركن الحجرة تختلط حبات العرق ببقايا البصمة بشحوب الموت ، .. بشعة ، صورة بشعة ، حمار جائع يشم مؤخرة غزال حديثة الولادة ، ماذا لو جمع السلطة فى يديه ؟ يدعو إلى تأميم المصانع ولكنه يؤمم خادمة الجيران لصالحه أولا ، يتحاشانى منذ الحادثه ، .. صوته أصبح أكثر ارتفاعا ونبرته أكثر حدة ، صوته أحيانا يصلنى وأنا فى سرحات خيالى وهو قابع فى ركن الحجرة ثم ينتفض ممسكا صولجان السلطة مصدراً فرمانا يقول « رجال الحزب أولى بالحريم ... والموت لمن يشاركهم نهود العذارى من الرجعيين والمرتدين » .

متى أكف عن التذكر والتفكير ؟ .. متى يكف خيالى عن المبالغة والتشويه ؟ ماذا جرى لى .. ؟ هذا الزعيم المزعوم ليس كل الناس ، ليس كل الرجال ، ليس كل الثوار ، أحس أنى أبالغ فى التشويه لأبرر هربى .. ولكننى لا أهرب إلى مهرب بحق .. فالرؤية هنا أكثر إزعاجاً .

* * *

— ٤ —

— رجلى على رجلك . . ولو حملونى على نقاله

— هذا انتحار ، حرارتك أربعون والطبيب أمرك بالراحه التامة

— إذاً كيف تتركنى وأنا بهذه الحالة ما دمت تعلم بخطورتها ؟

— مثلما تركتك إلى العمل فى الصباح

— العمل شيء . . وهذا شيء آخر

— أنت تعلمين أهمية الذهاب وتحرصين على أن نتعجل النهاية

— إنه مثل الماء المالح لا يروى ، كلما ذهبنا إليه اضطررنا للذهاب أكثر

— فليكن . . ولنشرب الماء المالح حتى نتقيأ

— أنا فعلا أكاد اتقيأ كلما ذهبت ، ولعل مرضى هذا وارتفاع حرارتى هو نتيجة ذلك الجو الخانق .

— مستحيل أن أصحبك اليوم . . وأنت على هذه الحال

إن هذا الرعب الذى يتملكها من هذه الرحلة الأسبوعية هو الذى يثير داخلى ويدفعنى للتحدى بلا حدود ، غير أنى لا أتحدى إلا نفسى ، لماذا لم ألاحظ على إبراهيم آثار المعركة ، ملامحه مثل الصخر ، ولكنه صخر التلال الوديعة لا صخر الجبال الحاد الصلب المدبب ، ترى هل وصل إلى الحل الأسعد أو أنه فى غيبوبه سرية ، انتهزت فرصة تخلف زوجتى هذه المرة وانتحيت به جانباً .

— كيف ترتاح هذه الراحة والناس جوعى يا ابراهيم ؟

— ماذا تريد يا غالى ، وأين زوجتك ؟

— أريد أن تعطينا مما أعطاك الله

— لم يعطني الله شيئا . . ولكني عرفت الطريق اليه

— إلى الله ؟

— وإلى عطائه ؟

— أنت لست مثل عبدالسميع فماذا تقول؟حسبت أنك أعقل من ذلك .

— أقول ماسمعتَ يا غالى

— . . وكيف ستوصل عطاء الله إلى الجوعى أفادكم الله ؟

— جوعى لماذا ؟

— لايوجد إلا جوع واحد ، جوعى للقمة والفلوس

— وهل أنت جائع ؟

— . . فى ظل هذا النظام القائم يمكن أن أجوع فى أى لحظة

— وإلى أن تجوع باذن الله ، ماذا أنت صانع ؟

— أحمى الجوعى من أمثال أفيونك

— بالله عليك . . من الذى يتعاطى الأفيون ، تهرب من جوعك فى الحديث عن جوع الناس ثم تتهم الناس بالتعاطى . . وأنت لا تعرف عنهم شيئاً .

— أكلك لأعرف عنك أكثر . . فاذا بك تستشيخ ولم يبق إلا أن تمظنى أن أدخل فى دينك

— أنا لا أعظ أحداً . . ولكنى أحاول ألا أخدع نفسى

— أنت مرتاح لأن دينك هو دين الأغلبية فلاخوف من الاضطهاد والنبذ

— دينك داخلك فدعه يترعرع بلا إذن من ملكة ولا خوف من كال ولا حساب لعبد السميع . . وساعتها ستعرف الناس الذين تتحدث عنهم

— وكيف أعثر على داخلى . . هل تلزمنى فتاحة سلمون

— سخريتك تبعدك عن إحساسك

— دعوتك خطيرة إلى الإحساس إبراهيم ، ماذا لو أحس الجوعى

— يقتلون الشبعى

— وقد يقتلونك أول الناس ؟

— قد يكون هذا هو الحل

— أنت يا ابراهيم تقول ذلك ؟

— إذا أراد الإنسان أن يحيا فهو إما قاتل أو مقتول

— أنت يا ابراهيم ؟ حسبتك مسالم حتى النهاية

— أحيانا يكون القتل هو طريق السلام

— أراك أكثر دموية من الحر

— لست دمويا . .

— لا أفهمك

— أعيش مشاعر القتل لتصهرنى ، وأحاول أن أقترب منك من خلال مسئوليتى عنها رغم اختلافنا

— هذا خطر . . و . . وغير مفهوم

— فهمته لحظة ثم تراجعت

— فهمته أو لم أفهمه هو خطر

— مجرد وجودنا فى الحياة خطر

— كلامك مرعب وقد كنت أحسبك فى سلام حقيقى

— إذا أردت أن ترى من زاوية أفضل لحاول ألا تخاف من خوفها

— خوف من ؟

— « ملكة » طبعاً . . .

— إبراهيم ؟ هل وجدت حلا لى

— . . . أنت حلىّ

— أنا ؟

— أقولك بلا مجاملة

— كلامك يرعبنى وإن كان يسمح لى بالاقتراب أكثر ، ولكن الناس الجوعى كيف ندعهم ونستغرق فى أنفسنا ؟ .

— نحن لاندعهم . . بل نسعى إليهم من خلال أنفسنا

— ملكة لاتصدق شيئا من كل هذا ، وأكاد أشعر أن إصبعها يشير إلى المخابرات الأمريكية تفسيراً لأى محاولة للمراجعة ، وتسمى حكمتك حكمة الكراسى الوثيرة .

— لا حكمة . . بل مسئولية

— هى تفكر فى جوع الناس ليل نهار

— وهكذا يحل « التفكير » محل « الجوع » ومحل الناس بحق وحقيق

— الجوع هو المشكلة الرئيسية

— بل المشكلة الأولى فقط ... وبعد القضاء عليها سوف نجرؤ على الاحساس

— نوزع على الناس « سندويتشات إحساس بالصدق الحار والليمون »

— الناس الناس ؟ وأنت وملكة ألستما ناسا ؟

— لا نكون ناساً إلا بتذكرهم

— إياك أن تخلط بين الحديث عنهم، والتمسح بهم ، وحقيقة تذكرهم .. للناس يا غالى نبضٌ آخر ..

— وكيف السبيل ؟

— المواجهة المستمرة

— .. رعب أزلى ، يعوق الأنبياء أنفسهم

— لا بديل لذلك .. مع الانتشار المثابر والاستمرار الأبدى

— كلام حلو .. يؤجل المعركة إلى ما لا نهاية

— بل هى معركة مستمرة

— .. الطبقة العاملة هى القادرة على الإحساس فعلا

— هى الأكبر عدداً .. ولكن رحلتها أطول وأعقد

— إبراهيم

— نعـــم

— الله يخرب بيتك ..

— .. حصل

* * *

تتكلم عن الإحساس يا إبراهيم وصدقك يلمع فى عينيك ولكنى لا أرى طريقاً واضحاً ولا بديلا حقيقياً ، سمعت مثل هذا الكلام مرة فى جلسة حشيش تنتزع القهقهات من جوفك دون استئذان على نغمات عود ذلك الشيخ العنيد ، أو حشتنى جلستهم ، سوف أذهب إليهم لأعرف إلى أى سماء طار بهم الدخان الأزرق .. لعل حشيشتهم تتحدى أفيونك يا إبراهيم، أنت وشيخك المغرور

— ٥ —

الشيخ الضرير النحيف يمسك بعوده فى حب غامر ، ويشرئب بعنقه إلى اليسار أكثر منه إلى اليمين فى حركة لولبية تشبه مسيرة التطور ، يرتشف ريقه باستمرار وكأن صنبور الوعى قد انساب بلا انقطاع فى تجويف فمه ، شعره الأجعد ولونه الأسمر وعنقه الطويل يذكرنى بآثار القدماء ، حركات وجهه كلها إحساس صادق يا إبراهيم ، وقد حضرت أوقظ إحساسى مباشرة بأنفاس الحق ، ولسوف ترى نهاية المطاف ، ملسكة سعيدة بهذه الزيارة وتأمل أن يعود ما انقطع ولو من خلال غابة الجوزة ، حين عرضت عليها الذهاب لسماع الشيخ ، قالت إن شيخ الطرب الشعبى أفضل من شيخ المنصر المجنون ، ضربات العود تخرج بغير انتظام وأصابع الشيخ تعبث فى مفاتيحه استعداداً للسهرة ، والدخان الأزرق يملؤ الجو فى سحر أصيل ، الطلبات تنهال على الشيخ فى وطنية واشتراكية وأحيانا فى عروبة ووحدوية ، دخلت هذه الألفاظ فى قاموس الإحساس الأزرق هى الأخرى يا إبراهيم

— نريد أن نسمع شيئا جديدا

— الجديد فى الحديد . . والجنرلات يذكرونا بما تحت الباط

— بطاطتنا سخنة

— وصاحبة الجلالة تحب البلبلة السخنة

— وحمص « الشام »

تنفجر القهقهات فى عدوان قاس والشيخ يرتشف ريقه فى انتصار وزهو بالفين ، يقدم أحدهم إليه الجوزة .

— إسحب لك نفس واستفتح

ـــ الانسحاب هذه الأيام للأمام يا فاضل

ـــ ليس لدينا ما نقوله بعد العبور

ـــ سحبوا البساط من تحتنا بلعبة أمريكية رائعة

ـــ سحبوا البساط بجهاد رجال البلاط

ـــ حلقة جديدة من مسلسلة الوطواط

ـــ .. مغامرات السوبرمان .. فى قصر السلطان

تفتح الأفواه ، وتنطلق منها أصوات عنيفة كالضحك ، شلالات تجرف معها كل شىء .

ملكة متحمسة أشـــد الحماس وتطلب من الشيخ أغنية خاصة

يقول الشيخ :

ـــ عقبال عوضك يا ست ملكة يا سكره

يقول أحدهم :

ـــ سندخل العوَض مع المطالبة بحقوقنا فى حقول الملانة

ـــ من بنود الاتفاق السرية أنهم سيزرعون الصحراء مكرونة أسبجتى

ـــ دخلت إيطاليا طرفا رابعاً فى الاتفاق

ـــ فلتعش صوفيا لورين

ـــ .. لورين وهاردى

ثم موجة أخرى من الضحك سالف الذكر ، أين أنت يا إبراهيم ياطيب حتى تسمى هذا الشىء باسمه يا حامى حمى الإحساس الفطرى يا غبى .

أواصل سحب الأنفاس فتنتفخ عضلات وجهى وتتباعد ملامحى وتخرج منى أصوات مقهقهة ليس لى أدنى علاقة بها .

قال أحدهم دون مناسبة :

— هيا نلعب قطرا

ردّ آخر فى سعادة خاصة :

قطر الندى خالة أفندينا

قلت فى نفسى ما أروع أن يقتل ابراهيم الطيب بالقبقاب ، ألم يقل أن الحل هو الإحساس : ياقاتل يامقتول ، فليمت وهو فى غاية الإحساس بضرب القباقيب ، ولتتعلم عظامه معنى السحق . . وبذلك يكون قد أحس حتى النخاع ، قهقه الجميع وهم ينظرون إلى نخشيت أن أكون قد فكرت بصوت مرتفع .

أطلّ على وجه «بسمة» فجأة ، ولكن وجه ابراهيم كان ينظر إلى من ركن الحجرة فى سخرية قاتلة . . سوف أريك معنى الإحساس ياراثق يا ابن الكلب . . وسوف تدخل النار على كل احتمال ، إما أنك ملحد أو أنك فى ضلال بدوى وثنى سخيف ، وفى الحالتين فأنت فى النار وبئس المصير ، ولكنى سأدخل الجنة فى الحالتين يا أبو خليل : دينى هو الأصح ، فان كانت خدعة فجنة الأرض أضمن وأسرع ، وجه « بسمه » يطل على مرة ثانية ، أخطفها على حصان أبيض من رعايا كنيسة العذراء ونطير إلى جنة عمنا ماركس ولكنها تقول أنها لا تحب اللون الأحمر .

أنظر إلى ملكة بعد مزيد من الأنفاس فأرى ملامح وجهها تتضخم ، فأنسحب فى هدوء النملة فوق أنفها الجبلى محاولا أن أتجسس على جهاز

المخابرات المركزية الذى تخبئه فى تجويف أنفها لصالح الطبقة التى لا تعرف عنها شيئاً ، أختفى وراء صخرة من الجرانيت على الجبل الشرقى ، وقبل أن أتبين أنها وحمة الزبيبة التى تظن أنها سر أنوثتها صحت فى استغاثه

— يا سيدنا توما الاكوينى . . مدد

رد الجالس بجوارى

— إكوينى مرة ، واكوينى ثانى . .

انطلقت دفعه جديدة من الطلقات السريعة المقهقهة حتى كدت أصاب بشظاياها ، أتلفت حوالى لأبحث عن جحر فأر أحتمىء فيه ، ولكنى أفكر فى الاختباء فى ثقب المفتاح لأمنعهم من الخروج حتى يواجهوا مصيرهم حقا وصدقا ، أغلبهم يعد نفسه من الثوار ، وبعضهم من هواة الثقافة وقد جاءوا هنا يا ابراهيم ليعمقوا إحساسهم بطريق موسيقى كيميائى مباشر ، وهى قعدة أرخص من جلسة طبيبك المأفون ، أقترب من اكتشاف السر تحت تأثير هذا العقار الساحر ، الوسيلة الوحيدة هى المخدرات العظيمة ، الأفيون الحديث تعددت أنواعه وانتشرت من الكنائس والمساجد إلى الكتب والعقائد وأخيرا إلى عيادات الأطباء ، والعاقل من بحث عن أقصر السبل وأرخصها ، واعلان الثورة لازم فى كل حال لفتح الشهية ، هؤلاء هم الثوار المثقفون الموسيقيون العرب ، ياربة العفاف والجدل يامليكة يازوجتى العزيزة ، لولاك يامليكة يابنت أبو منساع لكنت الآن فى السجن أو فى السرايا الصفراء ، ولكن بفضل حساباتك وثورتك البيتة التى تلفينها فى محشى ورق عنب هأنذا أمارس الاشتراكية الزرقاء تمهيدا للثورة الحمراء بعد الانقلاب السكلاما المخطط تكتيكيا دون مساس باستراتيجية الهرب المستمر . .

قالت لى ملكة ونحن على الباب

- هل حققت ما أردت بمجيئك هنا

- وسيلة أسرع لإيقاظ الإحساس ، مادام الإحساس هو السبيل إلى الثورة الحقيقية

- هذا تخريف أصحابك الكذابين عند طبيبك المجنون

- أنت ياملكة هى الحقيقة الوحيدة فى حياتى التى يمكن لمسها بالأيدى ، وكل شىء زائل إلا وجهك

بدت على وجهها سعادة غامضة مختلطة بخوف وحذر ورفض .

* * *

دون إنذار ، انفجرتُ باكيا فى التاكسى فزعا قبل أن ألحظ نظرة زوجتى الملتاعة الزاجرة الخجلة ، سيطرت على نفسى بسرعة ، وخطر بعقلى بيت من الشعر لا أذكره .

— ٣ —

المظاهرات تملؤ الشوارع وأنباء تقول أنها لا تهدأ بمرور الوقت ، لم أشعر أن الله تخلى عنى تماما مثلما شعرت ذلك اليوم ، حقيقة أنى تخليت عنه من سنين ولكنه هولم يتخل عنى بهذا الوضوح والصراحة والمذلة إلا هذا اليوم ، انتهزت زوجتى فرصة الإضراب والتحطيم وأخذت تهاجمنى بلا هوادة ، شعرت بالعجز والحيرة والرفض بطريقة أحسست معها أن الموت هو

الحل وأخذت أهتف فى وحدتى يارب ، رغم أنى ما زلت أتمتع عقلياً بإنكاره حتى العدم ، لم يكن غريباً على أن أقول يارب وأنا مادى إلى هذا الحد ، ولكنى تعجبت حين لم أجده يحميني من هجوم زوجتى الشامت وكأنها هى التى قامت بهذه الاضطرابات لصالح إثنائى عن العلاج وتغيير النظام الحاكم معا ، أحاول أن أخفى عنها هربى إليه ، وخاصة وأنه تخلى عنى أخيراً .. فلا فائدة من الرجوع .

— غالى ماذا تقول ؟

— العجز يحكم قبضته علىّ ، والخجل أكبر من احتمالى

— لا بد من المشاركة .. هذا هو الحل الحقيق

— . . . دعينى أفكر

— أفسدك العلاج

— أنا أحمل مسئوليتى وأمضى

— . . . . .

طرقت باب السماء وإذا بها ما زالت بلا أبواب ، مجرد انعكاس الضوء على ذرات لا ترى ، ليس للسماء باب كما أنه ليس للأرض قاع ، كل شىء قبيح خادع ولسوف تنتهى المظاهرات إلى لا شىء وسوف تعتبرين نفسك بطلة التحرير وتأخذين نيشان الصياح الأعلى ، وتعود الحياة كما كانت ، تخدع أنفسنا بأحلام ليست أسعد ولا أقرب من أحلام الجنة المفقودة وعفو الأب فى الأعالى ، المسرة ليست بالناس وَلا بالجان ، المسرة خدعة الأفيون القديم ، والسلام حجة العاجز ، وها هو ذا الأفيون الحديث قد يتضاءل تأثيره من الإدمان ، وحين حاولت الانقطاع عن هذا وذاك ، اكتشفت مخدراً طبيا

يقول صاحبه إنه صالح لكل الأحوال ، يتكلمون عن الحب « هنا والآن »
وأنا لا أفهم لهذه الكلمة معنى بعد أن انهارت كلمات المسرة والمحبة
والسلام، ثم انهارت بعدها كلمات المساواة والعدل والكفاح ..، يصرون على
الكلمة وعلى سحرها وفعلها وسوف أبحث معهم حتى تنهار هى الأخرى
فأواجه مصيرى وحيداً بلا سلطان لك أو لهم علىّ يا ملكة . . ثم تكون
النهاية .

— إذاً ماذا ؟ ما هذا الحب يا إبراهيم الذى تتحدثون عنه ؟

— هو الحياة

— سئمت التعاريف الشعرية ، وأنا جاد

— أنا لا أمزح ولكنى أراه فى كل حركة طوال وعيى من أول
طنين ذبابة حتى ذروة الشهوة بين ذراعى امرأة مؤمنة .

— مؤمنة ؟ كيف تستعمل هذه الألفاظ بهذه البساطة ؟

— أنت خائف من كل شىء ؟

— لقد فترتُ تجاه زوجتى بعد أن اكتشفت أننا كنا نكذب
طوال هذه السنين ، وأنها كانت تستجيب لى لمجرد إرضائى

— ها أنت تطرق بابه

— بابه ؟ ومن يفتح لى يا صاحبى ، ربى القديم تخلى عنى ، وأبوابهم
لا تفصل إلا بين الفراغ والظلام

— أنت الذى تفتح

— أنا الطارق ؟ .. وأنا المجيب معا ؟

— نعـــم

ـــ هذا ما حسبته حين قررت أن أحادثك ، سوف تضيعنى فى ألفاظك الحالة الغامضة حتى يخيل إلى أن الحل عندك ، ثم تتركنى كما كنت وألعن ، يخيل إلى أنك أعظم كذاب فينا ، بل فى الدنيا كلها .

ـــ ليـكن . . ولـكن هذا لا يغير مصيرك ، ما دامت هذه إرادتك

ـــ مصيرى يقترب من النهاية أسرع مما تحسبون

— بل إنى أراك تتقدم للأمام رغم بطئك

— سأقترح علي جلالته — هنا — أن يعينك حامل أختامه ، تقسم الناس إلى متقدم ومتأخر ، لو أنك تعرف ماذا تقول أو تدرك معنى للحياة لرأيت كيف أنى فى مصيبة لا أعرف لها بداية ولا نهاية .

— أعرف ذلك وأنتظرك

— مصيبتى هى أنى كفرت دون مقابل ، وحين عدت أطرق بابه لم يرد .

— ولـكنك فى طريقك للإيمان

— تتشفى فىّ يا إبراهيم أم تبشرنى بدينك فى حظيرة الأغلبية

— ماذا تقول يا غالى ؟

— يراودنى خاطر ملح أن أرجع إلى دين أهلى بإصرار ، أحتمى به منكم ومنهم ، حتى لو عادت معه مشاعر الاضطهاد والنبذ ، فهى أفضل من الضياع والوحدة .

— وهل تستطيع أن ترجع ؟

— لم لا

— جرب .

— تسخر منى ؟

— . . . أنا أحترمك يا غالى ، وأحترم استمرار محاولة صدقك

— أحاول أن ألتقى بك .. ولـكنك مانعز ، كلما رأيت تأكدك ازددت عدواناً عليك ، كدت أقتلك فى خيالى ضرباً بالقباقيب .

— هذا حوار صادق . . ولـكنى أذكرك أنه مهما بدا لك مظهرى أو طمأنينتى فلا شىء يطمئنك إلا استمرارك . . وأنا كذلك

— ردودك تخترق عظامى وتغريتى باتهامك أو احتقارك أو تـكذيبك

— قلت لك هذا حوار أصدق

— صدقه مؤلم . . يكاد يعجزنى

— من يعجز فى النهاية هو الخاسر لامحالة

— إذاً لماذا لا تساهم فى العمل السياسى . معنا

— إذاً ما ذا أعمل ليل نهار . . ألست أساهم معكم ؟

— أعنى تنظيمنا

— كل الطرق الجادة تؤدى إلى «وجهه»

— ياخبر أسود .. هذه هى مصيبتى معك ، كلما تحدثتَ بمثل هذا الـكلام مادت الأرض تحت قدمى و لم أعد أفهم شيئاً

— بل تفهم . . ولـكنك لا تأخذ بالك

— لا تحيرنى وتزيد إلغازاً . . قل لى بصراحة هل أنت معنا ؟

— طبعاً . . رغم أنفك

— أنفى أنا ؟ قل أنف ذاك المسئول عن انهيارى . . . مُلتهم العذارى المشويات .

— لا تهرب من مسئوليتك ياغالى .. حكيت لك أن امرأتى فى أحضان من لا يعرف اسمها ، ووجدانى يصطلى بآلام الوحدة والهجر ، ومع ذلك تصر على تبرير انسحابك لأن فرداً هوى تحت وطأة نزوة

— المسألة ليست مسألة فرد ، بل ما أثاره هذا الفرد من تساؤل حول طبيعة من يستلم منا السلطة .

— يا أخى . . ! يا أخى . . ! قانون البقاء سيلفظ كل هؤلاء على كلا الجانبين لا محالة .

— وإلى أن يلفظهم . . كم من الضحايا سوف يلتهمون

— هذه هى ضريبة المحاولة

— حيرتنى يا إبراهيم .. أنت بعيد قريب .. تدافع عنهم وأنت غريب عنا . . أخشى أن أكتشف فيك أكبر كذبة ...، كذبة أكبر من صاحب الصوت العالى

— يا أخى أطلع كذاب ، أذهب فى ستين داهية ، كل هذا لا يبرر ضياعك أو انسابك .

— إبراهيم . . . صورة ملكة تخايلنى . وأنا خائف

— معك حق

— ٧ —

حين فترت عاطفتى تجاه زوجتى ، تفتحت بشكل مخجل نحو « بسمة » ، لا بد من حب حقيقى جدا وخاص جداً يملؤ حياتى ولا يدع لى مجالا للتفكير فى أى شىء لا قبل الموت ولا بعد الموت لم أعد أثق فى الأصل ، . ولا أقبل الهروب الجماعى تحت أى عنوان ولسوف أفعل ما أريد

— ما ذا تريد ؟

— أن أعيش بأى ثمن

— أنت حر

— يا ليت

ماذا أريد منها على وجه التحديد ، ليست على دينى ولا فى سنى ولم أتجاذب معها الحديث إلا مرات قليلة ، ومع ذلك فهى تشغل بالى هذه الأيام بطريقة مخجلة ، ومضحكة ، وأحياناً ممتعة ، لا أنكر أن خيالى سرح بضع مرات فى مناظر جنسية مع نجوى مصباح ، ولكن هذه العصفورة لا تثير فى الحيوان وحده بل تعيدنى إلى دنيا ذات طابع خاص ، خيالاتى الجنسية معها لها رائحة عطرة . حبات عرق الجنسى تخرج منها زهور بيضاء وينطلق من أكمامها عصافير منتشية ، ترى هل تراجعت إلى أيام المراهقة بفعل العلاج الحديث ؟ أليس هناك سبيل إلى الاتصال بها دون أن تنهار أحلامى أو أقتل رميا برصاص ملكة مناع زوجتى العزيزة ، سوف أكتب لها خطابا أعبر فيه عن كل ذلك ، هذا هو الطريق المناسب

« حبيبتى بسمه »

لاتتعجبى من ندائى لك بحبيبتى ، هذا قدرى ، أقولها دون لف أو دوران ، أنا على غير دينك ، لـكننى بلا دين فلا تضـعى العوائق بيننا بلا مبرر ، السن لن يحول بيننا لأنى لا أريد منك شيئا له دخل بالسن ، لقـد جئت هنا بلا عقيدة ولا مستقبل فما الذى جاء بك فى هذه الساعات المبـكرة من العمر ، ترى هل نسـعى جميعاً إلى هدف مشـترك لانعرفه ، إذاً فنحن نقترب بعضـــنا من بعض والذى يهمنى أنى اقترب منك أنت على وجه الخصوص ، أنا أحبك يا بسمه كما لم أحب أحداً أبداً ، أحلم بك ولاأشوهك حتى فى الحلم ، لماذا هذا الحزن المؤلم فى هذه السن الحلوة ، أريد أن أتسحب تحت ملامح وجهك لأرى حقيقتك ، فرحتك ، ألقى بين عينيك بقشرة ترمسه ونحن نسير سويا فى صمت على شاطىء النيل فتضحكين مثل رضيع يتعرف على صوته لأول مرة .

حبيبتى بسمه

ربما أنت الوحيدة التى تستطعين مساعدتى فى محنتى التى ورطت نفسى فيها دون مبرر .

كيف تساعدينى ؟ لست أدرى ؟

ولـكننى أحبك

توقيع :

« غالى جوهر »

راجعت الخطاب مرتين ولم أصدق أنى أنا «غالى جوهر» الذى كتبته ، نظرت إلى وجه امرأتى وهى نائمة تجز على أسنانها فى تذمر ، تسحبت إلى الحمام وكومت الورقة فى إصرار وخوف وألقيت بها فى الماء وأخذت أشاهدها وهى تدور حول نفسها مع تيار الماء المتدفق ثم تنسحب بقوة إلى مكان عام حيث يختلط كل شىء بكل شىء ، هذا هو ما تفعلونه بالحب الخاص يا إبراهيم ، حين تتكلمون عن حب كل الناس لكل الناس تعيشون فى الكذب ليل نهار وتلفون حول أنفسكم فى عيادة طبية مثل دورات هذا الخطاب فى قاع الماء القذر ، الناس لا تتساوى إلا فى مكان عام مثل مصير هذه الورقة المطوية .. ما أبشع خيالى ولكنى أحاول الصدق كما تريدون لى.

ما أبشع الكذب حين يسمى بغير اسمه .. وحين يسمى الأفيون الحديث منبها للوعى . .

اسمع يا إبراهيم

أنا ذاهب غداً إلى الكنيسة ، وسأعترف بكل ما كان . .

* * *

— ٨ —

«جوهر غالى جوهر» ، هل هذا هو نهاية المطاف أو قل بدايته ، ماذا بعد أن قبل أبونا اعترافى وانتصرت ملسكة على خوفنا ، فأهدانا الرب هذه الجوهرة الغالية النادرة ؟ ولد ليس كمثل الأولاد ، نتاج المعاناة والصبر ، زهرة العمر ، « جوهر غالى جوهر » ما هذا الذى كان قد حدث بعقلى حتى أحرم ملسكة وأحرم نفسى من هذه النعمة التى ستزيد عدد شعبنا المظلوم على أرضنا التليدة ، ما أغباك يا نجوى حين تركت طفلتك إلى هذا الضياع الذى كاد يطير بصوابى ،

ولكنك تراجعت فى آخر لحظة حين قبلت الارتباط بإبراهيم ، هذا هو عين العقل حتى تعرف معنى الحب يا إبراهيم من الآن فصاعداً ، حقيقته تكمن فى طفل نرعاه ويكبرلك ، يبتسم لك ، و يتعلم لك ويحقق لك ما لم تحققه أنت ، من الغرور يا كال والغباء والأنانية أن نحاول أن نحقق فى حياتنا ما ينبغى أن يحققه أولادنا وأولاد أولادنا ، قال أبونا فى موعظة الأحد الماضى كما كان يقول دائماً أن المجد لله فى الأعالى . . ، فهمتها هذه المرة لأول مرة على كثرة ما ترددت على أذنى ، فكيف تحاول أيها المجنون الأعظم ـ متخفياً تحت ستار العلم والطب ـ أن تجعل المجد للإنسان على هذه الأرض الفانية .

أما أنت يا ملكة ، فلو لا صبرك هذا الصبر لضاعت الأرض والسماء والأصول والفروع . .

* * *

ولكن لما ذا يفارقنى النوم بالليالى الطوال ـ ومتى ينتهى الواجب الزوجى الأسبوعى الثقيل . . ؟

يستحيل علىّ أن أهدم المعبد على أم رأسى لأنى ضبط حارسه يتبول بجوار جداره . . .

لا أستطيع أن أنساكم أو أنسى الناس ، « جوهر » إبنى ليس سوى الناس ، رغم أن ملكة تزداد بُعداً يوماً بعد يوم .. ، خائف خائف مع أنى متأكد أنى على حق . . أننا على حق مهما تعثر بعضنا .. ، ما زالت شهادتك بصدق محاولتى تطمئننى يا إبراهيم ، ولكنى لم أفهمك أبداً وأنت تصر على ابتغاء « وجهه » . .

أنا خائف يا إبراهيم ، مضت شهور لم أركم فيها ، كم أنا مشتاق لرنين صوتك يا أخى ، ولغمازتا بسمة . . .

« جوهر » يا إبنى هل تكون لى بديلا عن الناس ؟

أو هل تكون طريقاً إليهم . ؟

كمال النعمان

اقتربت من اللوحة ، وابتعدت عنها ، ملأنى الزهو بنفسى وبالريشة وبالألوان ، أتذكر كلام صديقى أمس « تواصل الصعود إلى القمة بسرعة يا كمال ، الآن فقط أحس أنك كنت محقاً حين تركت الشعر » ، صديقى هذا ناقد فنى لا يجامل ، لا يلقى الكلام على عواهنه ، هزّنى إلى الأعماق ، هذه لوحة ستكون صرخة العصر لإعلان مرحلة جديدة ، لم يبق على إنهائها إلا لمسات يسيرة ثم تصبح هى هى .

أتراجع أكثر حتى أعلى من ألوانها لكن وقفتى جاءت بجوار النافذة ، لمحت الأتوبيس وقد رص على سطحه أكوام البشر « المصريين » ، شعرت بوخز عنيف فى صدرى سرعان مازال ليحل محله هاتف قديم كنت قد نسيته بعد أن استغرقنى العمل والنجاح واستوعبنى الفن تماماً ، تردد بصرى بين اللوحة وبين الأتوبيس «هؤلاء البشر مصريون . . وأنا . . ؟ من أى جنس أنا ؟ رجعت أشاهد اللوحة . . هذا العمل يدل على أنى منهم . . ولكنهم هم أصحابه ، لا بد أن يصل إذاً إليهم .

كدت أذهب إلى اللوحة وألقيها إليهم فى محاولة كاريكاتيرية للسخرية مما دار بذهنى ولكنى لم أفعل ، ولم أستطع أن أطرد ما يدور بعقلى ، شىء مشترك بينى وبين هؤلاء الناس لا بد وأن يتواصل ، لابد أن يحس بى صاحب هذا العمل الحقيقى ، أنا أرفض ألا يحس بى إلا ناقد متحذلق . . ، ترى هل يفهم نبضى أو هو يتفرج علىّ ، لا بد أن يعرف هؤلاء الناس ماذا أقول ، ولكن ماذا أريد أن أقول على وجه التحديد ؟ ما ذا أريد أن أقول فعلا ؟ . .

أو حتى تقريباً ؟ ، هل حقاً أريد أن أقول شيئاً أم أنه تفريغ والسلام ، ترى – حقيقةً – ماذا أريد أن أقول ؟

٢ — لا أعرف

١ — ولماذا لا أقول ما لا أعرف ؟

٢ — لأنه لا بد أن يقال

١ — من أين أتيت بهذا اللزوم ؟

٢ — ماذا أفعل لو لم أقله ؟

١ — وما ذا تفعل لو قلته ؟

لأول مرة أقف أمام عملى بهذا الوضوح أراجع قيمته ومعناه ، كان يخطر ببالى مثل هذا الخاطر ، وخاصة حين تثار المناقشات مع أصدقائى القدامى الثوار ، ومدعى الثورة ، حول قضية الفن للفن أو الفن للحياة وأحياناً الفن للشعب ، كنت أرفض دائماً منطقهم لأن أكثرهم لم يكونوا يعرفون ما ذا يتكلمون عنه ، لا الفن ولا الحياة ولا الشعب ؛ وبالرغم من ذلك فأنا شخصياً وفى عز وحدتى ، ودون تدخل من إرهاب فكرى أو تشويه تشنجى أواجه مشكلة مشابهة ، هل تسربت أفكارهم إلى عقلى من وراء ظهرى ، ولكنى متأكد من زيف أغلبهم وادعائهم وإلا ما تركتهم ، لكن زيف بعضهم لا يعنى فساد دعوتهم ، كنت دائماً أرفض أن يوضع بجوار العمل الفنى أية علامة استفهام ، الفن كيان قائم بذاته لذاته لا يحتاج إلى «لما ذا» أو حتى «لمن» ، فما ذا جرى لى بحيث لا أستطيع أن أرى اللوحة إلا وورائها الأتوبيس وعليه الناس بعضهم فوق بعض ، ما هى هذه العلاقة الجديدة التى تفرض نفسها على ؟

١ — الفن لغة خاصة غير قابلة للترجمة ، وعلى من يريد أن يتفاهم بها أن يتعلمها ، هذا كل ما هناك .

٢ ـ اللغة تواصل بين اثنين

١ ـ ليكن ولكنها ليست مشكلتي

٢ ـ بل مشكلتك ، وكنت تؤجلها باستمرار

١ ـ هل أنزل إلى الأتوبيس أوقظ إحساس الناس بمطواة قرن غزال حتى يعرفوا ما ذا أريد أن أقول .

٢ ـ تخفى فشلك بسخريتك

١ ـ فشلى أنا .. من ما ذا ؟

٢ ـ من أن تعيش ؟

١ ـ أعيش ؟ من أنت ؟

٢ ـ أنا أنت

١ ـ من ؟

٢ ـ أنا أنت

١ ـ لا بل أنا .. أنت

٢ ـ اعترفت بى على كل حال

١ ـ لا ..لم أعترف..سمحت لشطحات الفن أن تتجسد من باب العبث العقلى

٢ ـ حاول أن تتخلص منى ! ! هذه المرة ليست مثل كل مرة

١ ـ نعم .. نعم .. من أنت

٢ ـ إذا تخاصمنا عجزنا كلانا فانتبه

١ ـ قل هذا الكلام لنفسك

٢ ـ بل تقوله أنت فقد طال صبرى حتى كدت تنسانى ، والآن أريد حقى فى الحياة .

١ — حقك ؟ هذا هو الجنون ذاته

٢ — أنت تسرق عملى ، تفخر به ، تتباهى وتنسى ، وقد صبرت عليك كثيراً لعلك تتذكرنى يوما بعد أن تشبع من جشعك ، إلا أنك كنت نذلا كما كنت أنا غبياً . . فلنصفى حسابنا . .

١ — هواجس وعبث ، لقد « وصلت » بجهدى وعرقى

٢ — ونسيتنى وأنا الأصل

١ — لم أنسك..فأنت أنا

٢ — كذاب . . ، وكذلك اليوم تنسى

١ — لن أنسى ، كلهم يعرفون من أنا ، كمال نعمان ، وماأنت إلا شيطان عابث .

٢ — أنا إلهك وإله آبائك ياغبى

وصلت المشادة إلى السباب الصريح حتى خفت أن يسمعه الجيران ، انتابتنى رعشة شاملة ، ثم صداع على جانب واحد ، ثم خوف حقوقى من أن أكون قد فقدت سيطرتى على نشاطى العقلى ، حاولت أن أكمل اللوحة فلم أستطع ، يدى لاتقوى على إمساك الفرشاة وإن كانت تقوم بكافة الأعمال بكفاءة ومهارة ، الإحساس يغمرنى واللمسات فى ذهنى ولكنى عاجز عن أن أنقلها إلى اللوحة ، ما الذى أوقفنى وأنا أقترب من القمة هكذا!؟

٢ — لكل شىء إذا ماتم نقصان؟

١ — نعم ..؟ نعم ..؟ هذا شلل كامل وليس نقصان ؟

٢ — حق برقبتى ، لن تعرف كيف تتخلص منى بعد الآن

١ — ما هو حقك ؟

٢ — أن أعيش . . وأتواصل مع القاس وللناس

١ — حاولت . . وأنت تعلم ذلك واكتشفت خداعهم وكذبهم

٢ — نحاول ثانية . . التعميم تبرير لليأس خيبتك ومناوراتك لا ينبغى أن تدمغنى

١ — لا أفهم ما تريد على وجه التحديد

٢ — سوف أوقف كل شىء حتى أطمئن على أنك لا تسرقنى . .

١ — ...

٢ — ...

١ — من أنت ؟

٢ — أنا أنت

١ — جنون هذا أم حلم؟

٢ — إبحث عن اسم تهرب به من حقيقة وجودى

كنت قدقرأت عن مثل تلك الشطحات التى يمر بها بعض الفنانين والعباقرة عبر التاريخ وارتفعت إلى وجهى بسمة ساخرة ولكنها سعيدة خبيثة ، يبدو أنى سوف أدخل التاريخ ! ! «وكان يحدث نفسه بصوت» مسموع » . « وكانت تصيبه نوبات عصبية تعجزه عن الإنتاج بعض الوقت» ازدادت ابتسامتى اتساعا وتراءت أمامى صور تاريخية بدأت بليوناردو دافنشى وانتهت بييكاسو مع وقفة طويلة أمام فان جوخ — ياحلاوة (!) أصبحت لى شطحات مثلهم ، ومن يدرى إلى أين ينتهى بى المطاف ؟ ولكن العصر تغير وأصبح دخول التاريخ صعبا مثل كل شىء هذه الأيام . لا بد

أن أكمل اللوحة أولا وربما احتاج الأمر أن يمضى عليها اثنان من موظفى الدرجة الرابعه الفنية قبل أن يسمح لى بدخول التاريخ ، أو ربما تزاحمنا حتى يحتاج الأمر إلى مكتب تنسيق ، عجزت تماما عن أن أكمل اللوحة . . وأجلت المحاولة بضعة أيام ثم بضعة أسابيع حتى بدأت أتأكد أن المسألة ليست وقفة عابرة ، الديالوج الساخر المتصل يملؤ عقلى ، أنتقى من ألبوم الذكريات صور أصحابى القدامى الكذابين لأؤكد خواءهم وزيفهم ، الآخرون الذين لا أستطيع أن أنكر صدقهم وكفاحهم يقحمون أنفسهم على فكرى يتشفون فىّ ويتهمونى بالهرب ، وأنه قد آن الأوان لأن أدفع ثمن انسحابى ، تركتهم حين تصورت أن السياسة بهذه الصورة مهرب خبيث وهأنذا أكتشف أنه إذا كانوا قد هربوا جماعة فأنا هارب صولو ، هل من وسيلة أخرى للتعبير عن هذه المشاعر الغامرة ؟ ولكنى غيرت وسيلتى قبل ذلك ولا أعرف وسيلة أخرى حاليا غير اللفظ واللون ، كل الناس كانت تتساءل فى لوم وعجب حين تركت الشعر إلى الرسم ؟ فهل أرجع إلى الألفاظ أحاول أن أرجوها وأعتذر لها لتحمل مشاعرى إلى الناس فوق الأتوبيس ؟ كانت الألفاظ صديقتى ورهن إشارتى ، تطاوعنى حين أصالح بينها وأعيد تنظيمها راقصة أو متماوجة أو مشرعة مثل السيف فى وجه العدم واللا مبالاة ، حاولت جادا أن أمسك القلم وأدعو الألفاظ للرقص من جديد ولكنها استعصت علىّ وكأنها تعتب على لأنى هجرتها بغير ذنب ، أذكر كل مرة كنت أهرب فيها من السجن الى الخلاء ، كنت أجرى هنا وهناك طويلا قبل أن أتبين أسوار الخلاء ، وأنى فى سجن أرحب الا أنه سجن على كل حال ، انتقلت من الحبس الإنفرادى فى زنزانة المدرسة الى فناء الفلسفة فى الجامعة ، ثم إلى ملاعب الشعر حيث حققت ما يعرفه الجميع ، ولكن اللفظ ضاق بى أو ضقت به ،

لم يعد يسعف خيالى وكنت ، أحس أن حروفه تنوء بما أحملها من مشاعر وأحاسيس ، أرهقنى اللفظ وأرهقته حتى أنقض ظهره وعجزت عن كتابة الشعر فتسللت من بين القضبان إلى حديقة الرسم الممتدة إلى غابة الدنيا الواسعة ، وهناك وجدت دنيا عامرة بالألوان والحرية ، وظللت أؤلف بينها فى تناغم أرضــــانى بعض الوقت ، ولـكن هأنذا فجأة أجد نفسى فى وسط الصحراء الـكبرى . . . لا شجر ولا ماء ، لا ألوان ولا أصوات ، خواء تام وصياح استغاثه لا يسمعه أحد ، وعليّ أن أواصل ســعيى . . . لـكن إلى أين ؟

— ٢ —

شــتان بين السمع والمعاينة ، كنت قد قرأت له بعض ما كتب حتى حسبت أنى أعرفه ، يكتب عن الإنسان والغد ، ويهوّن الأمر وكأن الجنون يمـكن أن يكون فاتحة عهد آخر كأنه رحلة اختيارية ســعيدة ، وكنت شغوفا أن أعرف « كيف » ؟ ، وهاهى الفرصة تتيحها لى هواجسى التى لا ترحم ، الواقع الحى أبلغ من كل مقال ، لا أنـكر أنى أتمتع بالتجربة حتى النخاع . . فرصــة نادرة للنزهة داخل الإنسان دون استئذان ، عادت إلىّ مشاعرى الفنية المتدفقة تستوعب كل همسة أو إشــارة ، لتـكن فترة استقبال وتمثيل من تجارب البشر إذ يتعرّوْن فى غفلة من الزمان فى عيادة طبيب مغامر ، هذا الرجل فنان كما قلت لغريب ، يعيد صياغة الحياة بطريقة فنيه رائعــة ، ولـكن حذار ياعمنا ، مادته من لحم حى ، أى لذة تجدها فى هذه اللعبة تجعلك تصبر عليها هذا الصبر ، أكاد أعرفك ياعمنا أكثر من نفســك : ما أروعك وأنت تستخرج المشاعر من جوف أصحابها وكأنك

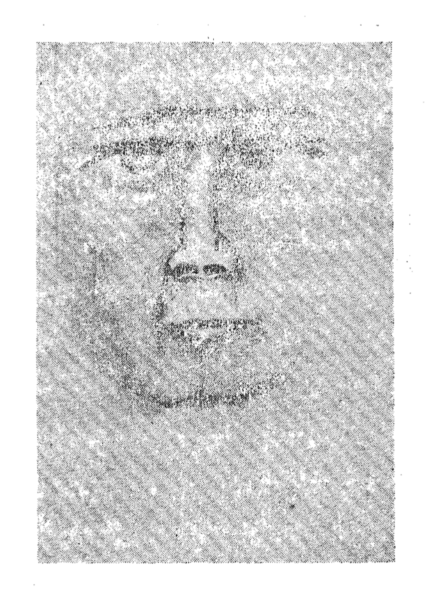
تفرغ جراب الحاوى الذى تعرف محتوياته جيداً ، ولكن يا لهفتى عليك حين تفشل ، وأنت فاشل لامحاولة ، إياك أن تقترب منى فنحن أدرى ببعض ، دع وجودى الجسدى واستمرارى فى الحضور يطمئنانك من بعيد .. أصفق فى السر بعد إخراج كل لقطة تقوم بها ، وأثنى على لوحاتك الحية بابتسامة خفية ، فيسر خاطرك وتتابع عملك فى إتقان ومهارة .

سألنى غريب مرة « لماذا أحضر إلى هنا » وأجبته « إنى لا أعرف ما أشكو منه » ولم أقل له السر الحقيقى ، يستحيل علىّ أن أقول له أنى أشكو « منى » أو أنى أعجبت باللعبة وأريد مزيداً من النمر والمفاجآت ، أنا فعلا لا أعرف مالى ، ياليتك تعرف ياعمنا ، يا أبى أنت وأمى من بعيد لبعيد ، ياليتك .

أيها المخرج العظيم ، ياليتك تقول لى مابى دون أن تدعى علاجى ، سوف أظل الشاهد الأمين لك ولروائعك طالما أنت تتركنى فى حالى ، إياك أن تخطىء وتحاول هذه اللعبة معى وإلا فقدتنى وأنت تعلم قيمة وجودى «هنالك» ، أنا المتفرج الوحيد لمحاولاتك المستمرة ، كلهم لهم أدوار يلعبونها بمهارة توجيهك يا رجل ، . . . إلا أنا ، حتى غريب أتقنت استدراجه عن طريق فيضان مشاعر صديقنا إبراهيم الطبيب . كم أحب النظر إلى ملامح هذا الإبراهيم ، ضخم بدائى فى كل شىء . . ملامحه وعواطفه وشعر صدره وكفه المفلطحه وأصابعه المتزاحمه ، لم أتوقع أبدا أن يتنازل غريب عن ذاته ولو ثانية واحدة فما بالك بنصف ساعة بالتمام ، هذه واحدة «لك» حسدتك عليها وكدت أصفق حينذاك ، حتى عبد السميع ظل مثل جبل الجليد حتى أغمدت فيه سيفك عن طريق كلمة من بسمة ، فانطلق صاروخ النار من داخل جبل الجليد

وقذف البركان بالحمم فى كل مكان ، ولولا أنى اشتركت فى الإمساك به بيدى هاتين ماصدقت ما حدث . أخاذك أحياناً رغم إعجابى بك ، وكثيراً ماحسدتك وحقدت عليك ، أولى بى أن أرفضك وأرفض تلاعبك بالبشر فى سبيل إرضاء فنك الذى تدعى أنه طباً ، أنا عجزت عن مثل هذا التلاعب بالكلمة واللون ولم تعجز أنت رغم أن مادتك من البشر الأحياء ، تستغرقك قدرتك الفنية فتتلاعب بمادتك الحية فى براعة ويسر وتتحدى عنادها وجمودها وتصنع بها الأفاعيل ولكنك لا تضيف إليها من عندك إلا ما بداخلها . « منه فيه » ، أنا فعلا أحسدك ، ولكننى أحس برغبة فى قتلك حين تبلغ بك النشوة الفنية أن تمحت بأزميلك فى براعم غضة لم تتفتح بعد فترغمها على التفتح قسراً ، كدت أصفعك وأنت تلغى ابتسامة « بسمة » الخجلة لتظهر ما وراءها من حزن مر ، دعها يا أخى تنسى بعض الوقت . أتذكر كيف هزمنى اللفظ واللون وأراقبك فى غيظ ، هلا علمتنى كيف أطوع مادتى ثانية لأرجع إلى قلمى ومرسمى ثم نكون أصدقاء بعد ذلك .. ولك على ألا أفشى سرك ، سوف يظل الناس يحسبون أنك طبيب عالم ، وسوف أكون تحت أمرك لأشاهد بعض مسرحياتك الحية ، ولكن ساعدنى الآن حتى أعاود الإمساك بالقلم أو بالريشة ولن أنسى لك فضلك أبداً ، النار المجنونة تحرقنى وأنا عاجز .. أخشى ألا تتركنى إلا رماداً لا يصلح لشىء ، أنا لا أصلح حتى لأتفه دور كومبارس فى لعبتك ، نظراتك المغرية المتفائلة تكاد تقسم لى أن هذا ممكن .. ولكنك لا تفعل شيئاً ، هل تريد إذلالى لأطلب أنا ؟ ... أنت تعلم أنى سأموت قبل أن أفعلها ، تتركنى الأسابيع الطوال أنتظر تعليقاً منك أو ألتقط مفتاحاً أعاود به فك الألغاز ولكنك أنانى بخيل ، لا .. لن أخضع لشروطك ولو انطبقت السماء على الأرض ، فلألزم مقعدى هذا ولو مدى الحياة دون أن أمكنك من أن أنطلق لحسابك أريد

أن أسألك لما ذا كل هذا ؟ كيف تستمر وعملك محدود أشل ؟ وفشلك معلن صريح ؟ .. ثم أنت تحاول بلا تراخ ؟ أنا أحسدك فعلا ...، بعد أن توقفت عن الرسم سألت نفسي « لما ذا » ؟ و «لمن» ؟ أما سألت نفسك ذات مرة « لما ذا » أو « لمن » ؟ تهرب وراء الإجابات التقليدية ، كدت أنفجر ضحكا لما سمعتك تجيب على ملكة غالى حين سألتك « لما ذا » «فقلت : لأكسب نقوداً » ، على من هذا الكلام يا رجل؟ هل هذا هو الطريق لكسب النقود حقاً وصدقاً ؟ تعالى أدلك على عمل أولى بذكائك وقدرتك على التعامل مع البشر الطيبين .. « مقاول عمال للتراحيل » ، وأراهنك أنك ستكسب بنصف جهدك وربع ذكائك عشر أضعاف ما تكسبه فى هذه اللعبة الخطرة ، التراحيل هذه الأيام تذهب إلى ليبيا وأبو ظبي يا غبي ، يا ويحك لو سألت نفسك صادقاً عن قيمة ما تفعل ، لو صدقت فى مواجهة هذا السؤال إذاً لتوقفت وأرحت نفسك وأرحتنا من الأمل ، ولكن إصرارك على تصوراتك أنك تعمل شيئاً ذا بال قد منحنى هذه الفرصة على الأقل للفرجة على مسرح حى ، فشكراً ، تعيش فى أتيليه ، تنحت فيه تجاعيد الألم والهم على وجوه ملساء من الخوف والهرب ، أزميلك يحفر فى الوجوه وأنت تتقن حَبْكَ نسب التضاريس فى الجلود الميتة ، ولكنها تدمى بالرغم من موتها بفعل أزميلك القاسى ، فتستمر فى جريمتك « الفنية » القذرة لتفجر من قطرات الدم المتناثرة طاقة هوجاء .. ثم .. ثم لا تدرى ولا يدرى صاحبها أين أو كيف يوجهها ؟ وتظل الطاقة تدفعهم لمواصلة الرقص على المسرح ، وعلى المسرح فقط . . كالطير المذبوح حتى ينهك فتهمد الحركة وتصمت إلى الأبد والدماء تتناثر من حولها فى كل مكان . . ما أبشع هذا وأروعه ، !! يقول غريب عنك أنك نصاب مجنون ولكن حاستى الفنية تعجب بك على شرط ألا تقرب منى ، الخيوط بين أصابعك والمسرح بلا نص ، والهدف غامض، والجمهور هو أنا ،



کمال نعمان

أنا وحدى وأحيانا غريب ، وأنت لاتكف عن المحاولة والسعى إلى لاشىء ، أو لشىء تتصوره أنت وحدك ، فكرت أحيانا أن هذا هو معنى حياتك ، ولكن هل فكرت أنت ماذا تفعل لهم ؟ عذرك أنهم يجيئون بأنفسهم ، بمحض اختيارهم ، ولذلك فهم يتحملون مسئوليتهم ولكنك تنسى أنك مازلت تكتب على لافتتك لفظ « عيادة » لا « أتيليه » ولا « مسرح تجريبى » أنت تشارك فى الخدعة ، فلا توهم نفسك أنهم أحرار فى اختيارهم . . جاؤوك على أنك طبيب فأعلن حقيقة موقفك — كفنان من أغرب نوع — ثم تحدث بعد ذلك عن الاختيار ، ورغم ذلك فأنا لا أستطيع وقف الإعجاب بك فى كل حال ، ترى ماذا يكون الحال لو حاولت الاقتراب منى مثلما تفعل بالآخرين ؟ ، كل ما يخطر لى الآن هو أنى سأخدعك أول مرة ثم أنصرف بهدوء إلى غير رجعة .

٢ — تنصرف إلى أين

١ — إلى قلمى وفرشاتى

٢ — أين هما ؟

١ — سأسترجعهما فى هذا المكان

٢ — فى السر ؟ إن شاء الله ؟

١ — ليكن ، ولكنى لن أعرض وجهى وروحى لأزميله ينحته كما يتصور .

٢ — ولماذا لم تسترجعهما حتى الآن ؟

١ — أتمتع بالفرجة طول الوقت

٢ — ولكنك تقول أنك ستمضى بانتهاء الفرجة

١ — خوفا من أن تنتهز أنت الفرصة فتنقض علىّ

٢ — لى طريقتى الخاصة فى استرداد قدرتى ومعاودة الحياة

١ — فلماذا أنت هنا

٢ — هذا جزء من طريقتى الخاصة . . ولن أكشف ورقى

١ — نسيت أنك هنا لأن طريقتك الخاصة عاجزة

٢ — . . عجز مؤقت أخدعك به . . أنا لم آخذ فرصتى بعد

١ — تتنبأ بالغيب يافاشل . . ؟

٢ — لم أفشل قبل ذلك . . لأنى لم أحاول بعد

١ — ولكنك فاشل الآن

٢ — تتحدانى وكأنك تشمت فىّ

١ — من أنت ؟

٢ — أنا أنت

١ — الله يخرب بيتك

٢ — بيتى بيتك ، وهذا الجسد المسكين تحت رحمتنا نحن الأثنين

١ — عبث خيالات . .

٢ — ليكن ولكننى أمنعك وحدك بعد أن سرقتنى عن العمل ، هذه حقيقة وليست وهما

١ — لا تستطيع

٢ — جرب

يتحدانى بشكل لا يقبل التسويف ، سوف أبدأ وأكمل اللوحة بلا إبطاء ، ولكن ما هذا الذى يجرى داخلى ، هل هو هاتف مثل الهواتف العابرة ، أهو كيان قائم كما يحاول هذا الطبيب أن يصوره ويظهره ويشرحه بشكل مجسد وواقع ، أحياناً أكاد أطلب أن ألعب دوراً مثلما يلعبون بدلا من هذا الديالوج الداخلى المستمر . ولكنى أعلم أنى سأتورط فى المشاركة عند أول إعلان عما بداخلى ، وأنا حريص على الفرجة أطول وقت ممكن . تعلمت الحديث مع داخلى دون خوف أو اتهام بالجنون ، وسوف أتعلم كيف أصلح ذات بينى ، ثم أنصرف فى أمان ولا أحد رأى ولا أحد درى

٢ — لكنك عاجز الآن ، وعلى طول

١ — ملعون أبوك

— ٣ —

حاولت فى تحدٍّ خطير .. ولكنى عجزت عن إتمام اللوحة تماماً فأمسكت بالقلم أستعيد الألفاظ ، أصالحها وأتوسل إليها ، فأبى القلم وأخرج أشياء أقرب إلى السلطة المبعثرة ، خجلت من نفسى وأنا أضحك على أحدث طريقة لكتابة الشعر ، كلام مضحك لو اضطلع عليه أحد لتصور أنى أبتدع أسلوباً فريداً فى عرض فن تشكيلى جديد يختلط فيه اللفظ باللون هو العجز ذاته فى أكثر صوره تشويها .

قلت لا داعى للشعر ولأكتب رواية ، هذه الرواية التى أعيش مادتها الحية جاهزة صابحة ، كل التفاصيل فى متناول يدى ، ثَقُلَ القلم فى يدى وكأنه من رصاص مكثف ، نظرت إلى الصفحة البيضاء فى ألم ممض ، هذه صحرائى

القاحلة ، وهذه حريتي الحقيقية دون سجن الحرف أو اللون أو الناس ، صحراء بلا حدود وفراغ بلا ألوان، هل هذه هي الحرية المطلقة أو هو الضياع الحقيقي.

— المطلق ؟ هل حصلت عليه فعلا يا « مختار » ؟

— نعم .. بلا أدنى شك .. والعقبى لك يا كمال .. أنت أقربهم إلي

— أتأكد الآن من عبث الالتزام وخداعه

— أنا حر تماماً .. تماما ..

— بلا شكل ولا أبعاد ولا وظيفة ، ولا هدف ؟!

— تلقائيتي تعطيني ملامحي

— من أين تعيش ؟

— عندي ما يكفيني

— وثورتك الداخلية ، أين تذهب نارك ؟

— ما ذا ؟

— ثورتك الداخلية

— الثورة ضد ما ذا ؟

— ضد الأسوار ، والعوائق ، والخوف والوحدة

— ألغيت الأسوار والعوائق ، بلا خوف ولا وحدة

— وما ذا تفعل بالألم ؟

— إذا لم تعد تحتاج لشيء فلا ألم ولا ثورة

— ألغيتَ احتياجك يا مختار ؟

— بل استغنيت عنه

- يا سبحان الله

- هذا ما حدث

- ولكنك ترسل إشعاعاتك الجنسية تثيرهن بلا تمييز

- هذا هو اختيارهن ، وهذه هي حريتي

- وهو احتياجك أيضاً

- هو وجودى التلقائى بلا تحفظات

- ثم ما ذا ؟

- لا يوجد فى حيلتى « ثم » ولا حتى « ما ذا » ؟

- يا نهار أسود

- هذا أنا

- وهل يمكن تعميم ذلك على كل الناس ؟

- لا يهمنى إلا نفسى

- ولما ذا أنت هنا ؟

- أتأكد من طريقى

- إذاً . . فأنت تشك فيه

- لن أغيره حتى ولو كان هو الهلاك نفسه

- تشك فيه ؟

- ليكن

- إحذر يا مختار

- احتياجك أن تنصحنى لن يجعلنى أسمع نصحك

— أحسدك أحياناً

— لم أصل إلى هذا بالسهل

لا أصدق كل هذا ، فلو كان الأمر كذلك فلما ذا يحضر فعلا ؟ شيء ما يطل من داخله يقول لا تصـدقني. فلا حرية بلا قيود ؟ أنهى القضية قبل أن تبدأ ، وصدق أنه تخلى عن كل شيء ، يعلن إقباله على الحياة بلا شروط، و« غريب » يعلن إدباره عنها بلا أمل ، والإثنان يشبهان بعضهما البعض بشـكل ما . . . تجنبا المعركة بذكاء منطقي ، أما أنا فإني يئست من الفن ولم أحصل على الحرية ، أشاهد صراع ملـكة وغالى وأشترك فيه أحياناً بحق الزمالة القديمة وأتعجب من العمى الـكامل تحت ستار الثورية أو الإخلاص الزوجي ، لا شيء يغرى بحل بديل ، لما ذا جاء هنا دون غيرهما يؤكدون منطقهما الهارب ، لـماذا لم يأت هنـــا ثوار حقيقيون يقنعوني بإمكانية الحياة ، ولـكننا في الصفوف الخلفيه وهذا المـكان لمن تركه القطار .. أما من في المقدمة فلا نعرف عنهم شيئاً ، ولـكن هل يوجد أحد في المقدمة أو يخدع الجميع بعضهم بعضـاً ؟ وجودكما بالذات يا ملـكة ويا غالى يقلّل عليّ احتمال أن ادعاء الثورة هو الحل ، هربت من التظاهر بالثورية إلى إعـلان رؤيتى بالقلم والريشة فإذا بى أنتهى إلى هذا الموقف الذى أكاد أعلن فيه اليأس مثل « غريب » وأكثر ، يبدو لى أن الدواء الناجح لمرارة اليأس هو خدر الاستسلام ؛ هذا هو سر توقف غريب وسعادة مختـــار المزعومة ، أما أنا فالمرارة لم تصل إلى درجة الجزع حتى توقفني تماماً ، وتعاطى خدر الاستسلام لا يوهمنى بالسعادة تحت شعارات الحرية المطلقة ، مازلت أعيش مرارة الرؤية وألم العجز ، أحترق بنـــار ثورتى بعد أن صدر من داخلي قرار « وقفى عن العمل » .

وبالرغم من كل شيء فإن هذه المسرحية الحية ما زالت رائعة تبهرني ، لو قدر لي في يوم من الأيام أن أكتب ، فسوف أكتبها بالتفصيل ، يخطر على بالي أحياناً أن أحضر جهاز تسجيل أحتفظ عليه بكل ما يجري ، سوف أكتفي بالتسجيل الدائر داخلي ، المفاجآت هنا رائعة تهز كياني وتزودني بثروة فنية لا مثيل لها ، لم أكن أتصور أن غريباً المتحفز الحذر يمكن أن يسمح لنفسه بهذا الاستسلام ولو جزء من لحظة ، ولكنه استطاع ـ بملاحقة إبراهيم وفي حضن المجموعة ـ أن يتخلى ساعة عن يأسه وعدمه وسخريته ، كان رائعاً مرعباً ماحدث ، وكأن الدنيا يمكن أن تتغير في لحظات ، ولكنه سرعان ما عاد أكثر يأساً وشكاً وابتعاداً ، لم يبق من التجربة إلا نظراته الملهوفة إلى إبراهيم وإليّ أحياناً ، حاول أن يفتح معي حديثاً يشككني به فيما يجري ولم يدر أني أنظر إلى كل شيء بمنظوري الخاص وإن رفضي أكبر من رفضه ألف مرة ؟ لم أفهمه حين تكلم معي عن إحساسه الفج الذي لا يميز رغم يأسه وضياعه ، دعاني إلى بيته ، وأنا أفكر جاداً في زيارته .

— ٤ —

التراب والظلام والكتب ، بيت هذا أو كهف أثري ؟

ـــ نفتح النافذة قليلا ياغريب

ـــ لماذا ؟

ـــ ألا تحب النور ؟

ـــ هذا الضوء أقرب إلى الواقع ، ومع ذلك كما تشاء فأنا اليوم ملكك

ـــ ماذا تعني ؟

ـــ أحبك يا كمال . . هذا هو

ـــ شكراً ، ولكن نظراتك غريبة ولهجتك لم أتعودها

ـــ هل تعرف الحب الذى أتحدث عنه ؟

ـــ كلكم تتحدثون عن الحب بمعان جديدة وخاصة جداً

ـــ ... أشعر بالسعادة فعلا بجوارك ..

ـــ الحمد لله أنى أسمعك تستعمل كلمة السعادة لأول مرة

ـــ أنت تفهمنى وتقدر يأسى وحذرى أمامهم هناك ، أما هنا . . .

ـــ كنت أود أن أفهمك ولكنى الآن متردد تماماً

ـــ منذ ذلك اليوم ، يوم أن خرجت أتجول من سجنى بينكم وأنا أحاول أن أطفىء النار التى اشتعلت ، وقد نجحت فى إخماد كل الجمرات التى نفختم فيها إلا جمرة واحدة تدفعنى إليك وإلى إبراهيم

ـــ ... أنا أثق فى إبراهيم فعلا

ـــ ولكنى قدرت أنه لن يفهم مشاعرى هذه

ـــ لعلك اكتشفت الآن أنى مثله لا أكاد أفهم ما تقصد أو تريد

ـــ ترددت ألف مرة قبل أن أفاتحك بحبى

ـــ ... حبك هذا ، « هكذا » يربكنى

ـــ أريد أن تجرب السعادة معى فالصدق هنا أضمن ، أريد أن أقدم لك شيئاً .

طرق الباب طرقة منغمة فارتاع « غريب » وانطفأ وجهه وصمت فيما يشبه اليأس ثم التفت برأسه سائلا . . وأنا ما زلت مرتبكا . :

ـــ هل أفتح ؟

ـــ لم لا . . ؟ هذا شأنك

ــ إنها « صفية » أعرف طريقتها ، هل تريدنى أن أفتح ؟

ــ تتحدث عنها وكأنى أعرفها ، هذا شأنك .. ياغريب .. تفتح ، لا تفتح ، أنت حر

قام متثاقلا يجر خطاه «دون أن أفهم ماذا يريد على وجه التحديد» على أنى كنت قد بدأت أحس برائحة الخطر من خلال نظراته الجائعة المستجدية ، أواجه تحديا لابد وأن أكسره ، دخلت صفيه تطرقع باللبانه ، قدّمنى «غريب» لها على أننا أصدقاء .

قالت وهى ماضية إلى الحجرة الداخلية وكأنها تسير فى بيتها ونحن ضيوف عليها .

ــ نادراً ما أرى عندك أصدقاء ياغريب وهذا مايشجعنى على الحضور دون إنذار ، لم أقابل عندك أحداً منذ لقائى بجارك عبد السلام الذى كان يبحث عن الله وكأنه نسيه عندك بالأمس ، كان دمه خفيفاً وإن كان لم يحبنى كما يجب .

استمرت فى حديثها وصوتها يعلو كلما ابتعدت حتى اختفت مع صوتها قال غريب فى ود :

ــ صديقه حقيقية ، أصدق من شلة المخدوعين الذين يتلمسون مبرراً لعجزهم عند صاحبنا الطبيب

ــ حضورها أتاح لى الفرصة لأعرفك أكثر

ــ .. بل هى فرصة لتجهل مالى أكثر ..

ــ .. قل لى من صديقك .. أقل لك من أنت

ــ ليكن .. ، هى إنسانة بحق ، قلبها كبير وتحب كل الناس ، هذه هى مهنتها الشريفة بلا أسماء طبية زائفه .

ـــ كنت أحسبك لاتهتم بهذه الأشياء

ـــ . . لى طريقتى الخاصة ، ولكنى لا أجرؤ على الحديث عنها .

ـــ تبدو صاحبتك رقيقة رغم فجورها المصطنع .

ـــ أنت لاتفهمنى ، لعلك تريدها الآن . . هى لك إن شئت .

ـــ شهيتى ضعفت هذه الأيام ، وإن كان حب المغامرة يتحرك فى داخلى من جديد .

ـــ ليس فى الأمر مغامرة ، المغامرة هى أن تستمر فى شىء ، أما هذه العلاقات المؤقته فهى من أصدق العلاقات الموجودة فى عصرنا المظلم الكئيب

ـــ ألا تجد فى ذلك جرحا لإحساسك

ـــ يسعدنى أن تسعد معها ، بل قد يعوضنى فى خيبة أملى بشكل ما . .

ـــ غريب . . مازلت لا أفهمك

ـــ ما عليك ، هذا شأنى وأنا أعرف طريقى .

مازلت أبعد فكرة الشذوذ متى خطرت ببالى رغم وضوح الرؤية بعد هذا النقاش الذى اقترب من الصراحة المباشرة ، حضرت صفية ففرحت حتى لا أتمادى فى الشك ، ربما استغرقتنى المغامرة الجديدة ، كانت تلبس إحدى بيجاماته المخططة فبدت شهية فعلا دون تصنع ، تركتنا غريب فى هدوء سعيد غامض .

ـــ اسمى كال

ـــ ذاكرتى قوية . . لا أستعملها فى الكلام الفارغ

ـــ ماذا تعنين ؟

ـــ مازلت أذكر عبد السلام جاره ، وأذكر تساؤلاته حتى الآن ، هل تعرفه ؟

ـــ نعم

ـــ أمره عجيب هذا الرجل ـ هل أنت مثله ؟

ـــ هناك تشابه دائما ، فى بعض الأمور

ـــ أحب مهنتى هذه لأنى أطّلع من خلالها على أشـياء تدهشنى . .

ـــ . . . صفية ! فيلسوفة أنت ؟

ـــ فَيْ . . ماذا ؟ اسم الله عليك

ـــ حدثينى

ـــ ياعينى . . أمر الرجال هذه الأيام عجيب ، يحلون شئون السكون من فوق إلى تحت مع أن الطريق السليم هو البدء من تحت لفوق ، ويبدو أن هذه الشقلبة المزعجة هى التى أودت بغريب فى داهية

ـــ أية داهية . .

ـــ ماعليك ، لن أتركه لشقائه ولسوف يسترجع فحولته . . مهما طال الزمن .. أنا وراءه والزمن طويل

ـــ صادقة أنت . .

ـــ . . إنى أحبه . .

ـــ وهو . . هل يحبك ؟

ـــ طبعاً

ـــ آسف لاجترائى على التواجد بعد ذلك

ــ عندك .. إكرام الضيف واجب ، لاتفعل مثل جاره «عبد السلام» الباحث عن الله فى صرة السكون

ــ وغريب ؟

ــ غريب يتشاجر معى إذا فشلت مع ضيوفه ، يقول إن فشلى يضاعف فشـــله .

ــ الأمور تعقدت

ــ بل هى أبسط مما تتصور ، هيا بنا

ــ خجلت من رغبتى رغم أنها موجودة

ــ لاتكن مثل العيال المبتدئين . .

— ٥ —

انقطع غريب عن الحضور بعد عدة مرات وحسنا فعل ، لم يفاتحنى بعد الزيارة فيما حدث ، ولم يعاود دعوتى أو الحديث معى حتى أحسست بعبء حقيقى من موقفه هذا ، كان يتعمد الجلوس بحيث لاتلتقى عيوننا أبدا ، ذهب يائسا منهكا خائفا وحيدا ، لكننى متأكد أنه بابتعاده سوف يجمع شتات نفسه كما اختار ورضى ، تجربتى مع صفيه أثارت فىّ مشاعر جديدة لم أعهدها من قبل فى الاتصال الجنسى ، كانت صـــادقة واضحة طيبة ، أصرت على ألا تعطينى عنوانها رغم إلحاحى ، فكرت فى الذهاب إلى غريب لعـــلى أقابلها مصادفة ولكننى خفت أن يسىء فهم ذهابى لأسباب أخرى تتعلق برغبته فىّ شـــخصيا ، ثم إنها لاتذهب هناك إلا بمحض الصدفة . أعادتنى تجربتى معها من أجازتى العاطفية وبدأت حواسى تتحرك فى اتجاه الجنس لآخر وإن كانت بشكل مختلف ، نجوى تتفتح كل يوم

أكثر وأكثر ، وفردوس تذكرنى بالحريم المتخصص لشئون السرير حتى أكتم ضحكى وهى تتحدث عن التطور وأحياناً ما تردد كلمة الثورة وكأنها تتكلم عن السكر والليمون اللازمين لصنع الحلاوة إياها ، أما « بسمة » فإنى لا اراها إلا ويضع خيالى فى يدها كوب شاى باللبن ، أما إصلاح فاضل .. تلميذة شيخنا المجتهدة فقد استحوذت على فكرى وحسى أغلب الوقت منذ لقائى « بصفية » . دائمة الصمت والنظر والتأمل ، جادة الاستجابة إذا أشار لها أستاذها بالمشاركة ، تلميذة ومريدة ومساعدة من الدرجة الأولى ، أحس أنها تقدس أستاذها رغم اختلافها عنه وشجارها معه فى كثير من الأحيان ، لماذا تذكرنى بصفية باستمرار ، ترى هل هى السمرة أو الملامح المحدودة أم شىء آخر ، ترى هل عندها قدرة عطاء صفية ، إنهما تشتركان فى البساطة والوضوح ، صفية تبيع بضاعتها بشجاعة نادرة ، ولكن ما هى بضاعة إصلاح على وجه التحديد ؟

— طبيبة حضرتك ؟

— نعم

— تأخر الأستاذ ، فهل تسمحين أن نتبادل الحديث حتى يحضر

— طبعاً

— أبحث عن الطب فيما يجرى فلا أرى إلا فناً مسرحياً من الدرجة الأولى .

— الطب فن على كل حال

— نعم ؟ . . ولكن

— المناقشات النظرية تبعدك عن ذاتك

— أشاهد أستاذك وهو يشرّح اللحم الحى وأحس أنى أمام نحات عظيم ...



إصلاح فاضل

— ريشتك الساخرة تعطلك

— نعم ؟ . . نعم ؟

— أتابع فرجتك وسخريتك طول الوقت

— الرد خالص . . أما أيضاً لى القدرة على متابعة ما يجرى فى الداخل

— أعرف ذلك

— أرفض أن أكون صخرة فى أتيليه جاهزة للتشكيل على مزاج طبيب قلق وحيد

— هذا يتوقف على التزام الطبيب . . وليس فقط على مزاجه .

— وعلى التزامك أنت ؟

— والتزامى . . ؟

— نعم ؟ هل لى أن أسأل ما هو ؟

— عالم عادل سعيد

— هذا حلم . . رغم أن عملكم الأصلى على ما أظن هو علاج الإفراط فى الأحلام

— لا أحلم إلا بقدر ما أستطيع ، وإن كان الأستاذ يقول إنى أبالغ فى أحلامى وفى تقدير استطاعتى وهذا من أهم نقاط الخلاف بيننا .

— أستاذك غامض ومتناقض ، ولكنه ، ولكنه فنان ماهر

— يحاول أن يجذب أقدامى إلى الأرض باستمرار وحين أقاومه أكاد أتمزق من قسوة واقعيته .

— تكمليه فى أغلب الأحيان

— فتشاجر كثيراً

— وتحبينه ؟

— أستاذى

— بل أكثر

— أحبه . . وأحبك

— . . . على ما قُسم

— أعنى ما أقول

— والباقين ؟

— والباقين كذلك

— سبيل للعطاشى ؟ لعل هذا هو وجه الشبه بينك وبين صفيه

— من صفيه ؟

— صديقة قابلتها عند غريب ، بضاعتها جاهزة ، وذاكرتها ضعيفة ، ولا تحب كثرة الكلام .

— كلامك يغرينى باحترامها

— لا أظن . . فصدقها لا بد وأن يرعبك

— لم تعرف ألمها الحقيقى

— هل تعرفينها ؟

— أراها فى عينيك وأنت تتحدث

— جسدها أصدق من ألفاظكم

ـــ مجرد صرخة احتجاج على حساب وجودها

ـــ . . صدقها يوقظ إحساس أى ميت

ـــ لكنه لا يستمر . . يموت فوراً فى ألم أكبر

ـــ تلميذة مجتهدة أنت . . تعيدين كلام أستاذك

ـــ . . . لا ينبغى الكلام إلا إذا نبع من الداخل . . حتى لو قاله آخر

* * *

هذه المرأة هى الأخرى حكمتها مخيفة ، وعالمها الفاضل مرعب ، تتحدث عن ألم صفية وتنسى ألمها هى ، سأحافظ على علاقتى بها عن بعد ، ملكة وغالى لا يتركانى فى حالى ، غالى يتهم ملكة بكذب ادعاءاتها الثورية ، وفى نفس الوقت يحاول أن يقنعنى بالعودة إلى هذه الشعارات ، ثم يرجع إلى حضنها بعد كل جولة ، حاولت أن أقنعها أن تركز على المحافظة على بيتها ، وكنت قاسياً فى أغلب الأحوال ولكن يبدو أنها أذكى منى ، يرى أن هذه المبادىء هى السبيل الأقرب إليه ، زمان كان الطريق إلى قلب الرجل هو معدته فأصبح الطريق إليه مجلات الحائط وتبادل نياشين الثقافة ، سمعتها مرة تشير إلى عنوان مقال فلسفى بطريقة ذكرتنى بقيس وهو يشير إلى القمر حتى تراه ليلى ، الصور تختلف . . والمصيبة واحدة . . والعاقبة فى المسرات ، أين أنت يا صفية يا أصدق الجميع ، لو عرفك غالى لغير رأيه فى المبادىء والنساء ، يحاول غالى أن يسترجعنى بأن يذكرنى بفشلى فيما ذهبت إليه ، كنت قد تركتهم معلناً أن الفن هو الحل الحقيقى الذى سيوقظ الناس دون كذب ، وها أنذا أحس برائحة الشماتة وهو يتابع توقفى وعجزى

ـــ الفن .. ليس هو الحل . . هـل رأيت كيف توقفت حين واجهت حقيقة هربك

ـــ ولـكنه قد يمهد للحل يا غالى

ـــ إذاً لمـا ذا توقفت ؟

ـــ أعيـد النظر

ـــ لعلك تفـكر فى الرجوع إلى النضال مع الرجال

ـــ غالى . . تذكر ما تقوله لزوجتك ليـــل نهار ولا تعيد علىّ ما لا تعتقده .

ـــ فشل حلك الفنى يجعلنى أتمسك بالحل الواقعى مهما كانت عيوبه ، وأنت تعرف أنى غير مقتنع بما أقوله للـكه . . أنا أحمى نفسى من الصوت العالى . . ولـكنى مُصِرّ

ـــ إصرارك ياغالى لا يطمئننى . . قد يكون هرباً من المواجهة الحقيقية

ـــ والفن أيضاً هرب

ـــ الفن لازم لصنع الثورة

ـــ ولـكنه قد يؤجلها أو يجهضها

ـــ ... بل يمهد لها ويرسمها

ـــ فلما ذا توقفت ؟ ، إن توقفك هذا يدل على أن الفن لم يستوعب طاقتك ، الفن رمز بديل عن الحياة ، وهو يفرغ الطاقة فى نشاط جانبى . . فهو مرحلة لا بد أن نتخطاها .

ـــ أين تريدنى أن أفرغ طاقتى إذاً ؟ صفية تعرف الجواب أكثر منك ومنى

ـــ من صفية ؟

ـــ لا عليك .. ما ذا تقترح ؟

ـــ الثورة

ـــ بلا ثوار

ـــ تتخلى عن ثوريتك ثم تسأل فى سخرية عن الثوار

ـــ كنت أتصور انى أساهم فى صناعتهم بالفن

ـــ وهأنت قد فشلت

ـــ فى إجازة يا أخى

ـــ ولكن لها معنى . . وخاصة إذا طالت

ـــ إذاً كيف تصنع الثوار ؟

ـــ بالنضال

ـــ اسمع يا غالى ، تذكر ما تقوله للسكة

ـــ أحاول أن أقنع نفسى من خلال إقناعك

ـــ أنا لم أذهب عنكم وعن المكافحين المزعومين إلا حين تأكدت أنها لعبة مضحكة نهرب فيها من ذواتنا . .

ـــ نبدأها من جديد

ـــ أهجر الفن بحثاً عن شىء ليس له وجود ؟

ـــ نصنعه سويا .

— نبدأ من جديد ؟

— مثلما يتصور هـــــــذا الطبيب أنه يفعل شيئاً وهو لا يضحك إلا على نفسه

— وتتكرر الأخطاء الماضية بحذافيرها

— لا تيأس مثل غريب

— لست يائساً ولكنى أتابع ما يجرى هنا وما تتكشف عنه النفوس ، جزع بشع ، لا أحد « يريد » أو « يستطيع » أن يقترب من نفسه لتحمل مسئوليته ومسئولية الآخرين

— هنا نوع خاص من البشر ، مرضى يحضرون للعلاج

— لا أحلم بمصنع للثوار أفضل من هذا ، ومع ذلك فها أنت ترى صعوبة العملية ياغالى

— حل فردى بشع

— الثورة هى إطلاق الإحساس الصادق على أرض الواقع ، دون هرب أو التواء ، وأظن أن بعض من هذا يجرى هنا

— بدأت تؤمن بالعلاج ؟ مهرب فردى جديد

— والحل الجماعى المطروح إنما يصلح وأنتم بعيدون عن المسرح لكن ياويل من يلبس «المزيكة» . .

* * *

غالى يحاول أن يستيقظ ولكن ملكة تقف له دائماً بالمرصاد ، خوفها

يحيطه من كل جانب وتصر على أن تقطع أى نقاش جانبى ليست هى طرفا فيه ، يأسه يتزايد وتسليمه أصبح وشيكا .

* * *

— يبدو أنه لا حل يا كال

— نهتف بحياة غريب إذاً ، ونفصبه زعيما لفرقة العدم

— أحيانا يخيل إلى أن قوانين الدنيا ستختل لو وجدنا الحل الحقيقى

— سر الحياة أنه ليس هناك حل

— لو سمعتنا ملكة لأغمى عليها جزعا وكدا

— ولكن أنا . . ماذا أفعل لو لم أرجع لفنى ، قد ترجع أنت للملكة أما أنا فأين أذهب

— على فكرة ملكة حامل

— هكذا تعودان إلى الصف ياباشوات ، وتعيشان فى التبات والنبات ، وتخلفان « صبيان وبنات »

— فكرت فيك وأنا أعاود نشاطى الأزرق مع لابسى القمصان الموسيقيين العرب على أنغام صديقنا الشيخ موضة هذه الأيام .

— تنصحنى بالبحث عن حل على أنغام الموسيقى فى جو من الدخان الغامض .

— أنت فنان ، وإن كان ثمة نهاية فلتكن سرية ولذيذة

— هرب بشع

ـــ لافرق بين الهرب الرشيق والهرب البشع

* * *

يبدو أن استمرارى فى الذهاب سيصبح مبررا لتوقفى النهائى عن كل نشاط ، شيخ الخرجين يدعو إلى مواجهة مرة قاسية فأزداد يقينا أن الفن فى هذه المرحلة يبعدنى عن الناس ، ولكن الاقتراب من الناس هكذا مغامرة غير محسوبة ، لو كان كل الناس مثل صفية لهان الأمر ، ولكن من يدرينى كيف تتغير لو استمرت علاقتها بواحد فترة كافية ؟ إصلاح تزعم أن ألمها هائل ، وأن صدقها لا يفيد ، فما الذى يفيد إذاً ياحضرة التلميذه المجتهدة ، لم تعطى أى ضمان . . لا أنت ـ رغم أنى أحبك ـ ولا أستاذك ، رغم أنى أنحنى لمهارته ولعبه بالبيضة والحجر

* * *

* * *

انقطعت عن الذهاب من شهور وقررت أن أواجه مصيرى دون مسكنات أو خداع ، وليكن ما يكون

أندم أشد الندم على ذهابى هناك من أصله . . علمت وتعلمت . . ورأيت وفهمت وأحسست . . ولكن ياويحى . . كل ذلك كان أكثر مما ينبغى . . ، لكن ماذا ينبغى ؟ لم أعد أستطيع أن أتصنع الحيرة أو أتمتع بالضياع . . فما بالك لو أكملت الرؤية فعرفت كل شىء ؟ . . ياخبر أسود . . كل شىء . . إذاً سيموت فى كل شىء تحت دعوى الصحة « آخر موديل » كان داخلى بركان هائج لكنى لم أكن أسمح له بأن يرى الخارج إلا من

خلال ثقب إبرة . . ولكنى سمحت لنفسى بأن أفتح هذا الثقب ليصبح بوابة تنفذ منها الحيتان والتماسيح فى تصوير بطىء سمج ، كيف أخرج فنّا مثل زمان وأنا أعرف أن ردا بسيطا جاهزا يتراءى لى عن قرب ، مقلب إبن كلب . . رأيت الوضوح واليقين فى متناول يدى ، فكيف أدعى السير فى متاهات علامات الاستفهام التى هى وقود الفن وسره ؟ الله يخرب بيتك أيها الحرفى المجرم . . النحت فى كيان البشر فاق كل محاولاتى السابقة . . هل أمتهن مهنتك ؟ هل هذا هو السبيل الوحيد الباقى أمامى ؟ . . ما فائدة الرؤية إن كانت تزيدنى عجزاً ؟ كيف أغلق الآن هذه البوابة المفتوحة على مصراعيها ؟

•••

لا أومن — ياسيدنا الشيخ — بحل تعرضه من عندك ، وأظنك لاتعرفه وليس لدى شخصيا حل ولا أستطيع أن أعايش الحيرة القديمة بعدما رأيت . . فسرعان ما تقفز لى أجوبتك المسطحة السخيفة كلما مرت برأسى الأسئلة التى كانت تعطى لحياتى معنى . .

هل أرجع اليك أكمل مابدأت . . ؟

ألعن اليوم الذى رأيت فيه وجهك . .

لا يا إصلاح يا فاضل . . لن أرجع خوفا . . خوفا منك أنت بالذات

خربت بيتى يارجل

ماذا أفعل الآن ؟

عبد السميع الأشرم

— ١ —

سألت الممرض وأنا خارج هذه المرة

ـــ هل أحضر أيضا المرة القادمة ؟

ـــ مثلما قال الدكتور

ـــ لم يقل شيئا

ـــ تحضر حتى يقول

ـــ فى نفس الميعاد ؟

ـــ فى نفس الميعاد

ـــ حاضر . .

مادخل «اضطراب أمعائى» بما يجرى هنا وما يقال ؟ لولا أن الطبيب الباطنى هو الذى نصحنى بالحضور لانصرفت من أول مرة ، هذه زحمة الفاظ ومشاعر وتمثيل وأنا فيها مثل الأطرش فى الزفة لا يصل إلىّ إلا هرجلة متداخلة ، أنتظر أن يأتى علىّ الدور وهو لا يأتى ابدا ، ولكنى أحضر باستمرار ، وفى نفس الميعاد حسب تعليمات الممرض ، العمر يتسرب من بين يدى وأنا أريد أن أكمل نصف دينى وأتزوج ، وأمعائى تثور علىّ أكثر كلما فكرت فى الزواج ، عجز الأطباء الباطنيين عن مداواتها حتى أرسلونى إلى هنا ولا أعرف ماذا سيصيبنى من هذا الذى يجرى ، أواظب على الحضور فى انتظار تعليمات الطبيب ، وفوق كل ذى علم عليم ، الوحيد الذى يمكن

أن أفتح له قلبى هو إبراهيم الطيب ، أنا مؤمن أن لله حكمة فى كل هذا ، والمؤمن مصاب ، وابراهيم يذكر الإيمان فى حديثه بين الحين والحين ، وهو ابن حلال ، ولعله يعرف أكثر مما يقول .

ـ سمعتك مرة تقول يا إبراهيم إن الإيمان هو الحل

ـ بلا شك

ـ ولكنى أظن أن ما يجرى هنا ليس له علاقة بالدين

ـ أى دين ؟

ـ إن الدين عند الله الاسلام . . هل تشك فى هذا ؟

ـ الاسلام هو دين الفطرة .

ـ ما لِما يجرى هنا والاسلام ؟

ـ هنا نبحث عن أصول الفطرة السليمة .

ـ لم ألاحظ أن أحدا يبحث عن ذلك أمامى

ـ لا تريد أن تلاحظ أى شىء يا عبد السميع ، أنت تنتظر الوحى من الطبيب

ـ أنا مؤمن ، ومع ذلك فإن أمعائى تؤلمنى وتنغص علىّ عيشتى ، وتحول دون أى متعة ، وتمنعنى حتى عن الزواج .

ـ لستَ مؤمنا يا عبد السميع

ـ استغفر الله ، من كفّر مسلم فهو كافر

ـ لست أكفرك ، ربما أكفر أمعائك

— لا تسخر منى ، أنا جاد وأنت تعلم مابى ، كيف تكون الأمعاء كافرة يا أخى بالله عليك ؟

— كل ما خالف الفطرة والعمل المتسق هو كفر بشكل أو بآخر .

— هذه مسخرة ، المرض كفر ؟

ما ذا يقول هذا الرجل ؟ حسبته جاداً فإذا به يتندر على دين الله ، — أستغفرك ربى وأتوب إليك ، ما الذى أوقعنى هنا ؟ وما الذى يمنعنى من التوقف عن المجىء ما دامت أمعائى لا تتحسن وما دام الطبيب لا يسأل فى ؟ من أسأل يا ترى ، وهل أستشير طبيباً آخر ؟ ، أحياناً يخيل إلى أن أمعائى تتكلم بهذا الألم فإذا سكتت أحسست أن دوامة تدور فى عقلى حتى أكاد أفقد توازنى ، لا بد أن هناك علاقة ما بينهما وربما لهذا قد رضيت أن أحضر هنا رغم عدم اقتناعى الظاهرى ، شىء ما يدفعنى للحضور غير أمعائى ، أحس بالرغم من كل شىء أن لى دوراً آخر فى هذه الحياة لا يحول بينى وبينه إلا هذا الألم ومرضى المستمر ، أعتقد أحياناً أن هذا الدور هو « الزواج » لأزيد من ذرية المسلمين حتى يتباهى بهم الرسول صلوات الله عليه يوم القيامة ، ولكن من يضمن أن ينشأوا مسلمين والفساد ضارب أطنابه فى كل مكان ، إذاً لا بد أن يزول الفساد ، لعل دورى هنا هو أن أساهم فى أن يزول الفساد حتى ينشأ أولادى مسلمين ، ولكن كيف ؟ لا بد من أن يخبرنى الطبيب كيف أتخلص من هذه الآلام حتى أتفرغ لتنفيذ ما أعتقده ، لقد وجدت طريقاً لنهاية حيرتى ولم يبق إلا أن أخرجه إلى حيز التنفيذ ، ولكن أمعائى تمنعنى من الزواج والتنفيذ ، وليس أمامى إلا الصبر ، وحتى المرض يردّ على أسئلتى بنفس الطريقة الغامضة .

— لم يقل لى الطبيب شيئاً هذه المرة

— سوف يقول عند ما تحين الفرصة .

— نفس الميعاد ؟

— نفس الميعاد

— حاضر

* * *

— ٢ —

— حاضر حاضر ؟ ما هى الحكاية يا عبد السميع ، ألن تتعلم كيف تقول « لا » ولو مرة واحدة ، أين إيمانك الذى تختبىء وراءه ، أين أنت ؟

— ما ذا تريد يا إبراهيم ؟

— تتحدث عن الدين ولا أرى إلا شحوبك وخوفك

— كثيراً ما لا أفهمك

— أحس أنك تذل نفسك بلا مناسبة ، أحس بامتهان الإنسان فيك وأنا أراك مرتعداً فى انتظار أى لفتة أو تعليق

— أنا لست خائفاً ، ولكنى عند طبيب ، ولا بد أن أنتظر تعليماته

— . . وتخضع لكل إشاراته وهمساته وسكناته ، وتتعلق برضاه

— . . هو العالم بأمور علمه . . وأنا أريد أن أشفى

— لن تشفى طالما أنت ذليل هكذا وقد نسيت نفسك بشكل بشع

— ما هذا يا إبراهيم . . صداقتنا لا تبرر ما تقول .

— لا أستأذن الناس قبل أن أحبهم .

— ماذا تريد منى

— أكره مذلتك تحت هذه الدعوى

— تستعمل ألفاظاً لا تخطر على بالى أبداً

— حبى لك يسمح لى بأكثر من هذا

— وأنا أحبك فى الله . . لذلك أحتمل جرأتك

— أنت لا تعرف الله

— ما ذا تقول ثانية ؟ ، أنا مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقدر خيره وشره

— أنت لا تعرف الله

— لا تفكروا فى ذاته ، ولكن فى مخلوقاته

— أنت لا تفكر لا فى ذاته ولا فى مخلوقاته ولا فى شىء أصلا ، أنت تخاف من مجرد التفكير .

— ما ذا تقول يا إبراهيم ، إيش عرفك بى

— أقول ما أحس به ، وأنا مسئول عنه

— أنت عنيف وقد خفت منك مراراً

— إيمانى يعطينى اليقين بما أفعل

— وأنا مؤمن أيضاً ولكنى لا اعرف اليقين إلا بالحساب والجزاء والجنة والنار .

— أنت فى النار طول الوقت

— كفرتني أول الأمر وها أنت ذا تدخلني النار وكأنك ماسك مفاتيحها، ماذا جرى لك يا ابراهيم ، النار ليست لعبة ، مجرد ذكرها يقلب كياني ، ويقشعر له جلدي ، ويهرس أمعائي

— يملؤني الغيظ منك ومن عماك . . حتى دفعتني إلى استعمال ما تفهم من ألفاظ

— أعمى أنا ؟

— بل على قلوب أقفالها

— يعجبني فيك أنك تحفظ كلام الله وتستشهد به

— كلام الله داخلنا ، إذا ماصدقنا خرج سهاما للحق ومشاعل للحياة

— كله من عند الله ، وأنا لم أمرض بخاطري

— ياليته موضوع مرض ، إني أخجل من امتهانك لما كرم الله فيك

— أنا لا أمتهن نفسي يا أخي ، لا أشعر بذلك

— أنت ذليل لك ألف إله

— ألف إله ؟ لا اله إلا الله

— ياليتك تعرف معناها ، اذاً لما انتظرت رضا الطبيب ، أو إذن المرض أو عشت تحت رحمة تقلصات معدتك ؟

— هذا قضاء الله وأنا صابر وأواظب على الحضور رغم أني لا أفهم ما يجرى ولا أحس إلا بتقلصات معدتي تزيد وتنقص مع ما يجرى ، وكأنها تفهم أكثر مني

— إحساسك تحجر من كثرة العمى والخوف

— أنت تيئسنى بهذا الشكل يا إبراهيم

— . . . وإن من الحجارة لما يشقق فيخرج منه الماء

— من أين لك كل هذا ؟

— من كتاب الله

— كأنك تحفظه

— قلت لك إنه بلحمى ودمى

— أنا لاأفهم ماتعنى ، قرأت كلاما مشابها مرة عند أحد المتصوفين ، هل أنت منهم ، من أنت ؟

— ساعٍ إلى الحق

— لا . . لاأفهم ، وما الحق ؟

— أن تكف عن هذا الرعب الذى يجعل لونك كالموتى

— هل أنا مسئول عن لونى أيضاً ؟

— نعم

— كيف ؟

— لونك من رعبك ، ورعبك من شركك

— وكأن كل ذلك بمشيئتى

— فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر

— زودتها يا إبراهيم وكأن الكفر هو المرض ، وهو تقلصات الأمعاء ،

وهو اللون الشـــاحب ، دلنى على الطريق يا أخى إن كنت تعرفه بهذا الوضوح .

ـ لا أظن أنك تعنى ما تقول ، حاول أن تتذكر متى خفت حتى مت

ـ تتكلم وكأنك تعرفنى من قديم ، .

ـ لا يموت إنسان مثلك بالصدفة

ـ ولـكنى مازلت أعيش

ـ بل ميت فى انتظار البعث

ـ لا أستطيع أن استرجع هذه الأيام ، لا أريد أن أواجه رعبى مرة ثانية ، أنا ما صدقت أن وجدت الحل

ـ موت مؤقت ثم ينفخ فى الصور

ـ ماذا تقول يا أخى بالله عليك؟

ـ . . تقرأ كتابك وتحاسب نفسك ، ولـكن يا ترى كيف ؟ كيف تستطيع أن تمشى على الصراط وأنت بكل هذا الرعب والعمى ؟

ـ لم أعد أطيق تشبيهاتك هذه ، لا أفهم شيئاً سوى أنى مريض

ـ فى قلوبهم مرض نزادهم الله مرضا

ـ يغفر الله لى إن صدقتك ، ولـكن لماذا زادنى الله مرضا ؟

ـ ليؤكد اختيارك وتحملك مسئوليتك

ـ لا أفهمك . . لا أفهمك

لابد أن تقوم القيامة قبل أن تلوح فرصة الحياة من جديد ، فتحس بما يجرى وتفهم ما أقول

ـ ترعبني يا إبراهيم

ـ تخشاني والله أحق أن تخشاه

ـ لا أفهمك

ـ إن شاء الله مافهمت

* * *

— ٣ —

لو أن أي واحد آخر منهم قال لي ما قاله إبراهيم لرفضته واحتقرته وتركته ، ولكن إبراهيم كاد ينزع جذوري دون هوادة ولا تردد ، من أين له بهذا اليقين وهذه القوة ، ثم ما معنى هذه اللغة الحيرة التي يستعملها ، يرجع بي إلى أيام زمان ويسألني « متى . . خفت حتى مت ؟ » من ذا يستطيع أن يتحمل ما تحملته من خوف وحيرة وألم ووحدة ؟ تدعوني يا إبراهيم أن أوقظ احساسي من جديد ، قيام القيامة أهون من هذا المطلب لو علمت ما كان ، وكيف وصلت إلى ما أنا فيه ، أنت تتكلم في خلو بلادك ، على الشط حضرتك ، هل تعرف معنى إحساس شاب طفل وحيد ضائع ضائع ضائع ؟ يرفض كل المسلمات ويرفض كل التقليد ويرفض التهريج ويرفض العبث و يرفض الرفض الأجوف ، ويهاجم من كل جانب ، تريدني أن أوقظ إحساسي لأرجع إلى هذا العهد القاسي الظالم الساحق ، إحساسي الآن مستقر آمن ، بعد أن هداني الله وأرسل لي اليقين الذي رأيته رؤى العين ، تسألني عن الخوف الذي أماتني وكأنك تعرفه ، لو كنت تعرفه لما سألتني عنه ، خوف كصيب من السماء يا إبراهيم ما دمت تتكلم بالكتاب والحكمة ، فيه ظلمات ورعد وبرق ، ولما اظلم عليّ لم اقم من كبوتي ، أحاطتني العواطف

من كل جانب حتى وضعت رأسى تحت جناحى مثل مالك الحزين حتى لا أرى شيئاً ونسيت كل ما كان ، ثم تجىء أنت تتربص بى كالثعلب ، لا .. لن أراك ولن أفهم كلامك وسوف أعيش فى أمان تحت جناحى .

٢ — لا أمان مع الظلام

١ — بل إيمان وتسليم ويقين

٢ — ارفع رأسك وانظر إن كنت صادقا

١ — لا أرفع رأسى إلا بإذنه

٢ — كلام إبراهيم صادق إذا .. هذا هو الذل والشرك بعينهما

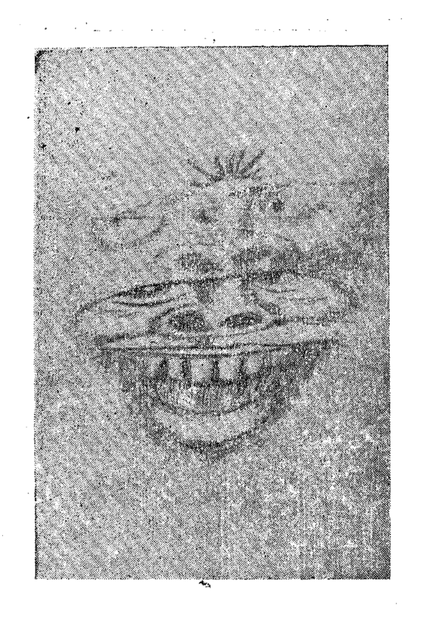
١ — إبراهيم لا يعرف الألم أو الخوف أو الوحدة

يا حسرتى رجعت إلى الهواجس مثل صدر الشباب ، وهأنذا أكلم نفسى ثانية ، ماذا فعلت بى يا إبراهيم ، بداخلى شىء يدافع عن كلامك وعن موقفك ، هذا هو نهاية المطاف ، سوف أشنق فى النهاية على منصة الضلال الذى تعيشون فيه جميعاً بحبل من أمعائى ، جئت أشكو من أمعائى فإذا بى وسط جماعة من المنحلين الكفرة ، صبرت على مسخرتهم على أمل أن أجد علاجى ، والتمست لهم الأعذار إذ ليس على المريض حرج ولما أنست فى إبراهيم الخير ، قلبها على رأسى وأيقظ هواجسى ، لماذا الحيرة وكل شىء وارد فى كتاب الله .

٢ — ولكنه يعرف كتاب الله ويتكلم به أكثر منك

١ — كل مشكلة ولها حل بين دفتيه

٢ — وهو لم يقل غير ذلك



عبدالسميع الأشرم

١ — يفسره على مزاجه

٢ — لم يقل أنه يفسره

١ — ولكنه يتكلم به فى غير مواضعه

٢ — حاول أنت وأرنا شطارتك

١ — كنت قد استرحت من وسوستك

٢ — استرحت أم اختبأت

١ — استرحت وآمنت

٢ — بين صفحات كتاب

١ — كتاب الله !!

— كتاب الله ليس مخبأ من نفسك

— أراحنى من كل حيرة

— بل هو كتاب عمل ومسئولية ومواجهة ، والحيرة الكبرى تبدأ عند تنفيذ جوهره

— المهم الإيمان به ..

— الإيمان به هو تنفيذه إذا عرفت جوهره

هأنذا قد رجعت إلى هواجس المراهقة دون إنذار ، كنت قد استرحت بعد تلك الخبرة التى أجابتنى عن كل الأسئلة ، ولكن هذا هو إبراهيم . . الله يجازيه ، يقلبهما على رأسى فيثور فكرى وكأنى لم أحل شيئاً ولم أر شيئاً ولم أسمع شيئاً ، مصيبة وحلت بى ، ولا أدرى السبيل إلى تخليصها ، هل أكف عن الذهاب حتى لو احتفظت بفضلات أمعائى حتى الموت ،

هل أراجع طبيباً باطنياً آخر لعلى أجد دواء حديثاً غير ما تناولته قبل ذلك؟ ولكن المشكلة لم تعد مشكلة بطنى وأمعائى بل حلت مصيبة هذا الوسواس الخناس محلها ، ما الذى أرجمه بعد أن أتانى اليقين لحماً ودما ، سوف أذهب لأزداد إيماناً حين أواجههم واحداً واحدا بكل أسلحة الدين والحرام والحلال ، لن تذلنى أمعائى ولو صنعت منها مشانق لهؤلاء الكفرة ، ولسوف ترى يا إبراهيم أى مصيبة ستلحق بك إذا تعرضت لى مرة أخرى أو حاولت أن تجعلنى «أفكر» ثانية ، هذا طريق لا بد أن يكتمل مهما كان الثمن .. ، حتى أن أشفى وأحس أنى على الطريق ، ولو لا أن أمرنا الله بالأخذ فى الأسباب لذهبت إلى غير رجعة .

* * *

— ٤ —

فتحت علىّ أبواب الماضى ودخلت الذكريات تصفعنى بلا رحمة ، أعيش مشاعر المراهقة بلا استئذان وأريد أن أنتقم من إبراهيم ، وإن كنت أقترب منه فى نفس الوقت بعنف غريب ، والأدهى والأمرّ أن خلايا جسدى قد استيقظت مع عودة أفكارى القديمة وتساؤلاتى الحيرى وعدت أتأمل النساء فى الشوارع وأحس بطراوة أجسادهن فى الأتوبيسات فلا أتشنج ، هل هذا هو الإحساس الموصل للإيمان الذى تتحدث عنه يا إبراهيم ؟ سامحك الله يا أخى وغفر لى ولك وهدانا وإياك إلى الصراط المستقيم ، دخت فى صدر شبابى وأنا أبحث جاداً عن الصراط المستقيم ، دفعت الثمن غالياً حين رفضت كل طريق عرض علىّ من خارجى ، لم أقبل إلا ما ألمسه بيدى ، وأراه بعينى وأسمعه بأذنى ، أمانى الوحيد كان فى ثنتى بحواسى الخمسة ، أنهيت حدود وجودى عند نهاية حواسى الخمسة ، قلت حينذاك «مالى أنا ومالها بعدها ؟»

كانت عندى الشجاعة أن أظل واضحاً عنيداً لا أتصرف إلا بما أعتقد ولا أرضخ إلا لمنطقى الخاص ويقينى الخاص حتى وجدت نفسى وحيداً تماما ، لا يمكن أن تتصور يا إبراهيم معنى أن تجعل العقل سيدك وهاديك الأوحد فى هذه السن المبكرة فى بلد ريفى وسط عائلة تقرر أعظم قراراتها حسب نصيحة عرافة أو بمحض الصدفة ، ومع ذلك ظللت أقول .. «لا .» بكل مسئوليتها وعنفها ، وحدة قاسية وخطيرة لا يحتملها إنسان «يحس» كما تقول ، ولكنى احتملتها سنوات وحدى ، سنوات طويلة طويلة طويلة ، ثم اكتشفت عجز العقل والحواس بالمصادفة وأنا أنظر فى الميكرسكوب فى حصة الأحياء ، ما ذا لو كانت حقيقة الوجود تحتاج إلى ميكروسكوب أدق من هذا الميكروسكوب ولكنه لم يخترع بعد ؟ وتفتحت منذ ذلك علىّ الأبواب على مصراعيها ثانية وأخذت أراجع مشاكل وجودى وعلاقتى بالكون — وأحمد الله أن الطب النفسى ساعتها لم يكن قد انتشر بهذا الشكل وإلا لاعتبرت مجنوناً بلا تردد ، ولكن ها أنت يا ابراهيم تريد أن تعيدنى إلى الجنون ذاته — أحسست أيامها بقدرة حواسى أن تخلق حواساً جديدة لها قدرة الميكروسكوب على رؤية ما لا يرى بالحواس القديمة العاجزة ، ومضيت وحدى أطرق أبواب الوجود أبحث عن اليقين بهذه الحواس الجديدة الغامضة دون أن أهرب إلى الحل الأسهل أو أرضى بالإيمان بشىء جاهز ، ضيَّعت سن البهجة والمغامرة فى سعى جاد وحيد ، هل تريد منى يا إبراهيم أن أرجع إلى هذا الألم وهذه الحيرة ، سرت عارياً حافياً ضائعاً تغوص قدماى فى أرض رخوة بلا قاع حتى لأكاد أغرق فى رخاوتها واختلاط معالمها ولكنى لم أشكُ الاهتزاز وفقد التوازن ، سنوات طوال يا إبراهيم لا يمكنك أن تعرف عنها شيئاً أنت وأمثالك ممن قبلوا المسلمات فى هذه السن دون تفكير ، الوحيدة التى كانت تشاركنى الحيرة وتقبلنى دون شروط كانت هنية : خادمة سمراء ذات شعر أجعد ،

تصيبها نوبات يقولون عنها لمسة أرضية ، أحبتنى وسمحت لى أن أفرغ حيرتى بين ذراعيها وأن أضم رأسى على صـــدرها دون سفسطة أو عقد صفقات مذلة .

سامحك الله يا ابراهيم يا أخى ، فتحت علىّ بابا لا أعرف كيف أغلقه ، ولـكن هذا هو إحساسى إن كنت تعرف معنى الإحساس ، قل لى بربك من على الأرض يستطيع أن يتحمل ذلك وحده دون أن يجن ؟ ولـكنى لم أجن ، وفى نفس الوقت بدأت أحس بعصبية الحيرة تتضاعف وناء ظهرى بعبء الضياع ، لابد وأنك تعرف أن ألم الوحدة ساحق ولابد أن تسارع بالتخلص منه ، كان لابد أن يذهب كما ذهبت هنية إلى سيد آخر يدفع ربع جنيه أكثر مما يدفع أبى ، مع أنها كانت الوحيدة التى لم تقبل مقابلا لما أعطتنى ، لقد أعطتنى طمأنينتى وضمان عدم جنونى ، كانت أثناء نوباتها تتكلم عن رفيق لها تحت الأرض ، نصرانى الديانة ، وكنت أحس أننا لا تكتمل إلا إذا آمنا بكل شىء ، الشىء المشترك فى عقائد الناس جميعاً ، إذ لابد أن ينبع هذا الشىء من داخلنا ، ولعل هذا هو ما يجذبنى لسماع كلامك هذه الأيام بالرغم منى ، كانت هنية تسمع لى وتفهمنى وتسمح لى بجسدها بين الحين والحين دون هواجس بالذنب أو تردد أو شكوك ، ولـكنها ذهبت لسيد آخر لعله كان أكثر ايمانا ويقينا بحساباتهم ، ودليلهم على ذلك أنه كان يدفع أكثر من أبى ، تركتنى وحيدا أبحث عن إيمانى الخاص ، ويقينى الخاص ، سنـــين طويلة وأنا أتقلب بين الـكتب والوحدة والمساجد والـكنائس والضياع ، سنين طويلة أطرق كل باب يا إبراهيم بكل أحاسيس اليقظة الجياشة وليس لى من خبرة صادقة مع مخلوق كان إلا مع هنية ، لا أبى ولا أمى ولا أصدقاء فى سنى ، ولا أحد . . لا أحد . . أذهب إلى المقابر وأنام تحت شجرة التوتة وأركب النورج وأجنى القطن . . ولـكنى لست

مثل العيال ولا مثل الشباب ، يحسبوننى معهم وأنا لست معهم ، دائم البحث والصبر واليقظة ، أحافظ على أحاسيسى خشية أن يحبسوها فى صندوق مغلق مفتاحه ليس معى ، سنين طويلة طويلة ، هى الدهر كله معاش عدة مرات ، فكيف تريدنى أن أعود اليها ثانية بعد أن وجدت إجابتى على كل الأسئلة ؟

— كل الأسئلة ؟

— كل الأسئلة ، أعوذ بالله منك هل تشككنى ثانية ؟

— كل الأسئلة ؟

— كل الأسئلة بالعند فيك

الوسواس الخناس عاد ، والله يسامحك يا ابراهيم

— ٥ —

خذ من القرآن ما شئت لما شئت ، كل الأسئلة يا إبراهيم تجد لها جوابا فى هذا الكتاب ، فلماذا الحيرة ولماذا البحث ولماذا الجرى والضياع ، كنت أرفض أنا وهنية بغباء شباب مغرور أن نأخذ إيمانا « سكند هاند » ولكن الذى أتى به خاتم الأنبياء هو إيمان راسخ واضح ، من يتركه لن يكسب إلا الحيرة والضلال ، فما الداعى لأن تتحدانى وتحاول إرجاعى إلى غرور الشباب لمجرد أن أمعائى تؤلمنى ولا أستطيع تنظيم عملها ،لو أنك مررت بما مررت به ورأيتهم رؤى العين ، حقيقة واضحة تمسك باليد وتسمع بالآذان وترى بالعين لعرفت مصدر اليقين الذى أنا فيه ولكففت عن ضربى بسياط سخريتك التى تغلف بها نصيحتك وتقلب بها وجدانى . كانت مصادفة ، مجرد مصادفة ساقها إلى الرحمن الرحيم بعد طول الوحدة والحيره والألم ، ذهبت الى « هؤلاء الناس » أتحدى خداعهم بعد أن ضاقت بى السبل جميعا

وقلت أقفل هذا الباب أيضاً ، كنت متيقنا من دجلهم ناوياً على إكمال طريقي وحدى فإذا بالباب يفتح علىّ على مصراعيه .

شقة متواضعة ليس بها شيء غريب وناس من عامة الناس يبحثون عن الحقيقة مثلى ومثلك ، ناس مثل هؤلاء الذين نجتمع بهم عند الطبيب كان لكل منهم حيرته ومشكلته ولكنهم اهتدوا جميعاً بفضل قلوبهم المضيئة ثم تجيء أنت لتقول لى بعد هذا اليقين : بل على قلوب أقفالها . .

مازلت أذكر ذلك اليوم

. . . . .

. . . .

. . . . .

اقفلنا الأبواب والنوافذ وأحكمنا الستائر وأحضرنا البطاطين وسددنا بها أى منفذ أو شبهة منفذ حتى لا يخالج أى منا شك فى حقيقة مايجرى ولا يتصور أنه وهم أو إيحاء ، وأخذنا نقرأ فى كتاب الله ، لاطلاسم ولا طقوس غريبة ، وضع الأكل ثم أطفئت الأنوار وأخذ الأكل ينتقل من على المائدة إلى أفواهنا مباشرة — مباشرة يا إبراهيم دون استعمال الأيدى ، والصحاف لا تفرغ مما بها مهما أكلنا ، شبعنا دون أن ننقص من الأكل شيئا ثم رفعت الصحاف دون أن نقوم من مجالسنا . . أخذنا نذكر اسم الله حتى حضر خادم الاسم بصوته الإنسانى العادى ورعبت يا إبراهيم رعب الأولين والآخرين ، ولكنى علمت فى نفس الوقت أنه قد آن الأوان لزوال حيرتى إلى غير رجعة ، هذه أشياء لا جدال فيها ولا خيال ولا أحلام ، جاءنى اليقين حتى ملمس يدى ، هاهو ذا يتكلم ويرد على الأسئلة دون الحاجة

إلى العناء والبحث والحيرة وإعادة البناء كما تقول،جاءنى جاهزا وكلمنى كما أسمعك تماما مازلت أذكر حوارنا :

— هداك الله ياعبد العاصى

— أنا عبد السميع

— هذا اسمك على الأرض أما اسمك عندنا فهو عبد العاصى

— لم أعص أحدا وإنما أنا أبحث عن يقين من داخلى

— غرور الشباب أضاعك يابنى والحق بين يديك

(وكنت مازلت ممسكا بالمصحف ياإبراهيم)

— من أنت ؟

— أنا من مخلوقات الله مثلك ، خلقكم من طين وخلقنا من نار

— لماذا تتركوننا وتتركون الناس فى ضياع مادمتم بهذا الوضوح ، لم لا تظهرون لكل الناس وتريحوننا

— لا نظهر إلا بناء على طلب الناس الصالحين نحن منا المؤمنون ومنا الكافرون ولوظهرنا نحن خدام الخير لكل الناس لظهر الفريق الآخر دعاة الشر لكل الناس واضطربت الأفئدة أكثر

— ألا يمكن أن يكون هذا حلما أوخيالا ؟

— ستدفع ثمن هذا الشك حـــيرة وضياعا ، أما كفاك عصيانا يا عبد العاصى

— كفانى .. كفانى .. ولكن ليطمئن قلبى

— تأكد كما شئت

— ألمسكم ، بيدى

— هاك ما تريد ... صافحنى

ومددت يدى يا ابراهيم وسلمت يدى عليه ، لحماً ودماً مثلك تماما ، سلمت على يده مثلما أسلم على يدك يقينا ، ومن يومها وأنا فى حال من الطمأنينة والسكينة والإيمان .. هذا هو

* * *

— ولماذا تركتهم وجئت إلى هنا ؟ ماداموا هم مصدر يقينك هذا

— الطبيب الباطنى هو الذى نصحنى بذلك يا إبراهيم

— ألا يعالجون الأمعاء ؟

— يعالجون أمراضا كثيرة ولكنهم رفضوا علاجى لأن يقينى لم يكن كافيا ، هكذا قالوا ..

— الأسهل ياعبد السميع أن تزيد من يقينك حتى توحد طريقك

— رفضونى لمّا لم ألتزم

— ولم لم تلتزم ؟

— طلباتهم صعب

— تسعى إلى الأسهل

— تعبت من الطرق الصعبة ، سنوات طويلة وحدى

— والآن تبحث عن الأسهل

— من حقى أن أهدأ وأستريح

— على حساب أمعائك وعذابك الأعمى

— لست معذبا

— بل أنت فى جوف النار ، رائحة جلدك تزكم الأنوف

— حتى لو كنت أحترق ، فلم أعد أحس بشىء

— جلدك يتجدد بمجرد أن يتيقظ إحساسك فى لحظة إفاقة

— لا تخدعنى وتسمى ماتفعله بى إفاقة ، أنت السبب فى العذاب إن كان ثمة عذاب .

— العذاب داخلك وكل ما فعلته بك أنى نبهتك إليه

— ويحك ، وهل يقينك مثل يقينهم ؟ أهل النور

— أنا لا أعرف إلا يقيناً واحداً ، عندى ؟ عندهم ؟ ولكن يبدو أنه ليس عندك على كل حال .

— هم لا يطلبون إلا الخير ، وأنا لم أستطع أن أوفِ بطلباتهم فلا تحكم عليهم بما أنا فيه .

— أنا لا أحكم على أحد، ولكن الخير هو مايتحقق للناس رؤى العين، مثل ما يجرى هنا وبداخلك ، وما تهرب من رؤيته أو الإحساس به . . كل هذا نوع من الخير .

— تجرى هنا أشياء كثيرة منها الحلال والحرام ، فأين الخير بين كل هذا

— تهرب من نفسك فى جب الحلال والحرام ، تهرب من حقيقتك بالتسليم والاستسهال ، ها أنت تهرب من الالتزام والمسئولية تجاه الإنس والجان معا .

ـــ المسئولية ترعبنى ولكن ما دخل ذلك بالحلال والحرام . .

ـــ لا تتنازل عن سعيك الشخصى ياعبد السميع إن أردت اليقين حقيقة

ـــ لن أرجع إلى مرحلة السعى والضياع والحيرة والوحدة بعد أن وجدت الإجابة عن كل شيء

ـــ لكل شيء ثمن ، وأنت تسعى إلى شيء ثمين

ـــ أنا أسعى لملاج أمعائى ، هذا كل ما فى الأمر

ـــ لا أصدقك ، أمعاؤك جاءت بك إلى هنا أما استمرارك فهو محاولة سرية لمواصلة السعى إلى ذاتك .. إلى ذاته ..

ـــ إلى ذاتى ؟ إلى « ذاته » ؟

ـــ . . إذا عرفت نفسك فقد عرفته

ـــ وكيف أعرف نفسى وأنت تشككنى فى اليقين الذى رأيته

ـــ جاءك من خارج نفسك

ـــ ليس بداخلى إلا الحيرة والضياع

ـــ حتى اليقين من الخارج ، لم تف بحقه

ـــ طلبوا منى التزاماً لم أستطعه ، وحين حاولت الاستجابة له أحسست أنهم يتدخلون فى حريتى ، بل فى نومى أيضاً

ـــ إذاً فقد فشل هذا الطريق

ـــ لم يفشل ولكنى أنا الذى عجزت عن مواصلته ، كيف أعيش وهم يراقبون حركاتى وسكناتى ، ويقيدون فكرى ، أصبحت مسيراً لاحول لى

ولا قوة ، وثارت علىّ أمعائى ثورة عنيفة حتى كدت أعجز بآلامها عن مواصلة الحياة ، ولذلك جئت إلى هنا .

— ما دمت قد جئت ، وتصر على المجىء ، فلا بد من إعادة النظر .

— ترجعنى إلى حال فررت منها وكأنى أجرى أمام أسدأعمى يحيط بى فى كل مكان .

— اختبأت فى جحر حرباء وتلفعت بأمعائك هرباً من مواجهة ذاتك أو تحمل مسئولية إحساسك .

— ما فائدة الإحساس ما دام هو الجحيم ذاته ؟

— الجحيم هو ما أنت فيه بعد أن ألغيت جزءاً من ذاتك ، واستسلمت إلى قوى خارجك بهذه الصورة البشعة .

— مشيت على الصراط طويلا لأصل إلى الحقيقة ، أو أصل إلى ذاتى كما تقول ، ولكنى وقفت فى منتصف الطريق ، وهأنذا مستريح الآن ، فلماذا تدعونى إلى مواصلة السير فى طريق عجزت عنه تماما .

— وقعت من فوق الصراط إلى النار ، وأنت الذى تحاول الخروج منها

— لا نار ولا يحزنون ، أنت الذى توقد النار بكلامك وإثارتك

— إن لم أوقدها أنا فستشتعل من داخلك فى أى وقت

— دعنى فى حالى حتى تشتعل .. يحلها حلّال .

— أنت الحلّال

— أنا ؟ ، أنا ؟ ، .. وهو ؟ ..... ،

— الحق يساعدك دائما على نفسك ... الخير منه .. والمصيبة من نفسك ؟

— دعنى وشأنى

— لن يدفع الثمن سواك

— أشعر أنى لو نجحت فى أن أكف عن المجىء هنا فلسوف أهنأ بما أنا فيه تماماً

— حاول ..

— أشك فى قدرتى على التوقف بعد أن أثرتَ فىّ كل هذه الذكريات

— هذه مشكلتك ، إما أن تكمل فتقبل الثمن وإما أن تتوقف فتدفع الثمن

— وَلكنى سأدفع الثمن حيرة وضياعاً إذا أنا أكملت نفس الطريق ، هل ترضى أن أقع صريع غرور المراهقة وضياع الشباب ثانية

— كنت وحدك تماما .. أما الآن فأمامك الفرصة ألا تكمله وحدك

— لم أكن وحدى .. كانت معى هنية

— تركتك لسيّد آخر ، يدفع ربع جنيه أكثر

— لم تتركنى ، هم الذين أخذوها قسراً

— النتيجة أنها تركتك والسلام

— ومن أدرانى أنك — مثلا — لن تتركنى لمن يدفع اكثر

— الضمان ينشأ من داخلك

— لا ضمان إلا فى كتاب الله

— لو عرفت ما به ، واحترمت حقه عليك ، وتكريمه لإنسانيتك لوصلت إلى نفس الغاية التى نريدها جميعا ، لجرؤت أن تفكر .. وأن ترى ..

— هل أنت متأكد انها نفس الغاية ؟

— انظر بنفسك

— خائف

— وذليل

— كفى يا إبراهيم

— سيدك خارج نفسك وتخاف من أى حركة تبعدك عن حال التنويم التى استسلمت لها فألغيت مشاعرك .

— لم أعد خائفاً . . فلا تعايرنى

— انظر إلى وجهك فى المرآة . . ليس فيه ذرة إيمان

— سوف أخاف أكثر لو تركت هذا اليقين

— لستَ موقنا يا أخى . . اتق الله ، المؤمن ليس ذليلا ولا جبانا

— قلت لك لست ذليلا ولا جبانا

— عبد السميع يا أشرم

— نعم

— أنت حر

— لا . . أبدا . . ! !

* * *

— ٦ —

لو أن الطبيب هو الذى قال لى ما قاله إبراهيم لشككت فى نواياه ، ولو أنه كان نقاشا عقليا مع كمال أو غالى أو ملكة لقلت ملحدين كفرة ، أو على أقل تقدير خائفين ضالين ، لكن إبراهيم الطيب زعزعنى من جذورى ، شدها فانخلعت من أرض الحان ، ولكنها لم تجد طريقا إلى أرض

الإنس ، سوف أذبل هكذا يا إبراهيم وأموت فعلا ، لا أستطيع أن أرجع إليهم بعد أن أفشيت السر فوقع المحظور ، ولا أستطيع أن أواصل معكم لأنى لا أطمئن لأى منكم ولا لأى مخلوق — من أنتم يا إبراهيم وماذا تفعلون وإلى أين أنتم ذاهبون ؟ هل تؤمنون أم تكفرون ؟ أنا لا أعرف شيئا من كل ما يجرى أنت الذى أثرت الحكاية من أولها دون مناسبة ، نكأت الجرح القديم ، الدين هو غايتى وطريقى ، فماذا عندك تقدمه لى حتى أستطيع أن أعيش ؟ ، أكاد أقر واعترف أن الموضوع لم يعد موضوع أمعائى ، وهذا من فضل وجودى هنا . . أو هو نتيجة مصيبتى هنا ؟ فرض علىّ أن أواجه مصيرى وأن أبحث عن معنى جديد من الأول .. أنا الهارب الدائم . . أعلم ذلك ولقد حسبت أن إخواننا من عالم النار سوف يوصلوننى إلى عالم النور ، ولكن أمعائى ساقتنى إليكم ولا حول ولا قوة إلا بالله ، هذه ليست أول مرة أطرق باب الدين ثم أجد من يصدنى عنه من داخلى أو خارجى ، اندفعت وأنا صبى فى جماعة الحكم بما أنزل الله ، وكنت أومن أن من لا يفعلها فهو الظالم الفاسق الكافر وكنت أنتظر مرور الأيام حتى يشتد عودى فأقتل الظلمة الكفرة الفسقه بلا هوادة ، ولما قامت الثورة ولوحت بالدين شعاراً بين الشعارات فرحت فرحا شديداً ولم أكن قد تخطيت الصِّبا ، ولكنى تراجعت شخصياً قبل أن تتراجع الثورة ، دهمتنى المراهقة بكل تساؤلاتها وعبثها وحيرتها ، وعشت السنين الطويلة أعانى وحدى ولا يخفف عنى إلا حضن هنية بين الحين والحين ، كنت أتساءل وأنا أفكر — حين كنت قادرا على التفكير — عن حقيقة ما أنزل الله ليحكم به ، وأنظـــــــر إلى صديقى المسيحى الجالس بجوارى فى الفصل وأتساءل هل ما أنزل الله عليهم هو هو ما أنزل علينا ؟ وكيف يحكم وأحكم بما أنزل الله ونحن فى بلد واحد إذا اختلفت النصوص؟

هل نلتزم بالنص أم نأخذ الجوهر ؟ هل أفرض عليه رأيي أم أقنعه ؟ وماذا لو لم يقتنع ؟ وإذا وجدت فى دينى من القواعد ما يسمح لنا بالتعايش الطيب فى الدنيا فهل لابد أن يذهب هو إلى النار ؟ وما ذنبه وقد ولد فى بيت على غير دينى ؟ وماذا لو كنت أنا ابن أبويه ؟ ، وكان يرضينى أيامها أن أثق فى ذكاء الله وعدله فأترك له التفاصيل ، ولكن السؤال يعود فيلح على وكأنى مكلف برسم دستور تفصيلى للحكم بما أنزل الله ، قالوا أن الدين لله والوطن للجميع ، وقالوا ندع ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، وكنت أسمع هذه العبارات ولا أستسلم لها ، كنت أعتبر الاستشهاد السهل بمثل هذه الأقوال هروب صريح من مواجهة بديهيات وجودنا ، ثم تركت كل شىء ورائى هرباً وتحدياً حتى كدت أضيع تماما ، وأخيراً فقد هدانى الله عن طريق مخلوقاته الأخرى فى عالم صنع من نار وأمسكته باليد لحما ودماً مثلما أنت ماثل أمامى يا إبراهيم ، فلماذا ترجعنى إلى حالى الأولى ، وأنت لاتعرف شيئاً عن رعب معاناتى ، لقد طردونى من عالمهم ، هذه حقيقة ، ولكنك تقفل على بدعوتك هذه باب الرجعة إليهم ربما قبلونى .

أدفع حياتى لكى أعرف ما طبيعة إيمانك على وجه التحديد

— هل أنت مؤمن يا إبراهيم

— طبعاً . . والحمد لله

— ماذا تعنى ؟

— هذا شىء لا يتكلم عنه

— أسرار كهنوتية جديدة ؟

— لا . . ولكنها أبسط من أن يتكلم فيها

— أمامى أسئلة محددة تبحث عن إجابات محددة

— أنت الذى وضعتها لنفسك حتى تنسى فيها مسئولية وجودك

— أنا ؟ هـذه الأسئلة موضوعة قبـل أن تخلق ، ولابد أنك سألتها لنفسك وإلا فأنت هارب منذ الولادة

— طبعاً سألتها

— وهل وجدت عنها الإجابة ؟

— طبعاً ، إنى مؤمن مائة فى المائة ، بل إنى لا أستطيع إلا أن أكون مؤمنا .

— نعم ؟ نعم ؟

— صدقنى يا عبد السميع ـ المسألة أبسط من كل ما تتصور

— والمسيحيون والبوذيون والشيوعيون ؟

— فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، فيهم وفيهم . .

— يذهبون إلى النار ؟

— من لا يؤمن فهو فى النار فعلا .

— اسمع . . . أنا لا أفهمك

— ولن تفهمنى ، والمصيبة الكبرى أنك لو فهمتنى لما حـــدث إلا تكرار لمأساة سابقة ، كف عن تلقى تعليماتك من الخارج ، لم تنفعك جماعة البشر ، ولا تعليمات من تحت الأرض ، ولا التزامات من الجان ، فاياك أن تتلقى منى شيئا .

— ترجعنى مرة ثانية للبحث ، وتحملنى مسئوليتى ، ما أصعب الأمانة

— إنه كان ظلوما جهولا

— لا إنسانية إلا لمن يحملها كاملى ؟

— فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر

* * *

* * *

منذ حدث ماحدث وأنا لاأنام ، كيف حدث هذا الذى كان ، أنا لم أنس أبدا ولكنى مرعوب منه ومن ذكراه وفى نفس الوقت لا أعرف الخطوة التالية ، انفجرت كالبركان فى ثورة هائلة عقب تعليق بسمة بعد توجيه السؤال من إبراهيم ، كانت فى ثورة غضب ساخط ، التفتت إلى فجأة وصاحت . .

- - فعلا ذليل أعمى وجبان ، لا تريد أن ترى أو تحس ، أنت تجعلنى أشمئز أنى من مثل جنسك . .

هكذا يا بسمة ؟ حتى أنت يا بسمة ؟

أنتم لا تعلمون شيئا ولسوف ترون يا أغبياء من الذى يحس ، أنا أحبس إحساسى وراء أسمك الجدران حتى لا أقتلكم ، ها كم أنا .

. . . .

. . . .

مطروح على الأرض يمسك بأطرافى خمسة منهم إبراهيم وبسمة ، وأنا أنظر حوالى أشاهد آثار ثورة الإحساس ، لمحت صورتين كانتا على الحائط وقد تحطمتا تماما ، كراسى مقلوبة ، قميص ممزق وجسمى كله يتصبب عرقا . .

ماذا حدث ؟ أنا لم أنسى حرفا من كل ما حدث ، كنت وما زلت فى كامل وعى ، هذا البركان الذى ثار كان نائما فى قمقم الخوف والتسليم ، كنت محقا حين تحكمت فيه بكل ما أوتيت من قدرة على الهرب والتأجيل هـــذا هو إحساسى : فج كما خلقه الله ، فماذا تريدون ؟ أنتم تسمحون لإحساسكم بالتجول لأنه ليس بداخلكم هذا العملاق ، لذلك فأنتم لا تحبسونه فى قمقم ، لكن أنا ماذا أفعل به الآن ؟ كيف أدخله ثانية إلى القمقم ؟ ماذا أفعل به الآن ها هو ذا أمامكم لا يقدر عليه أربعة رجال أشداء وطفلة ، أنت يا بسمة السبب ولعلك الآن تقدرين لماذا لا أحس ، لو أحسست حقا وصدقا لحطمت العالم وحطمت نفسى ، لو أحسست اسلمت على النساء بمصافحة اثدائهن مباشرة ، لو أحسست فسوف اقتل بلا رحمة .

— هذا أنا فماذا تريدون . . ؟

— لا . . ليس انت ، هذا نصفك السجين وقد انطلق بعد طول نسيان وهوان .

— هذا هو إحساسى الذى تطلبونه

— هذا انفجار وليس إحساسا

— لا أعرف غيره

— هذا جنون يا عبد السميع

— إحساسى هو الجنون يا أخى ، ماذا تريدون اذاً ؟ إحساس على مقاسكم ، لم يعجبكم عقلى وحكمتى ودينى ، ولا يعجبكم نوع احساسى ، تسمون العقل بلادة وتسمون الإحساس جنونا ، ماذا تريدون إذا ؟

— أنت تتفجر لتخيفنا ثم بعد ذلك تبرر هربك القادم وموتك

ــ أنا ؟ .. أنا ؟ أنا ؟ أنا أتفجــر ، أنا أهــرب أنا أموت ، وماذا تفعلون أنتم .

ــ لا تلغ إحساسك هربا من انفجار أنت مسئول عنه

ــ ليس عندى إلا هذا ، إما أن تقبلوه أو تتركونى فى حالى

ــ تفرض علينا أحد نصفيك

ــ نصف ، ثلث ، ربع لا شأن لى بشىء ، عليكم أن تختاروا ، ليس عندى شىء آخر . . . إما هذا ، وإما ذاك

ــ أنت الذى تختار

ــ لا أستطيع ، لم أستطع ، لن أستطيع ، للمونى ثانية حتى أنصرف فى أمان .

ــ « أنا » « هنا » « الآن » ... شعاركم النذل ... هذا أنا وليس عندى شىء آخر

ــ لا ... عندك

ــ ليس فى مجال رؤيتى ..

ــ سوف تتحمل اختيارك مهما كان ، فلا تنس

ــ أنسى ؟ ياليت !!

* * *

— ٨ —

جننت والحمد لله ، هذا هو آخر المطاف يا عبد السميع ، حضرت أشكو من أمعائى فشككونى أولا ثم جننونى أخيرا ، نهايتى فى السراى الصفراء مثل عمى وابن عمى ، رأيت خيالاتهم فى حلم أمس ، عمى يفتح ذراعيه لاستقبالى فى مدينة مسحورة تحت الأرض قد صنعت بيوتها من إفرازات البشر ، وابن عمى يزفنى زفة العوالم برِقٍّ كبير مصنوع من جلد إنسان يجيد الإحساس ، عريس بلا عروس ، ذهبت إلى الطبيب أتخلص من ألم أمعائى حتى أتزوج ، وهأنذا أتزوج الجنون وأزف بلا عروس فى مدينة الفضلات والفن ، هل هذا هو العلاج الحديث يا سيدى يا صاحب صولجان العلم ولابس عباءة الطب ؟ هل هذا هو الإيمان الذى تدعوننى إليه يا إبراهيم ؟ هل هذا هو نهاية المطاف ؟

— لا ... ليس نهايته بل بدايته يا عبد السميع

— أنت يا إبراهيم مسئول عن كل ما حدث من صاحبك هذا الغشاش المجرم .

— وأنت ؟

— سلمتكم نفسى يا إبراهيم ، وسأنتهى مثل عمى وابن عمى فى السراى الصفراء .

— تنتهى حيث تريد

— يا أخى كفى سخفاً ، أريد ؟ أريد ؟ أنا لا أستطيع أن أريد

— هذه بداية الطريق إلى الله . . إن شئت

— كفى سخرية يا إبراهيم وخداعاً ، وإياك أن تخلط فى الكلام

— اسمع يا عبد السميع ، صدقني ، هذه فرصتك وتذكر أقاربك الذين حاولوا وتوقفوا .

— ما الفرق بيني وبينهم ، الوراثة هي هي ، وخيبة الأمل أكبر .

— الفرق أن ما حدث حدث بإرادتك وفي وسطنا وفي كامل وعيك

— إرادتي ؟ ما زلت تقول إرادتي

— مجيئك هنا وإصرارك عليه ، هو الذي أحدث كل ذلك ، مجيئك وانتظامك هما إرادتك . .

— إرادتي . . أن أجن ؟ كنت أحاول أن أهرب من عار العائلة

— اصرارك على الهرب من مسئولية إحساسك هو الذي يصور لك الأمر جنونا .

— ماذا أفعل ؟

— تستمر

— الى أين أستمر؟ وكيف ؟

— لا بد أن تعرف كل شيء من داخل نفسك ، كفى ما كان

— أين نفسي ؟ أنا ممزق تماما

— ليس تماما ، فما زلت تحضر وتبحث وتحاول

— أنا لا أبحث ولا أحاول فلا تخدع نفسك لتعفيها من مسؤلية ما فعلت بي

— لن تستطيع أن تخدع نفسك ثانية يا عبد السميع

لا أستطيع . . لا أستطيع . . ماذا أستطيع إذا

ـــ . . . أن تعيش . . وتؤمن

ـــ . . . إياك أن تذكر هذه السيرة ثانية وإلا ... أنا مجنون فاحذرنى فقد أقتلك فى أى لحظة لو وَاصلت العبث بى

ـــ لاعبث ولا مجزنون ، هذه فرصتك فاغتنمها

ـــ سمّه شيئا آخر إلا الإيمان

ـــ سمه ما تشاء أنت

ـــ ماذا تريد منى

ـــ مالك يا عبد السميع ـ اسأل نفسك ما ذا تريد من نفسك ولنفسك

ـــ أريد . . ، أريد أن أموت يا أخى

ـــ معك حق

ـــ نعم ؟ نعم ؟

ـــ إذا لم يستطع الإنسان أن يعيش ، فليمت أفضل من الاستمرار فى العمى والكذب

ـــ تشجعنى على الانتحار ؟ أهذه هى نهاية المطاف ؟

ـــ ليس تشجيعاً ولا تثبيطا ولكن هى مسئوليتك ، وهذا هو أنت

ـــ اسمع .. إما أن أنتحر أو أقتلك فأنت السبب فى كل شىء

ـــ السبب فى ماذا يا عبد السميع ؟

ـــ فى هذا

ـــ أحمد لله أنى ساهمت فى عمل الخير

ـــ تحطمونى .. وتشمتون بى .. ثم تسمون الانتحار عمل الخير

ـــ أعنى بالانتحار موت المرب القديم

— إذا مات القديم فماذا يبقى ..

— تبدأ من جديد

— شبعت بدايات

— ٩ —

طريق صعب وقاس ، كيف أجاهد وحدى كل هذا الجهاد ، يصعب على أن أمضى وحدى ، لماذا ؟ يقول أن هذا هو السبيل الوحيد لتجنب الشرك، يا ترى لو ذهبت إلى شيخى القديم الذى عرفنى على عالم مخلوقات النار أيقتلنى أم يلفظنى ، سوف أذهب ولو لأطلب منه العفو والمغفرة

— جئت يا سيدنا أطلب المغفرة ، لقد بحت بالسر،وهأنذا أدفع الثمن

— يغفر الله لنا ولك يا بنى

— ما ذا أفعل الآن ؟

— الله يهدى من يشاء

— ولكنهم يقولون أن من شاء فليؤمن و من شاء فليكفر

— الله يهدى من يشاء أن يهتدى يا بنى

— تُحملنى أنت أيضاً مسئولية ما كان

— الإنسان حمل الأمانة من قديم ولا بد أن يكمل حمل مسئولياتها إلى النهاية .

— أغلقت كل الأبواب فى وجهى

— الله غفور رحيم ، والقنوط من رحمته ألعن من الكفر به

— هل تسمح لى أن أحضر الجلسات مع الإخوان ، أستغفر وأتوب

— الخير فى كل مكان

— تطردنى من رحمتك

— ليس لى رحمة ، رحمة الله فى كل مكان

— كيف حال الإخوان

— يسلمون عليك

— لا فائدة من العودة ؟

— لا تكف عن السعى إليه

— والطريق ؟

— الطرق مختلفة والغاية واحدة

— عميت عن كل الغايات يا سيدنا الشيخ

— لا غاية إلا وجهه

— أين وجهه ؟

— أينما تولوا فثم وجه الله

— أين هو ؟

— الخير فى كل مكان

— فقدت كل شىء ، وأفكر فى الانتحار

— هذا هو الكفر بعينه ، وهو جبن أيضاً لا يرضاه الله

— لا أستطيع أن أتحمل الآلام وحدى وأنت تطردنى من رحمتك

— قلت لك ليس لى رحمة

— أصبح الموت تحصيل حاصل ، مات كل شىء فىّ ، ولم يبق إلا جسد متحجر فلأنتبه منه أيضا

— حافظ عليه ، فقد يشملك الله برحمته فى أى وقت ، إنه يحيى العظام وهى رميم .

— تتكلم مثل إبراهيم الطيب

— إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، عليك بالنظر فى نفسك

— ... كيف أنظر فى نفسى وأنا أبتغى وجهه هو

— هو أقرب إليك من حبل الوريد

— أنا قادم من عند طبيب نطاسى ، لم يعلمنى أين حبل الوريد

— سوف تجده بنفسك

— حتى هذا أيضاً .. بنفسى

— من عرف نفسه فقد عرف الله

— كأنك هو

— أنار الله قلبك يا بنى

• • • •

لا بد أن ابراهيم قد أبلغ شيخى كل ما كان بطريقته الخبيثة ، كأنه هو ، الحلقة تضيق ولا أجد سبيلا إلا الاستمرار ، كتب عليكم العلاج وهو كره لكم ..

ليكن مايكون

ولتصدق نبوءتك يا إبراهيم ، هذا ما انتظرته منذ سنين إما الجنون وإما الشقاء ، إما الموت وإما الحياة .. أغلقت كل الأبواب وكتب على أن أرفض كل الحلول الوسط

— ١٠ —

شهور طويلة مضت وأنا أعاند الهزيمة ، أتلمس أرض الواقع محافظا على كل ذرة من عنف الإحساس وألم الرؤية ، شهور طويلة وأنا أرقص فيها على حبل مثل شعرة الصلب ممتد ما بين موت حواسى ، وأملى فى الحقيقة فى أبسط صورها وأروعها ، والحبل مشدود فوق واد من النار ، نار الرؤية العارية ، مما يجعل الرعب يتملكنى فى كل لحظة .

وأخيرا تبينت كل شىء وإذابى أجده أقرب إلينا من أى شىء

هل أستطيع أن أقول ماهو ؟

هل يفيد؟

ليس سرا ، ولكنه أقدس من السر ، بساطته تستهوى البسطاء وعمقه يودى بهم إلى الهاوية .

لا .. ليس لى أن أقول وليجاهد كل من يريده حتى يصل إليه بنفسه ، وحتى لا يتعرض لخطر التبعية البلهاء كما فعلت ردحا من الزمن ، ولكن كيف

أحبسه فيبدو وكأنه سر ، رغم أنه أرق من نسيم السَّحَر ، وأوضح من نورِ الشمسِ فى وسط النهار .

. . . . .

. . . . .

أزور إبراهيم وزوجته نجوى بين الحين والحين ونتبادل كلمات قليلة نتفاهم فى صمت أصدق ، أوصيته وزوجتـــه أن يبحثالى عن زوجة « طيبة » .

— كم أخاف عليك يا عبد السميع . .

— آن الأوان أن أنصحك أنا ، لا ينبغى أن تخاف إلا من العمى والضلال ، وقد فات أوانهما .

— هب أنها لم تكن كما تريد

— الله يفعـــــــــل ما يريد . . وأنا وسيلته على الأرض ، فلم التردد والخوف ؟

— ماذا ستعمل معها يا عبدالسميع لو كانت فى أول الطريق أو كانت تسير إلى وراء ؟

— مثلما فعلت أنت معى يا اخى

— كم هو صعب

— أنت تقول هذا وأنت سيد العارفين؟

— فى الزواج .. يختلف الأمر

— وماذا فعلت انت ؟

— نحاول باستمرار

— ... لن يثنينى شىء عن الحياة الصادقة

— معاك الله

— أعلم ذلك ... وسأصنعها مهما يكن الأمر ..

— لا أشك فى ذلك ..

— من طلب شيئا وجده

— ... صحيح !! صحيح ؟؟

— من يعرف روعة ما يمكن ؛ لن يخشى النار أو الصراط أو يرضى عن نفسه بديلاً .

— أحلم أحيانا يا عبد السميع أن نوصل بعض ما عايشنا إلى الناس

— تعلمنا استحالة التلاقين .. ولكن دعنا نأمل فى إمكانية الإثارة

— يا ولد !!!

— دعنا نأمل

— يا ترى يا بن الأشرم !! ...

— يا ترى يا إبراهيم .. يا ترى

بسمة قنديل

- مالك يا ابنتي ؟ عريس لقطة

— لا اعتراض لى عليه ، ولكنى لا أريد « هذا »

هذا . . ماذا ؟ أريد أن أطمئن عليك قبل أن أموت . . يا ابنتى إذا كنت لا تعترضين عليه فما هذا الذى لا تريدينه ؟ أنا صاحبة مرض ، وأنت تعلمين .

— لا أريد مالا يكون ، اطمئنى يا أمى ، فأنا أعرف طريقى

— ما هذا الكلام يا ابنتى ؟ لا تعجبينى هذه الأيام ، وكأنك تحملين هم الدنيا على رأسك وأنت روح قلبى الغالية .

— مادام فى الدنيا هم يا أمى ، فلابد أن يحمله أحد

— ماذا تقولين يا ابنتى ، خل الهم لأصحابه ، أنت شابة ، وأمامك العمر كله .

— وأنت يا أمى ؟

— أنا انتهيت والحمد لله

— انتهيت من ماذا ؟

— من واجبى نحوكم ، وأريد أن أطمئن عليك ، بسمتى آخر العنقود ، ثم يتذكرنى الذى لا ينسى

- كلامك يقطر مرارة

- استغفر الله ، ماذا بك يا ابنتى ؟



بسمة قنديل

- عاجزة عن مساعدتك

— نعم ؟ نعم ؟ انقلاب الحال آخر الزمان ، من الذى يساعد من ؟ الله يسامحك ، أنت بسمتى يا حبيبتى

— أنا بسمتك وأنت شقائى

— اللهم اخزك ياشيطان ، ماذا تقولين ؟ كل هذا حتى لا تقبلى ذلك الشـاب اللقطة .

— وأنت ؟ . . . لقد تزوجت زين الرجال

— الحمد لله . . . ربنا يطول عمره ، ماذا جرى لك ، هل يصل الأمر إلى لمز أبيك ؟ لا . . لست أنت بسمة

— أنا آسفة ، ولـكنى لن أقبل هذا أبدا

— هذا ماذا ؟ ماله يا ابنتى ؟ شـاب مستور ، أعرف عمته منذ كنا فى مدرسة المعلمات معاً ، وهو من عائلة فاضلة تعرف الأصول

— أتركينى يا أمى الآن . . الله يخليك

— سبحان الله . . أنت حرة ، ولـكنك ستندمين ؟

* * *

وأنت يا أمى ألا تندمين ؟ أنا أشبهك وأخاف منك ، أخاف أن ينتهى أمرى إلى ما أنت فيه الآن ، لم أرك فى حياتى تشعرين بشىء لك ، لك أنت ، أو تقولين قولا من داخلك ، شقاؤك يتحرك فى كل مكان ، يوهمك ويوهمنا أن الحياة تسير ، يارب ماذا أفعل لها ، يارب لم جعلتنى أرى هذه الحقيقة الآن هكذا ،.. كان مجرد حديث عابر بينها وبين أختى المتزوجة ،

لم تسعد هذه المرأة أبدا ، كتلة من الشقاء تتحرك ، ترشى أبى بالمديح والتأليه والطاعة طول النهار حتى يعفيها من متطلباته ليـلا : وجهها مازال ينبض بالحياة بالرغم من كل شىء ، وراء كل تجعيدة أخدود من الألم والحسرة ، شـعرها ناصع البياض يذكرها بالنهاية ، ولـكن مشيتها الريفية تمضى فى قفز مستمر تتحداه ويتحداها ، لماذا لم تستسـلم بعد ؟ ولماذا تصر بالرغم من مقاومتها أن أكرر نفس مأساتها ؟ هل تريد أن تطمئن على أنه ليس هناك حل آخر ، إنى أعتقد أنها تعى تماما بؤسها وشقاءها فلماذا تصدره إلى أعز الناس إليها ـ على حد قولها ـ هل تريدنى أن أنجح فيما فشـلت فيه . . ؟ ولـكن كل تصرفاتها وطريقة انتقائها تؤكد الفشل مسبقاً ، سمعتك تقولين لأختى فى صداق حكيم بائس إن المرأة هى الأولاد والبيت وراحة الزوج . . وأن عليها أن تقفل أذنيها ومشاعرها عما عدا ذلك ، هل وظيفتك يا أمى بعد طول هذا الـكفاح أن توزعين اليأس بالتساوى ؟ ياليتك قلت هذا الـكلام وأنت تلبسـين قناع البلادة والاستسلام مثل خالتى أم حسين أو جارتنا الست جليلة أو حتى مذيعات التليفزيون ، لـكنك دائمة الحركة دائمة الحديث دائمة الشجار عظيمة الشـقاء : ولـكن ها أنت تصرين على تكرار المسرحية بنفس فصولها ، ترى هل يداعبك أمل ما . . لاأعرفه . . ؟

— هل هناك أى أمل يا أمى ؟

— فى ماذا يا ابنتى . . ؟ الله يهديك ، مازال العريس يرسل المراسيل

— لايشغلك إلا عريس الغفلة ، أنت لست معى يا أمى أصلا . .

— بل أنا معك ولا يشغلنى إلا هناؤك ، فـكرى وهو مستعد لـكل طلباتك .

— أفـكر طول الوقت ، ولـكن فى شىء آخر

— خير ، هل هناك غيره يشغلك ؟

— نعم

— ليس لى إلا راحتك ، كلمينى عنه ، من هو يا ابنتى ؟

— أنت

— أنا ؟ كفى الله الشر . .

— أفكر فى إسعادك طول الوقت . .

— ماذا جرى لعقلك ياحبيبتى ، أنا سعيدة والحمد لله

— كذبت على كل الناس ولكنك لن تكذبى علىّ

— ماذا تقولين يابسمه . . ؟

— أحمل همك أكثر مما تحملين همى

— إذا كنت حقيقة تحملين همى فلماذا رفضت العريس ؟

— لأنى أحمل همك

— تضحين بمستقبلك من أجلى وتظنين أن هذا يسعدنى ، لا بد أنه قد جرى لعقلك شىء

— أمى

— روح قلبى

— لن أكرر مأساتك ولو أموت

— مأساتى . . عماذا تتحدثين ؟

— عن شقائك ، عن نسيانك لنفسك

— منك لله . أفسدتك كثرة القراءة

— لا تنسى أنى ابنتك ، وأنى أعرف ماذا أريد ، وماذا تريدين ؟ .

— .. وبعدين ؟ .. بعدين ؟

— لا تخفى الدموع التى تطل من عينيك ، فأنت لم تفلحى أن تتبلد مشاعرك أبدا

— بسمة .. أتركينى فى حالى : لا فائدة

— وهذا ما يقطع قلبى

— عن إذنك .. والدك ينادى

* * *

كل شىء يهون إلا أن أرى أمى هكذا . .

* * *

— ٢ —

ذهبت إليه بعد أن سمعت من أختى عنه ، كان أستاذها وتقول انه يفهم ويحس ، رحت أستشيره فى مشكلة أمى ولـكنه كان غبياً وقحاً وقاسيا ، لو أنه اكتفى بأن قال لا فائدة مثلما قالتها أمى ، لقلت طبيب عاجز وانتهى الأمر ، ولـكنه قلبها على رأسى وقال إنى لا أهتم بها اهتماماً حقيقياً وإنما أهتم بنفسى ، ليـكن ، ما ذا يضيرنى لو اهتم بنفسى ، ؟ ولـكنه لوح لى بأنى أنا التى ينبغى أن أعالج ، لم يقلها صريحة ولـكنه ألقى بطُعم الأمل بشكل ما.. مهما يكن من أمر ، فأنا أمامى الدنيا واسعة والعمر طويل ، المهم ان تذوق هى طعم الحياة قبل أن ترحل بكل هذا الشقاء وهذا الألم الطاحن .

— مالك يا ابنتى كفى الله الشر ؟

- أفكر فيك ليل نهار

— هذا ما لا يمكن أن يستمر ، لا بد أن بك شيئا هذه الأيام ، ماذا جد على حتى تنصبى هذا المبكى ليل نهار ، وكلما سألتك قلت أفكر فيك.. أفكر فيك ، ماذا بك يا ابنتى يا حبيبتى ؟

— أنا ليس بى شىء ، ولكنه بك أنت .

— أستغفر الله العظيم ، لا لقد أفرطت يا ابنتى ، هذا أمر لا يمكن السكوت عليه ، لعلها مصيبة من المصائب « الموضة » التى يقرفوننا بها هذه الأيام فى التليفزيون .

— أى مصيبة يا أمى . . ؟ هل عيب أن أنشغل بك ؟

- لولا الملام لذهبت بك إلى طبيب نفسانى ؟

— لا ملام ولا يحزنون يا أمى . . لقد ذهبت بنفسى

— حسرة قلبى ، لقد كنت أمزح ، لماذا ذهبت ؟

— ذهبت من أجلك

— نعم ؟ نعم ؟ تفضحيننى بتخريفك أمام الغرباء ، وهل شكوت لك من شىء . .

— لا . . لم تشتك وهذه هى المصيبة . . كل ماقلته له أنك لا تشتكين من شىء .

— عقلى سيطير بحق . . ذهبت تقولين للطبيب أن أمى لا تشتكى من شىء، لا حول الله يا ربى .

— نعم .. هذا ما حدث

— سبحان الله يا بسمه .. سبحان الله .. وماذا قال لك ؟

— قال . . وانت مالك

— عين العقل .

— ولكنه أضاف أنها مشكلتى أنا ، وأنه علىّ أن أتغير جوهرياً لأتجنب مصيرك .

— مصيرى ؟ ما له مصيرى الله يسامحك ؟

— هذه ليست حياة يا أمى .

— وكيف تكون الحياة إذاً يا ست بسمة . . ؟

— شىء آخر ، أكاد أكون متأكدة أنك تعرفينه .

— أنا ؟ لماذا تتكلمين بلسانى ، وتحسين بجلدى ، وتتألمين بمشاعرى ، أكاد أصدق الطبيب أنك لا بد أن تنظرى فى نفسك أولا .

— لكن . . أنظر فى نفسى لأعرفك أكثر

— وما ذنبى أنا ، تحشريننى بين عظمك وجلدك وتنعين حياتى قبل الهنا بسنة . ؟

— أين الهناء الذى تتكلمين عنه ؟

— الهناء فى الرضا والحمد لله .

— ولكنك غير راضية

— أستغفر الله العظيم ، هل ينقصنا هذا الهم الذى تطحنينه ليل نهار ؟

— لا . . إن المصيبة أنه لا ينقصنا ، ولكننا لا نريد أن نواجهه .

— كيف نواجهه يا ابنتى الحبيبة ، أنت صغيرة على هذا الكلام الكبير يا حبة عينى

— لم أسمعك مرة تتحدثين مع أبى كما يتحدث الناس

— ماذا تقولين ؟ إذاً كيف أتحدث معه ؟

— لم أسمعك مرة تقولين له . . كيف حالك «مثلا»

— ما هذا الذى تقوليته ؟ أنا ليس لى فى الدنيا إلا « حالُه »

— لم تقوليها مرة واحدة من قلبك .

— قلبى ؟ إيش عرفك أنت بقلبى ؟ ، إسمعى لا تدخلى أباك فى الأمر ، أنا ليس لى فى هذه الدنيا إلا العمل على راحته ليل نهار .

— ولكنه لم يرتح وأنت خير من تعلمين ذلك .

— أنا عملت ما علىّ ، وهذا طبعه ، ولا توجد امرأة فى الدنيا تستطيع أن تعمل مثلما عملت أو تضحى مثلما ضحيت .

— هذا هو . . .

— ما هذا الذى هو يا بسمه . برج من مخى سوف يطير .

— وأنا برج من مخى قد طار فعلا .

— اسم الله عليكى وعلى حواليكى ، ماذا جرى ؟ .

— ويا ليته طار واختفى وأراحنى ، إلا أنه وقف على رأسى يضيف تعليقاً ساخراً . على كل ما يدور حولى

— لا . . لا . . لا . . فى الأمر شىء خطير ، أنا لا أفهم ما تقوليته ولكنه خطير .

— أسمع تعليته أحيانا وكأنه ينبع من داخل الآخرين ، يبدو كأن هذا البرج الذى طار من مخى له أبراج صديقـــه تشبهه ، عندك مثلا وعند أبى ، .. وعند كل الناس ، وهو يستطيع أن يفهم لغتهم وربما يحدثهم مباشرة من ورائى

— ما هذا كله ؟ . . ما هذا كله ؟

— هذا الذى حدث فجأة حين استيقظت على شجارك مع أبى قبيل الفجر ذات صباح .

— لا تلصقيها بنا ، نحن لا نتشاجر أبداً ، كان تفاهما بصوت عال

— سمه كما تشائين ولـكن من يومها وهـذا البرج قد طار ، وأخذ يترجم لى ما تقوله أبراجكم .

— أبراجنا . . ما ذا تقول؟الله يشفيك .

— أخشى أن أقلب كيانك .

— لقد قلبته والذى كان قد كان .

— أسمع « برجك » يقول شيئا آخر غير ما تقولينه لأبى .

— شيئا آخر ؟ ماذا يقول « برجى » من ورائى يا ست بسمة ؟

— يصر على المعرفة .

— ماذا فى هذا ؟ طبعاً أحب أن أعرف ما يدور . . الله !

— أخشى أن تختل الأمور . . لو عرفت ..

— قولى لى بعض تخاريفك . . . يبـــدو أن فى الأمر بعض التســـلية .

— هذه لعبة خطيرة . دعيني وشأني

— ولكنه ليس شأنك . . بل شأني أنا . . حدثيني الله يهديك

— إذا قلت لأبي ، « ربنا يخليك » ، سمعت برجك يقول « حتى أشفى بانتقام الأولاد منك جزاء ما فعلته بي »

— يانهار أسود

— وإذا قلت له « أنت سيد العارفين » سمعت برجك يقول « ياجاهل يا غبي » .

— أهذه آخر تربيتي فيك ..؟

— وإذا قلت « أنا تحت أمرك » سمعته يقول « حتى أضمن سجنك في خدماتي وتضحياتي » .

— كفى كفى يابسمة ، سلامتك يا ابنتي ألف سلامة ، لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، اسم النبي حارسك وضامنك . . لابد أن تذهبي إلى الطبيب فورا ..

— ولكني لا أشـــكو من شيء يا أمي ، كل مافي الأمر أني رأيت شقاءك رؤى العين

— شقائي ، مالك أنت وشقائي ؟ لقد حدث لعقلك شيء والذي كان قد كان .. استغفر الله العظيم . . ارحم يامن ترحم ، لابد من الطبيب فورا .

— قلت لك أني ذهبت فعلا ، ولكن من أجلك أنت . . وقد قال لي لا شأن لك بها ، أنت التي تحتاجين للمساعدة .

— هذا هو ؟ لقد كان طبيباً ناصحا وعرف أنك أنت التي تخرفين ، اذهبي له يا ابنتي الله يهديكي .

— لماذا ؟ لأنى أعرف ما بداخلك ؟ لأنى أقرأ عينيك ياحبيبتى يا أمى .

— حبيبة ماذا ونيلة ماذا .. حاسبى على نفسك ولا تستمرى هكذا ، بعيد الشر عنك ألف مرة .

— الشر ليس بعيدا يا أمى ، الشر فى داخلنا يطحننا ، الشر هو الجبن والنفاق والكذب ، وأنا لم أخلقه من عندى ، أنا أعلنته ليس إلا .

— الله يسامحك ، كان الله فى عونك .. لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

— كان الله فى عونى أنا ؟

— أصحاب العقول فى راحة ، من أين يارب أرسلت لنا كل هذا البلاء ؟ .

— ....

— خير يا بسمة لماذا سكت ؟

— ....

— بسمة يا ابنتى فيم سرحت .. ؟

— آسفة يا أمى آسفة ، كنت أمزح وزودتها حبتين ، أرجو أن تنسى كل ما كان ، هل هذا معقول أن أعرف شيئا من داخل أى بشر ، كانت لعبة أثيرك بها وطالت منى بالرغم عنى ، آسفة يا أمى آسفة .. سأذهب من فورى .

* * *

— ٣ —

يا ويحى ماذا فعلت بأمى نتيجة لتهورى وجنونى ، ما الذى دفع بسيل الألفاظ يجرف كل ما يقابله حتى تصدعت القوائم واختل الأساس ، قلبت كيانها رأسا على عقب ولم تنفع كل تراجعاتى واعتذاراتى ، !! ، ماذا أفعل لك ياحبيبتى يا أمى ؟ ، لم أستطع أن أحتمل رؤية شقائك . . وإذا بى أصبح سبباً فى إذكاء نار جحيمك ليل نهار ، لسانك يقطر مرارة وأنت تقولين لأختى أنك لا تعرفين المتعة اياهاً أصلا ، ولا مرة واحدة . كنت تنصحينها أن تكون مثلك حتى تعيش وتتستر ، هأنذا أنصحك ألا تكونى مثلها ، أنت ما زلت أكثر حياة وإحساسا منها . . ولكنى جئت أكحلها عميتها ، أنا مجرمة ولن أغفر لنفسى ما حييت ، قال لى الطبيب لا فائدة ، وقد قلتها أنت مرارا قبل ذلك ، فما فائدة كل هذه الحمم التى ألقيتها عليك وكأنى كنت أنتقم من استسلامك وسلبيتى ولن يتكرر ما حدث ما حييت ، سوف أعيش أكفر عنه بقية عمرى ، يا رب . . كيف أمحو ما قلته لها ، كيف أرضيها ، كيف أجعلها تنسى . هل أتمادى فى تصنُّع الخبل حتى تطمئن أن ما قلته لا يعدوا أن يكون تخريفاً عابراً ، ولكنها أذكى من أن تصدقنى ، ليس أمامى الا إعلان الهزيمة واتقان دورى المفروض فى هدوء وصبر حتى أقتل « الآخر » فيها وفى ، فلأقبل عريس الغفلة ، هذه قسمتى وقسمتها ، اذا كنت لا أستطيع أن أرفع عنها الظلم فلأشاركها فيه وتسقط كل محاولات الحياة .

— أنا موافقة يا أمى

— على ماذا يا ابنتى ؟

— على الخطيب ، ابن أخ صديقتك

— أبداً ، ما دمت حية

— ماذا جرى لك يا أمى ؟ ، كنت تلحين علىّ ليل نهار

— غيرت رأيى

— ماذا جرى يا أمى ؟ أنا أطلب رضاك وأعلم أن هذا يسعدك

— لم يعد يسعدنى

— ماذا جرى ؟ بالله عليك ؟

— تعالجين أولا ..

— أعالج من ماذا ؟ لقد كنت أمزح وانتهى الأمر

— حتى ولو كان حلماً وليس مزاحاً فقط ، فلن أتمسك بيدى ، لا يمكن أن يحدث هذا ما دمت حية .

— تقمسيننى ؟ تقولين إنه من أحسن الشباب .

— كان زمان

— ماذا جرى له فى يومين ، لقد كان دفاعك عنه وتعديد ميزاته أول أمس .

— أول أمس أصبح « زماناً » الآن ، ونحن أبناء هذه اللحظة

— تتقلب الأمور هذه الأيام بسرعة ، حتى معك يا أمى

— أدفع عمرى وتعالجين يا ابنى .

— اعالج من ماذا بالله عليك .

— لست ادرى .

ـ تحسبينى مجنونه

ـ أبداً والله . . . خطر هذا الخاطر على عقلى فترة ولـكنى تأكدت بعدها من صدق رؤيتك .

— . . ياخبر !! . . إذاً مم أعالج ؟ من صدق الرؤية ؟ ثم إنى أكرر لك أنى كنت أمزح . .

— ليس لدى ماأقوله إلا أن الطبيب أشار عليك بهذا ، وهو عين العقل

— عين العقل . . أن اعترف أنه ليس عندى عقل ؟

— بصراحة يابسمة ، لقد أيقظت فىّ أملا لم أستطع أن احققه فلتحققينه أنت ، . . وأنا أحس أن هذا الطبيب يعرف الطريق . هذا كل ما هنالك

— وأنت يا أمى ؟

— اسألى طبيبك . .

— ليس طبيبى بعد ولم أقرر الذهاب .

— اسأليه حين تذهبين ـ ولسوف تفعلين من أجل خاطرى ـ فإن أشار عليك أن أذهب فلسوف أذهب دون تردد .

— لقد قال لا فائدة

— لا فائدة من حالتى أنا ، . . أما أنت . . هذا شىء آخر

— أنا مالى ؟

— الله ؟ . . أنت تعرفين كل شىء

— أخشى ياأمى أن أحيى فى نفسى أملا يشقينى ويشقيك أكثر وأكثر.

— لقد محاو الذى كان قد كان ، فإما أن تحققيه وإما أن تقتليه، والطبيب قد يساعدك فى كل حال

— ومن أدراك ؟

— إحساسى وكلامك عنه . . يبدو أنه يعرف الطريق .

— المهم أن أعرف أنا الطريق . .

— ٤ —

أعالج ؟ أعالج من ماذا ؟ من رؤية الحقيقة ؟ من إحياء الأمل . . لو كنت اسمع أصواتا أو أرى خيالات . . لو كنت أهذى أو أهيم على وجهى . . ، كل ما هنالك أنى رأيت ، ثم قلت ما رأيت وإذا بكيانها ينقلب بلا رحمة ، وهاهى ذى تتراجع حتى عن الخطوبة ذاتها ، كانت خطوبتى هى سعادتها وسترى هو آخر أمانيها ، ثم ها هو ذا علاجى يصبح أولى مطالبها ، هل حالتى خطرة إلى هذا الحد ، أو أنها صدقت حقيقة رؤيتى ؟ هل تريد أن أحقق ما عجزت هى عن تحقيقه كما تقول فيكون فى سعادتى سعادتها ؟ مهما يكن من أمر فقد تورطت بالحديث معها ، وتورطت أكثر بالذهاب إلى هذا الطبيب ، لم أقاوم كثيرا وادعيت أنى أذهب إرضاء لها ، إنى أفهم أن تكون مهمة الطبيب أن يستأصل الزوائد المرضية — ويخفف من حدة الآلام ، ولكن هذا الرجل يزيد ما أصابنى من تضخم فى الرؤية ، يريدنى أن أرى أكثر ويتركنى أتألم بلا رحمة ، ثم أخيراً هو يحملنى مسئوليتها ، هذا إجرام متستر . . مع سبق الإصرار ، الحزن يلفنى من كل جانب ، عمرى ألف عام ، لم أعد أستطيع مزيداً من التعرى ، أحس أنه لم يبق فى كيانى خلية لم يفتضح أمرها ، بل إن كيان الآخرين أصبح لدى صفحة مفتوحة ، مقروءة لأى عابر

سـبيل ، كنت أحسب أن المصيبة مقصورة على أمى وأبى وأختى وزوجها ولـكن يبدو أنها مصيبه عامة حتى أصبح الـكذب والشقاء هو الأصل ، ماهذا الذى يجرى بين غالى وملـكة طول الوقت ، أسمع النقاش المضحك بينهما ، وبرج عقلى الطائر يسمع حقيقة ماوراءه واضحاً لالبس فيه ولا غموض ، يتكلمان عن الاشتراكية وطحن الإنسان المصرى وبرج عقلى الطائر يسمع أشياء أخرى ؟

مرضى أن اسمع الحوار « الآخر » بين أبراج عقل البشر ، ها هو غالى وزوجته حين يحب بعضهما الآخر كما يصورها برج عقلى :

[— كم أكرهك يا غالى

— من القلب للقلب رسول ، يا ملـكة يا آكلة لحوم البشر

— لن أتركك تتمتع بحريتك إلا على جثتى

— وأنا سأستغلك حتى الثمالة

— أنا التى امتص وجودك وأسـجنك فى آرائك التى حسبت أنك تفرضها على بادىء الأمر

— وأنا ألهيك فى مشاكل لاتخصك حتى أستمر فى العيش على حسابك

— تضحك على نفسك وأنت مستسلم تماما

— شكلك كالبومه يابنت الـكلب

— لن تتخلص منى حتى أزهق روحك]

ومع ذلك أصر أنى لم أجن ، فهذه ليست أصوات أسمعها ، ولـكنها رؤية كاملة ، كنت أسمع أصواتهم الحقيقية تتبادل الآراء فى السياسة والثورة ، ثم أرى هذه الصورة الأخرى وراء نقيق الضفادع الذى يتبادلونه ، أصبحت قراءة القسمات والخلجات هواية مرعبة ، نظرات فردوس الطبلاوى

تهتف بى كل مرة أن أكف عن المجىء ، امرأة طيبة متواضعة ، ألفت شقاءها فى لحظة وانطلقت تتمتع بجسدها وزوجها « حسب التعليمات » كما تصورتها ، ولكن يبدو أن زوجها عبد السلام غير راض عن هذه السعادة الرخوة ، ليس على بالها الآن إلا الإشراق والجنس والمتعة ، ترفض شقائى - وهى تناديني - صامتة أن أكف عن المجىء ، أحس أنى أكبر منها عشرات السنين ، التعرى فى هذه المجموعة يلهب كل خلية فى وجودى ثم يتركنى معلقة بين السماء والأرض ، علاج يعمق التناقض ويشمل الألم ، فردوس ذات الأربعين تعيش سعادة الأطفال وأنا أعجز من أهل الكهف ، لو علمت يا أمى ما يجرى هنا لراجعت نفسك قبل أن تدفعينى للعلاج ، ترى لو كنت جئتِ بدلا منى - هل كانت براعمك ستتفتح من جديد مثل فردوس الطبلاوى ، إذاً لطلقك أبى بعد خمس دقائق أو سلمك للسراى الصفراء مع مخصوص ، ومع ذلك فردوس ليست سعيدة كما تصورت السعادة ، عبد السلام يأخذ منها وجه القشدة ثم يعيب عليها أن اللبن حامض ، مختار لطفى يلتهمها على ما قسم فهو لا يدع أنثى إلا ونادها نداءه الصامت ، موقف عبد السلام يحيرنى ، ماذا يريد منها بالضبط ، سمعته يقول مرة « من يضمن الاستمرار لو سلمت لهذه السعادة السهلة ، مازلنا على الأرض يا فردوس ولا بد للسعادة من أشواك تحميها حتى لا يقطفها عابر سبيل ثم يلقيها بعد بضعة خطوات ، يريد ضمانا مدى الحياة ، سمعته يقول لها ذات مرة « لا يمكن الاطمئنان لإنسان بلا أعماق » وردت فى صمت أيضا « .. من أين أشترى لى اعماقا حتى أعجبك » امره عجيب ومحير ..، الظاهر ان الحق معك يا أمى ، والدى أول من سيرفض سعادتك ، الرجال يرفضون سعادة النساء ملكهم ، يخافونها ، ولكن

عبد السلام ما زال يواصل المسـيرة ، يبدو وأنه ينقصها شيء هام ، شيء أساسي قد يسمح لعبد السلام أن يطمئن ، ما أصعب كل هذا ، عيناها يبلغاني الرسالة بإصرار عجيب . « قلبي عليك يا بسمة يا حبة عيني » ماذا تريدين مني يا فردوس ، يبدو أننا تبادلنا الأدوار ، أنت طفلة سعيدة وأنا عجوز أصابني داء الحكمة ، هذه المسكنات لا تدوم يا فردوس وهذا ما يخيف عبد السلام منك ، أنت وأمي وجهان لعملة واحدة ، أنت ضائعة في السعادة الرخوة ، وهي ضائعة في الشقاء المر ، ما زلت أواصل علاجي من أجلها . . أو هكذا أحاول أن أقنع نفسي ؟ . ليس عندي أمل في أن أحقق شيئا ذا بال ، ولا عندي أمل في أن أقتل أملي في ذلك الشيء ، قد تكون فائدة حضوري إلى هنا أن تعتقد أمي أني مريضة فعلا ، فتنسى ما قلته لها يوما في لحظة تهور أعمى ، لن يرحمها من حقيقتها إلا إقناعها التدريجي بأن كل ذلك كان جنونا ، أو تخريفا . .

يا رب سامحني

ولا تحرمها نعمة العمى . .

— ٥ —

احتد الديالوج المرئي بين غالي جوهر وزوجته المصون المقدسة ملكة ، حتى دخلت طرفا ثالثا دون إذن مني ، نظرات غالي لا تتركني منذ عدة أسابيع ماذا يريد مني ؟ ، أحيانا ينقل نظراته بيني وبين زوجته وكأنه يستنجد بي منها ، أنا لا أريد أن أقلب كيانه أو كيانها مثلما فعلت بأمي ، لن أتقدم خطوة حتى أرى أي نجاح يطمئنني على شرط أن يسير على أرجل ، لو عملها

عبد السلام وفردوس . . لوتم ما يجرى بين إبراهيم ونجوى ، لو غامر كال فتحمل مسئولية الكلمة دون جنون أو انتحار ، أى من هذا سيطمئنى أن « هذا الشيء » ممكن ، ولسوف ألقى بنفسى إلى الأتون مباشرة ، وسوف أقلب تاريخ البشر ، ولكن شيئا من ذلك لا يحدث ، ماذا تريد منى ياغالى أنا أشفق عليك وأراك تضرب بجناحيك فى قفصها المحكم ، أكاد أقضم منقارك وأنت تلتقط ما تلقيه لك من حب ، هل تريدنى أن أفتح لك القفص ؟ سوف تطير إلى قفص آخر فلقد نسيت قيمة الخلاء ، أحيانا تطلق سراحك من قفص حبها إلى حظيرة مبـــــادىء الحزب دون أى طيران خطر ، جناحاك أثقلهما الخوف وريشك مندوف أولا بأول ، تحبنى ياغالى ، أقرأ ذلك على وجهك ولكنك لا تعرف معنى الحب ، لا أنت ولا كل من يقترب منى يعرض على عواطفه فى بلاهة مضحكة ، والمصيبة أنى أعد من الجميلات ، يحجزنى هذا الجمال وراء تقاطيعى المتناسقة هذا أنا ، فإذا أضيف إلى شكلى ما يتصورونه من رقتى وذكائى المزعومين ، ضعت أنا بلا أمل فى إنقاذ ، مشكلتى هى التصدى لهؤلاء المخدوعين لا أحد يعرفنى وخصوصاً أنت يا غالى .

عندك حق يا فردوس ، ورطتى أكبر من كل تصور ، كيف سأتزوج حسب رغبتى وحلم أمى القديم وطبيعة الحياة ، لا أنكر أنى أغلى بالرغبة ، هذا الالتحام مع آخر حتى الذوبان فى كتلة واحدة من اللحم الذى يغلى باليقظة والنشوة يتمثل أمامى فى كل لحظة ، ولكن كيف السبيل إليه دون بيع أو شراء ، لا أخدع فى العلاقات الحرة المزعومة فهى أخبث من الزواج فى نظرى ، هذه العلاقات تشبه حجز ليلة فى فندق عام ، أما الزواج

فهو عقد إيجار مفروش ، استدرجت نادر زميلى أمس إلى بوفيه الكلية لأقطع عليه أحلامه التى تتبعنى فى كل مكان فى الكلية ، لابد وأن يعرف أنى غير صالحة لما يدور فى ذهنه ، عرض على الزواج ظاناً أنى دعوته لذلك ، ابتسمت وأنا أنظر إلى المنديل الورق الملقى بجوار فنجان الشاى ، كانت بنود العقد التى كتبها برج عقله إياه ، مكتوبة بوضوح عليه ، « عقد إيجار مفروش » : يعرض الطرف الرجولى المدعو « نادر » أن يقوم بتأجير الجسد الأنثوى ـ الذى تحتله الآنسة بسمة قنديل ـ معظم ليالى الشتاء وبعض ليالى الصيف ، وذلك على أن يظل حالياً محجوزا بقية أيام العام لحسابه الخاص مقابل أن يقول لها أحبك ثلاث مرات يومياً لمدة ثلاثة شهور تتناقص بمرور الزمن ويمكن أن تزاد أو تنقص لفترة محدودة حسب الظروف لو تعرض هذا الجسد للاتلاف أو العطب نتيجة لسوء الاستعمال . »

ـــ فيم تفكرين يا بسمه

ـــ أقرأ شروط العقد يا نادر

ـــ أى عقد تعنين

ـــ أنظر إلى هذه النقوش على المفرش الورق .

ـــ جميلة

ـــ خسارة أن نلقى به بعد استعماله . .

ـــ أفضل من الغسيل والمكوى

ـــ الاختراعات تتجه إلى الاستسهال ، فتنتهك حرمة كل أصالة

ـــ حكمتك تخيفنى أحياناً

— هلا حاولت أن تقرأ معنى هذه النقوش يا نادر ؟

أخذ منديله بين يديه يحاول أن يقرأ نقوشه فى بله عظيم ، واستمرت عيناى تتابع بقية بنود العقد فى صمت « . . على أن تقوم هى بتكاليف أكلها وكسوتها من مرتبها الخاص حسب القوانين الحديثة لتحرير المرأة » .

— لا أفهم ما تعنين ، أعرف من تقرأ الفنجان ، ولكن هذه أول مرة أسمع عمن يقرأ مناديل الورق . . يبدو أن فى الأمر لغزاً .

— ليس لغزاً ولايحزنون ، هأنذا أقرأ أمامك فحاول وسوف تجد السر

— سر ماذا ، هذه نكتة ، أنا أعرف سخريتك ولكن هذا أكبر من احتمالى

— حاول ودعنى أكمل .

— تكملين ماذا ؟

— أكمل القراءة يا أخى

— سأصبر عليك حتى أفهم ، هات

ومضيت أقرأ بقية البنود فى صمت أيضا

« . . كما يقوم السيد الرجل ، دون اعتبار لدرجة غبائه ، بالاستيلاء على روحها تدريجياً ، ويشترط أن تكف هى عن التفكير نهائياً قبل مرور خمس سنوات من إبرام هذا العقد »

— ماذا وجدت يا بسمة ؟ تبدين وكأنك تقرئين شيئاً مكتوباً فعلا

— فرصة عابرة أردت أن أسمح لنفسى أثناءها بالتفكير العميق فى عرضك .

ـــ ولكنك كنت منهكة جداً ..حتى تفصد العرق من جبينك وأنت تحملقين فى الورق

ـــ كانت شروطاً صعبة

ـــ أى شروط . . ؟

ـــ والمصيبة أن كل النساء يتقبلنها بترحاب شديد

ـــ يتقبلن ماذا يا بسمة ، لا تحيرينى

ـــ ولكن يبدو أنهن يضمن التنفيذ لصالحهن

ـــ لا ... هذا كثير ..

ـــ أعرف أنك لا تحتمل شطحاتى

ـــ للمزاح حدود ، وأنا لا أعرف عنك إلا الرقة والعقل والاتزان ..

ـــ شكراً ، ولكنى قررت أن أشكرك على ثقتك وأن أرفض عرضك تماماً . . دون أن يكون فى ذلك جرح لك فإنى أقدرك وأعتز بمشاعرك نحوى

ـــ . . أنا أحبك يا بسمه . .

ـــ أعلم ذلك

ـــ أنا آسف إن كنت قد ضايقتك باعتراضاتى ولكنى لم أفهم .

ـــ لقد سرحت أكثر من اللازم وهذه غلطتى

ـــ هل أنت مصممة ؟

ـــ تمــاما

ـــ قرار نهائى

ـــ جدا .

ـــ . . . ولـكنى سأنتظرك ما حييت

ـــ ما حييت ؟ لا تطل الانتظار يا نادر وإلا فإننى سأتألم لك بلا داع

ـــ أنا حر أنتظر كما أشاء ولا أريد الضغط عليك ، عن إذنك . .

عندك حق يافردوس ، ورطتى فى هذه السن أكبر من كل تصور ، لا بد أن أفقد الوعى قبل أن أوقع مثل هذا العقد ، نجوى شعبان عجزت عن تنفيذ بنوده فهجرت زوجها وابنتها وها هى ذى تبدأ من جديد ، ويا ترى هل تستمر أم تعاود الـكرة بعمى أشد يحميها من قراءة كل البنود بهذا الوضوح ، لقد نجح الأطباء فى إعادة الإبصار للعمى فلماذا لا يقوم طبيبنا هذا بإعادة العمى للمبصرين ؟ ما زلت أذكر حديث نجوى مصباح الحى الصادق وأذكر برج نخى وهو يقرأ النسخة الأصلية تظهر مكتوبة على ناحية بجوار حديثها الظاهر كأنها مجلة ميكى . .

ـــ لماذا كل هذا الحزن يا بسمة ؟

= (أنا فخورة بك وبشجاعتك)

ـــ . . . .

ـــ أنت رقيقة ، فهلا اكتفيت بذلك ومضيت تسعدين بشبابك

= (إياك أن تصدقينى واستمرى فى طريقك)

ـــ . . . .

ـــ أشفق عليك بصدق

= (طريقك هو عين الحق . . صدقينى)

ـــ . . . .

كنت أرد عليها بصدق ولكنى كنت أحذر أن أتمادى فى إخبارها عن حقيقة ما أراه داخلها ، لأنى لم أكن متأكدة إن كانت سترجع إلى زوجها وابنتها أم ستواصل رفع الحجر بكفيها الداميتين إلى أعلى الجبل ، ولقد تعلمت منذ حكايتى مع أمى ألا أقترب منهن أو أعلن محتوى الحوار المرئى أبدا .

كمال يفهمنى بلا حديث ، ويبدو أنه يستطيع أن يقرأ الديالوج المرئى مثلى تماما ، أما عبد السميع فالله يغفر لى إذ كدت أبصق عليه وهو يتشنج فى نقاش مع إبراهيم الطيب ، ما أصبرك يا إبراهيم وما أوسع صدرك .

— ٦ —

— أنت معى يا كمال

— بكل قلبى . . وأنت تعلمين

— وهل رؤيتنا هى الصحيحة ؟

— صحيحة . . وصعبة

— يعنى مستحيلة

— يا ليت

— لا فائدة إذاً

— تقريباً

— أنت فنان وتستطيع أن تصوغها فى رمز للمستقبل ، أما أنا . . أما نحن ؟!

— لم أعد فنانا ولا يحزنون

— هل كتب علينا أن نهيم على وجوهنا بغير هدف ؟

— لا شىء يعين

— هذا كلام مزعج ، ولا أحسب أنك تصدقه على طول الخط

— هو مزعج فى البداية ولكنه مريح بشكل ما

— ولماذا لم تسترح

— لأن فرشاتى جفت وسن قلمى قصف

— . . . وبعد

— أنا فى انتظار الفرج فى الفرشاة القلم

— . . . والحياة ؟

— حياتى فيهما ، أرسم المستقبل لمن يصنعه . . فيما بعد . . لك

— . . أنا . . . ؟

— يعنى . .

— ولكنى فى أول الطريق . . . أريد قدوة ومثلا

— ولكنك فى النهاية تحملين عبثاً .. ما أثقله

— تقول مثل الطبيب ، على كل واحد أن يحمل مسئولية قراره ، . . ولكنك أرق منه ، أتساءل أحيانا ماذا يعمل فينا بكل هذا التخلى .

— يربط لكل واحد منا طائره فى عنقه .

— ولكنى أحيانا أراه يربط غالى فى عنق ملكة حين يحاول أن يطير منها .

— يبدو أنه يعرف أنها ندفت ريشه من قبل ..

— لكن مارأيك فيه

— فى من ؟

— فى شيخنا هذا

— أعجب بمهارته أحيانا ، ولكنه موقف فنى ليس له علاقة بالطب والحياة ،أعجب بمهارته الفنية أساسا ..

— تمنيت فى كثير من الأحيان أنى ولدت ابنته .

— حذار من الاعتماد عليه وإلا فقدت نفسك

— حاولت الاعتماد فعلا ولكنه راقد فى الخط ، لا سبيل إلا الالتفاف من باب آخر

— بل هو أخفى مما تظنين .

— إن كان ثمة حب . . فأنا أحبه . .

— حذار ، فأنت تعرفين كل شىء وأخشى أن يشكلك على مزاجه . .

— . . . لا أبيع نفسى ولو للإله نفسه ، ولكنى لا أستطيع أن أن أعيش وحيدة ، وأنت جبان .

— حرصى على حريتى لا مثيل له

— هل ثمن الرؤية التى ابتلينا بها هو الوحدة حتى الموت .

ـــ يبدو ذلك . .

ـــ الموت أهون يا كمال .

ـــ وأشرف ، ولكنك صغيرة ، ولعل حلا آخر ينتظرك .

ـــ لاتلق علىّ عبء الانتظار ، ولا تنتظر منى أن أحقق ما فشلت فيه.

ـــ أنت خبيثة ، صغيرة .. لكن خبيثه .

ياليتني تعلمت فناً أفرغ فيه شحنات هذه الرؤية حتى أعفى نفسى من رؤية الفشل المرّ على أرض الواقع ، ولكن هاهو ذا كمال يفشل فى أن يواصل رسم المستقبل يحاول أن يتخلص من أثقال الواقع فيجد نفسه متفرجا فى عيادة فنان أخطر ، نقاش إبراهيم مع عبد السلام يجذب انتباهى أحيانا ولكننى أتقزز من تشنج عبد السلام .

ـــ إبراهيم إنسان رائع يا كمال

ـــ وعنيد . . ولكن من يدرى حقيقته وراء كل ذلك

ـــ لو نجح مع نجوى فسأعلم أن كل شىء ممكن

ـــ إنه يحاول النجاح مع كل واحد حتى عبد السميع

ـــ لا أطيق رؤية عبد السميع

ـــ إصراره على المجىء بانتظام يغفر له عماه

ـــ وعبد السلام صبور ومثابر

ـــ ومناور كذلك . . ولكنه قد يستسلم لطبق القشدة

ـــ لا أظن ، لو تم نجاحه مع زوجته فهو المعجزة بعينها

ـــ أشفق عليه من أحلامه

ـــ ترى هل نستطيع أن نتكاتف لتحقيق نجاح واحد منا على الأقل.. ربما أحيا ذلك الأمل فى نفوسنا . .

ـــ لن أخدع فى التماس الدفء باقتراب خائف

ـــ أرفض يأسك وسوف أعلن التحدى

ـــ تذكرى قول عمنا ، القوة على أرض الواقع هى وحدها القادرة على قول « لا » ومن هنا نبدأ ، ذاكرى يا شاطرة . . فمن يذاكر ينجح

ـــ تخاف من نجاح أى آخر حتى تبرر عجزك

ـــ وراء رقتك نمرة ذكية مفترسه .

ـــ ووراء حكمتك ثعلب مراوغ عداء

ـــ نظل أصدقاء

ـــ لتكن صفقه أشرف من عقد إيجار مفروش

ـــ لاتبخلى على أحد بما يدور بخلدك

ـــ لن أسكت بعد اليوم

— ٧ —

لم أكد أعبر عن رأيى فى عبد السميع بصدق مباشر حتى كان ما كان ، لست أدرى ما الذى دفعنى نحوه ثائرة مفترسة ، كرهت وجهه وصفرته وهزة رأسه وإصراره على العمى وكلامه الشاحب عن الدين والطاعة ، يبدو أنه لم يكن ينتظر ذلك ـ ومنى بوجه خاص ، لما انفجر كالبركان رعبت أول الأمر ، وأحسست أنى أنا التى انطلقت من داخله أحطم كل شىء ، عاودتنى الشجاعة وساهمت فى ضبط حركته والحد من مضاعفات ثورته ، نظر إلىّ فى عتاب

والم لم أر مثلهما فى حياتى،شىء ما اهتز فى كيانى حين أصر أن هذا هو كل ما يعرف من إحساس، رعبت رعباً حقيقياً من التمادى فى هذه اللعبة، تمنيت أن ترجع بى الساعة سنة كاملة إلى الوراء وأن يأتى هذا الخطيب الذى عرضته علىّ أمى وأن أقبله فوراً، وأحسست فعلا أنى على أبواب الجنون إن لم أكن قد جننت فعلا، من يضمن أى شىء بعد ما حدث الذى حاث، عبد السميع الأشرم آخر من كنت أتصور أنه قادر على النطق باسمه بصوت مرتفع؛ لكنه فعلها كالنمر، لماذا أحس نحوه بكل هذا الحب الغامر؟ أخذت ألوم نفسى على سابق احتقارى له، لكنه تمادى فى ثورة عمياء ومع ذلك لم تعاودنى رغبة الهزء به أو النفور منه، كل أعمى مهما بلغ عماه هو بصير ولكنه عاجز، ومن ذا الذى لا يقبل العجز إن كان البديل هو الجنون ذاته، الوحيد الذى لم يهتز ولم يتراجع أمام ثورته هو إبراهيم الطيب، ظل يواصل معه الحوار، ويحمله مسئولية العجز والتحطيم فى آن واحد، كيف ذلك يا إبراهيم، ارحمه وارحمنا يرحمك الله.

لا .. لن أذهب بعد اليوم .. هذا فوق طاقتى وطاقة البشر أجمعين وليذهب إبراهيم وإصراره إلى الجحيم ..

***

ــ لم تذهبى للعلاج منذ أسابيع يا بسمه.

ــ شفيت يا أمى والحمد لله ..

ــ قلبى دليلى يا ابنتى، هل حدث ما يكدرك؟

ــ قلت لك شفيت، وعندى دروس ولا داعى لضياع الوقت ..

كفى ما كان

— هل هذا هو الشفاء ؟

— لست أدرى ، فأنا لم أدرِ ما هو المرض حتى أعرف ما هو الشفاء ، وأنت تعلمين أنى ما ذهبت إلا إرضاء لك ، وهأنذا قد شفيت والحمد لله .

— لهجتك لا تدل على شفاء ولا يحزنون .

— ماذا تريدين منى يا أمى ؟ ، طاوعتك أول الأمر تكفيراً عن تهورى ، وها أنت تدفعيننى ثانية إلى حيث لا تعلمين

— هل حدث شىء يا ابنتى ؟

— طبعاً تحدث أشياء

— ماذا بالله عليك ؟

— بالذمة هل هذا كلام ؟ لم أحك لك عن أى شىء قبل ذلك فماذا تريدين أن أحكى الآن ؟

— أنا لم أسألك قبلا لأن الأمور كانت تسير . .

— كانت تسير نحو الجنون

— كفى الله الشر يا ابنتى ، كان وجهك نضراً ونظراتك توحى بالأمل

— ولكنى عقلت وأحكمت إغلاق عينى وتركت الأمل لأصحابه ، وليس عندى مانع أن أتزوج اليوم قبل الغد .

— ظنى فى محله ، دائماً تذكرين حكاية الزواج هذه عند ما تسوء الأمور .

— لا تضطرينى يا أمى لما لا تعرفين ، طاوعتك فى الأول حتى كان ما كان ، فماذا تريدين الآن ؟

— تتكلمين بالألغاز وأنا لا أعلم ما كان ، كل همى أن أراك سعيدة

— وكان همك قبل ذلك أيضاً أن ترينى سعيدة حين جئت لى بعريس الغفلة .

— نعم ... أعمل ما أراه مناسبا فى كل وقت .

— ما أسهل تمنيات السعادة وما أصعب الطريق إليها .. لا فائدة يا أمى ، لا فائدة .

-- تذكرين أنى قلت لك عن نفسى « لا فائدة » ، وساءتها رفضت أنت استسلامى ، وتريدينى الآن أن أقبل هذا اليأس وأنت فى هذا السن يا ابنتى .

— ماذا تريدين أن تقولى ؟

— لن يكون مصيرك هو مصيرى .

— نعم ؟ أنت تقولين ذلك يا أمى ؟ الآن ؟ وقد كانت هذه بداية اختلافنا منذ شهور ، أنت يا أمى ؟ !

— قلت لك من الأول أدفع عمرى وتعالجين مما أنت فيه

— مما نحن فيه ..

لست وحيدة ، هذا الشيء يطلبه كل الناس ، وهذه العجوز بإصرارها وشجاعتها تخجلنى من نفسى ، تخلت عن أنانيتها بعد أن لاح لها الأمل ولو كان سراباً ، الناس لاتستسلم اختياراً ولكنهم يقتلون الأمل أولا ، أمى يا حبيبتى سوف أذهب وأصنعها مهما طال الزمن

* * *

— شيء ما فى داخل الإنسان يظل ينبض بالحقيقة حتى طلوع الروح يا إبرهيم .

— أهلا بسمة ، عدت بالسلامة.

— عدت أطلب السلامة

— كنت واثقاً أنك ستعودين

— عدت من أجل خاطر أمى

— بل من أجل خاطر ابنتك .

— عنيد أنت مثل النيل يحفر طريقه بين الجبال عبر آلاف السنين .

— لا جدوى من أى بطولة خارجك ، إبحثى عن النيل والشمس والجبال تجديها فى الداخل .

— أطمئن لإصرارك ووضوح رؤيتك

— صدق أمك وشجاعتها يطمئن جيلا بأسره

— اضطرابات الطلبة تغرينى بالمساهمة ، ولتكن المسئولية فعل يومى

— على شرط أن تكتمل فى وعى شامل

— خوفى من ثورة مثل ثورة عبد السميع ذلك اليوم حين انفجر كاللغم غير الموجه .

— لا بد منها أحياناً حتى يراجع كلٌ قدرته وإحساسه معا . . هكذا الناس ، وهكذا الشعوب .

— لا ضوابط للجنون ولا حدود للتحطيم .

— أى شىء أفضل من الموت واليأس والضياع ؟ !

— تشجعنى على التشنج والصراخ

— بل أحملك مسئولية التشنج والصراخ ، وإلا فالنكسة والانحراف فى انتظار الجميع .

— من أنا ؟ إنهم كثير ، وسوف أضيع فى بحر من الصياح والحماس والهجوم الصارخ بلا هدف .

— لا مجال للفرجة ، والألم الحقيقى من واقع هذه الرؤية الشاملة هو الأمل الوحيد الباقى لنا يحفزنا للبناء .

— حكمتك ترعبنى ، تزيد طاقة شبابى ومسئولية شيخوختى فى ذات اللحظة .

— قانون الحياة واضح رائع .. لكنه كما تعلمين

— لا سبيل غيرذلك ، هربت من مسئولية أمى ، ومسئولية بيت صغير هادىء ، فوجدت نفسى أمام مسئولية الناس جميعا . .

— دون نسيان مسئولية وجودك الفردى النابض المتكامل بكل عبء العلاقات البسيطة العادية . . ولن أطمئن عليك حتى تتزوجين ويعلن انتصار الواقع رغم استمرار الشعلة .

— أنت كالصقر اليقظ ، كيف أهرب منك ؟

— كيف تهربين من نفسك ؟

— ولكن أنت ؟ أنت هارب بجلدك من بيتك وتلوح لى بألفاظ ضخمة

— لا أنكر مصيبتى ، ولكنى لا أخدعك

— ماذا فعلت مع نجوى . .

— تعرفين كل شىء . .

— اقرأ الحوار الصامت .

— أعرف ذلك . . وأنا أطلب مساعدتك .

— لا تخف منها . . فألمها يحميها من تفكك فردوس الرخو . .

— لست وحيداً ما دمت أصارع وحدتى فى كل لحظة دون صفقات سرية . . وما زلت أجد كل يوم مبرراً جديداً للاستمرار .

— من أين لك بكل هذه الحكمة ؟

— من الوحدة والهجر والدعارة والجنون والإيمان

* * *

مختار الفخ

يسألونني لماذا أنا هنا ؟ قالها كمال فى صدق وحيد حائر ، وقالتها نجوى فى خوف ، وقالها غريب دون أن ينطقها ، وأراها فى عيونهم فرداً فردا ، وأسأل نفسى قبلهم وبعدهم ؛ حقيقةً ... لماذا أنا هنا ، . . كل واحد وله مشكلة ، وأنا أرفض أن يكون لى مشكلة أصلا ، أختبىء أحيانا فى إجابات عابرة لا تعنى شيئاً ، تموت قبل أن تولد فلا تفيد فى التخفيف من سخف سؤال لا معنى له ، عيونهم تريدنى كما أنا ، وتتحدانى فى نفس الوقت ، وتحاول أن تخلق لى مشكلة من لا شىء ،لعلى هنا لأتأكد أنه لا يوجد حلّ آخر ، إنه لا حرية إلا بإلغاء كل شىء تماماً ،تماما ، ألغيت الارتباط والمبادىء والأهداف مرة واحدة صنعت منها لفافة مثل بقايا وجبة سمك : الشوك مع القشر مع الأمعاء ،ولكن يبدو أنى فى عجلة من أمرى نسيت أن أستخلص اللحم الأبيض ، إما أنى ألقيته مع اللفافة أو أن قطة بشرية انتهزت الفرصة فسرقته منى دون أن أدرى ، لعلي هنا أبحث عنه ، أبحث عن لحمى الأبيض فى حاقة السمك البشرية فى عيادة طبيب مخرف ، لن أحصل على ذاتى بصدق وبلا خوف إلا إذا تخلصت من كل شىء . . كل شىء ، حتى ذاتى نفسها ، ولكن كيف أتخلص منها قبل أن أحصل عليها ، أنا لست محارباً لأنى أرفض أن يكون لى قضية أحارب من أجلها ، وجودى هو كل شىء فى البداية والنهاية هو ماهيتى وغايتى وقدرى ، ولكنى بهذا أجعل منه قضية ، ليكن، ولكنى لن أدخل فى سبيلها معركة ، فالمعارك تحدد وجهتى وأنا أريد أن أتحرك بلا وجهة ، أريد أن أطير فى كل اتجاه ، « حريتى » هى زادى وسعادتى وثروتى وكيانى ، علمنى والدى ألا أتنازل عنها بأى ثمن فقد اغتال

كل من تنازل عنها ومارسها عنه بالنيابة ، كان سجاناً ممتازاً وقحاً لا يتردد ، ظلت والدتى نزيلة قفصه الذهبى حتى ماتت ، لم أتعرف عليها أبدا إلا من وراء قضبان لم تتعرف علىّ أبداً حتى داخل ذلك القفص الذى كنت أتسحب داخلا خارجاً منه لصغر حجمى دون أن يلحظنى أحد ، نسيتنى تماماً — أو لم تعرفنى أصلا — لانشغالها الدائم بالتقاط بقاياها بعد وجبات والدى الشهية ، كانت تلملم نفسها كالمأخوذة فى سعادة غبية ، وظللت أنتظر منها أن تفيق من هذا الانجذاب ولو لحظة ، ولكنها كانت قد نسيت كل شىء ، وحتى أوقات إفاقتها كان اغلب كلامها متفجرات تطلق سيلا من التشاؤم وَالتوتر الذى لا يهدأ إلا بعودة التنويم والانجذاب ، كبرت وأنا أشاهد هذه التركيبة العجيبة وأتساءل عن حقيقة استسلامها ، تجرأت ذات مرة وفتحت لها القفص ، وبدلا من أن تخرج منه كادت تقتلنى .

— لقد كبرت وأريد راحتك وسعادتك ياأمى

— وهل اشتكيت لك يا أخى

— أريد أن أعطيك بعض ما يمنحنى أبى من مال حتى تتصرفى فيه بما تريدين .

— « هو » يكفينى ولا حاجة لى بما تعرض على

— كله من خيره ، ولكنى أحس أنك لا تجرئين على الطلب منه يا أمى

— أنت لا تعرفه ، كبرت وكدت تفسد ، ظُفره برقبة كل الناس

— فلتكفنى إذا من الأنين

— مالك بى أنت . . ؟ تشطر على خيبتك .

وتشطرت على خيبتي وخاصة بعد أن ترك لي مشكوراً ما أعانني عليها ، أعفاني بما ترك لي من مال من معركة لقمة العيش ، أعطاني دروس الحرية في حياته وفرض عليّ الحرية بعد موته ، لكنني لما حاولت أن أطبق طريقته الخاصة في ممارسة الحرية لم أستطع ، كان يمارسها لحسابه وحساب من لا يستطيع أن يمارسها ممن حوله ، حاولت أن أتزوج من شبيهة أمي وأن أمارس حريتها بالنيابة ، فشلت فشلا ذريعاً ، شيء في ثار حتى أفشلني منذ البداية ، فتحت لها القفص لأني خفت أن أدخله معها فلا أستطيع الخروج أبدا ، عظمة أبي لن تتكرر ، كان يطلق سراحهن في الحجرة كما يشاء ، (لم تكن أمي وحدها) ثم يرجعهن إلى القفص قبل أن يفتح الأبواب والنوافذ ، أما أنا فقد فتحت لامرأتي القفص عنوة فطارت فوراً ، من غبائها طارت .. كانت أغبى من أمي ، طارت بلا أجنحة فوقعت تتخبط ، ما أبشع منظرها وقد اختلطت دماء الإصابة بطين الكذب بنفايات البشر ، وقفت أتأمل جريمتي في هدوء سعيد وأنا أوقع ورقة الطلاق ، هكذا فشلت أن أكون أبي ، وبدأت أسعى إلى حريتي بطريقتي الخاصة ، حريتي هي وحدتي ، جنتي هي سكوني ، لا لغو فيها ولا تأثيم ، كوني ينتهي عند إصبع قدمي ، ولكن هذه العيون من حولي لا تلبث أن ترجعني إلى السؤال المزعج الواقف كالشوكة في حلقي ، لماذا أنا هنا إذًا ؟ يهتف بي صوت أبي أحياناً في حماس خبيث

صوته — « دي جنة ياصاحبي من غير ناس ما تنداس »

أنا — عندك ! . . . جاءتك نيلة ، تضحك على غيري يا كذاب ، أنت آخر من يتكلم عن الناس .

صوته — كانت حياتى مليئة بالناس

أنا — العبيد ليسوا ناسا ولكنهم تكرار ممج لصورتك الأخرى

صوته – هذه الفلسفة ستحرمك من الحسنيين

أنا — إشبع بهما ، لن أكون أبداً ، سأسعى إلى حريتى بطريقتى ،
زوجتى طلقتها حتى لا تصبح مثل أمى المسكينة

صوته — لم تكن مسكينة يا غبى

أنا — أنت لم تعرفها على طول ما عاشرتها

صوته لن تحتمل الوحدة وستقع صريع خيالك الأحمق

أنا — بل أحتملها فهى أفضل من كذبك .

صوته — ها أنت فى عيادة طبيب تبحث عن ناس ، من خيبتك

أنا – اطمئن . . فإننى سأفشل أى محاولة للاقتراب . . من أى نوع

صوته — أنت حر . . يا خيبة أملى فيك

أنا — هذا يسعدنى .. حريتى هى جنتى بعيداً عنك

صوته – بل أنت بهذا أقرب ما تكون إلىّ

أنا - أنا مركز الكون ومنتهاه ، ولكن أسخف شىء فى حياتى
أنى هنا ، وبانتظام ، لماذا أنا هنا حقيقة ؟

* * *

— قل لى يا غريب بربك لماذا أنا هنا ؟

— تسألنى ؟ وأنا متورط مثلك سواء بسواء

— أنت لا تعرف مثلى ؟

— بل أعرف مثلك !!

— إذاً قل لى ، لماذا نحن هنا ؟

— محاولة مجهولة

— لا يا شيخ ، هل أعترف بحاجتى إليهم فأفقد كل ما كسبته من وحدتى واستقلالى وذاتيتى .

— محاولة فاشلة مسبقاً ، إلا أن فشلها هو عين النجاح

— كنت أجد فى الأنفاس العطرة الزرقاء والماء الأصفر وتهاويم الخيال خير ونيس ، فلماذا أحضر إلى هنا .

— لقتأكد أن المخدرات الكيميائية هى خير وأبقى

— يا أخى لا أنتظر سخريتك ، هل كففنا عن هذه اللعبة

— بالتأكيد ، ولكن لكل شىء أوان ، وأخاف أن نذهب مبكرا فننخدع فى تصور أمل ما فى مكان ما ، لا بد من التأكد من فشل كل البدائل ..

— وحتى يحين الأوان ؟

— بالنسبة لك ، أمامك فرصة دائماً لصيد ثمين

— أعلم أنك تعنى اشعاعاتى الجنسية ، ولكن رغم غمزات السنارة الأكيدة فإنها تخرج دائماً فارغة بعد أن يأكل السمك الطعم بنذالة .

— لا مفر من المثابرة حتى تنضج كل الثمار .

— ثم يقطفها غيرى ، حتى « الحاجة » فردوس ترفل فى روض الشهوة فيقطفها زوجها عبد السلام فى متعة سرية ، ويتصنع الرفض الكاذب .

— زوجها يا أخى

— لا تنسى يا غريب أننا فى الهوا سوا

— يا ليت ، أنت لا تعرفنى ، وإن كنا نتفق فى أن هـذا الالتزام الزواجى أخبث وأنذل من أن نتحمله .

— لقد جربته يا غريب ، ولا أخفى عليك أنى أعيش لذة الانعتاق حتى الآن ، أحتفظ بصورة ورقة الطلاق فى حافظتى طول الوقت حتى أتأكد من حريتى بين الحين والحين ، لم يبق إلا أن أكبرّها وأعلقها فى البهو

— فلماذا تحسد عبد السلام على « الحاجّة »

— أنا لا أحسده يا أخى ولـكنى أقرر أنه حتى هذه البضاعة الرخوة فى ذاتها ، التى تفتحت فى الزحمة ، ليست فى متناول من يعرفها ويقدرها حق قـدرها

— ما زلت يا مختار تطمع فى صفقة سرية

— لا أحسب إلا أنك أيضاً تتمناها

— لى ظرفى الخاص

— ولـكنى آسف لابدو أن أوفّق بين حريتى وحقى فى حريم الدنيا

— تريد امرأة من نوع خاص ؟

— بلا زواج ولا ارتباط

— لى صديقة ، أشعر أنـكما أقدر على التفاهم

— ماذا تقول بحق الطب والأطباء ؟ كيف تواتيك كل هذه الشجاعة

— قلت لك لى ظرفى الخاص ، وأحب أن أضع الأمور فى نصابها .

— لا أفهمك .

- الشخص المناسب للشخص المناسب

ـ لا أفهمك

ـ أعتنق آراءك ولا أستطيع تنفيذها

ـ ليس لى آراء يا غريب وأنت سيد العارفين

ـ وهذا هو ما أعجب به على وجه الخصوص

ـ لا أحتاج إعجابك ، فهو يذلنى

ـ كذاب

ـ غريب ؟!؟

ثم ماذا ياغريب ، هأنذا كذاب وابن كلب ، ماذا تقترح حتى أكون صادقاً ؟ لولا أنى أعرف أنك لاتستطيع إيذائى ولا تحاول تغييرى وأن خيبتك أكبر من خيبتى لخفت من رأيك فىّ ؟ هل تريدنى صادقاً فعلا لأعلن حاجتى لهمسة رضا أولفتة تقدير ، أو كلمة رغبة أدفع مقابلها كيانى وعمرى ووجودى؟ هذا ليس كذباً لحاجتى إلى تقديرك أوحتى حضنهم لن تذلنى ما حييت ، الفرصة سانحة كما قلت وسوف أواصل البث حتى تلتقطنى إحدى محطات الاستقبال، أقرب محطة إلى فهمى الآن أراها فى عينى نجوى شعبان ، تستمع إلىّ بشغف وأملى كبير فى شجاعتها التى حطمت بها عشها الصغير ، لا بد أن تكتمل هذه الشجاعة بأن تستقبل بثى الدافىء ، مطلقه وجميلة وتحسن الاستماع وتعشق الحرية ، ماذا تبقى لها لتكون ذلك الطير الخليق أن يحلق معى فى السماء الواسعة ..

ـ يا نجوى أنت خسارة ، قلت لك ألف مرة أنت خسارة

ـ ما زلت أفكر فى حديثنا آخر مرة عن الحرية والحيوانية

ـ هل عرفت كم هو راق ذلك الحيوان المتناسق مع نفسه ؟

— عرفت ... إلا أن

— لا لزوم لإلاّ . يقولون إنها مدخل الشيطان

— هذا من صالحك

— لا . . ، شيطانى واقعى لا يحب « الاستثناء بإلا » ولكنه يحب حروف العطف وعلامات الضم .

— يا مختار ... أنت لا يعنيك فى هذه الدنيا إلا هذا الشريط المعاد

— هو أصل الحياة ، ولا بد من تعميق المعرفة من خلال بالتجربة

— تجربة ماذا يا مختار ؟

— تجربة معرفتك ، تهدئيها من جذور الحياة

— أبدؤها فى حضنك ، بإذن شيطانك الغبى ؟

— جربى

— إبراهيم عنده حق

— إبراهيم موتور مكبوت مدّع ، لا تغرك مساعداته ومبادراته ، كلها لحسابه .. كلها لتضميد جرحه بلا طائل .

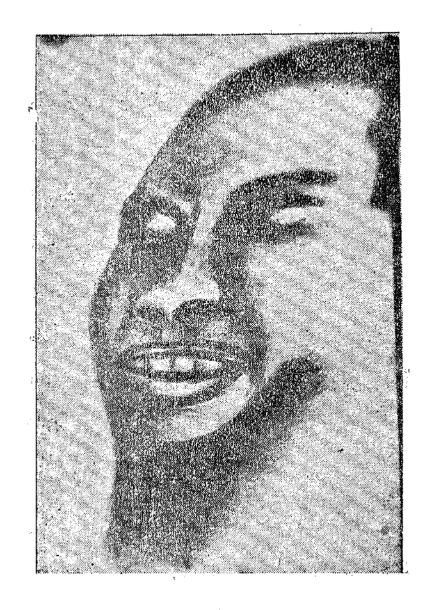
— لكن هذا — حتى لو صح — لا يخفى حقيقتك .

— ماذا تعنين بحقيقتى يا نجوى ؟ أفسدك هذا الغبى المعقد

— لماذا تخاف من سيرته

— أنا لا أخاف ، المحتاج هو الذى يخاف ، وأنا ألغيت احتياجى من زمن بعيد

— هلا نظرت فى نفسك قبل النوم وبعده



مختار لطفی

— ماذا تعنين يا نجوى

— أعنى أنك إن هربت من العالم كله فلن تستطيع الهرب من نفسك

— لا تحاولى أن تخدعى نفسك بأن تختبئى فى الهجوم على الآخرين ، هذه لعبة سخيفة ترددونها كالببغاوات .

— ماذا تريد .. يا مختار

— لا أريد شيئا

— لا يا شيخ ؟

— أريد حريتك المقدسة

— فى حضنك ؟

— طبعاً

— اطمئن يا مختار ، انطفأت حاجتى للرجال أمثالك ولا أملك لك إلا الاحتقار .

— هذه بداية الطريق المبهج

— يقززنى عماك ودناءتك ، وأنت لا تحس بأى مخلوق

— انظرى فى عينى تعرفين أنى أحس بك ، وبجسدك الثائر الذى تدعين موته وهو يدعونى ويبعث فىّ الحياة حتى قاع وجودى

— مختار يالطفى

— نعم

— الله يخيبك

. . .
. . .

أفسدهن ذلك الوغد المدعو إبراهيم ، لا فائدة وهو واقف لى كاللقمة فى الزور ، حامى حمى الحريم ، جبان موتور .

— ماهى حكايتك ياإبراهيم ؟

— خيرا يامختار

— أنا الوحيد الذى يفهمك وأنت تعلم ذلك

— يجوز ، فإنى أنتظر هذه اللحظة منذ سنين ، أن يفهمنى أحد ، قل لى يا مختار من أنا

— أنت مجرم جبان

— فقط ؟

— تسخر أم تميع الموقف بخبثك

— أبداً . . ولكنى أعلم ذلك وأعلم أن هناك أشياء أخرى

— وقوّاد ومنتقم مرعوب

— صحيح . . إلا أنى أحاول فى المنطقة الأخرى أيضاً

— لا تخدع نفسك ، فأنت تكبتهن لصالحك

— هن ؟ من «هن» يا مختار

— كبتك وخوفك يحبس الأطفال فى مهدها حتى تكاد تموت من الشلل والرعب .

— أنت تصور الأمر بمبالغة سخيفة ، أنا لى أسبابى التى تخيفنى مثل الخيانة والغدر ، وقد قلت لك إنى أحاول أن اخترق كل ذلك

— أنت لاتستأهل إلا الخيانة ، أى طائر يطير بعيداً عن شونة جبنك تعتبره خائنا .

— جرحى عميق يامختار

— لاتتكلم عن الجرح فكذبك لايطاق ومسكنتك مزرية

— الحياة صعبة يامختار ولاأستطيع أن أعيش وحيداً حتى بعد أن كان الذى كان ، وإنى لأعجب كيف تطيق الوحدة ؟

— أنت مالك ؟

— هل نجحت أنت أو غريب أو كال فيما فشلت أنا فيه ؟

— أرفض تقييمك لفشلى أو نجاحى ، معاييرك لاتهمنى .

— قيّم ، كيف تشاء بمعاييرك أنت ، هل نجحت يامختار؟ علمنى ياأخى

— كفى تخابثا واستعطافا ..

— أتحملك لأنى أقدر صدق محاولتك ولولا إيذاؤك لطفولة الآخرين لظللت بعيداً بعيداً .

— حامى حمى العيال والحريم أنت .. أليس كذلك ؟

— منظرك وأنت تتوسل الرضا بالإثارة الجنسية يؤكد لى فشلك رغم ادعائك ، راجع عجزك أولا .. وأصلح نفسك قبل أن تعلن وصايتك على رعايا مملكة الخوف

— الضحايا تملؤ الشوارع والبيوت ، والمجتمع القاسى يضرب فى عمى فى كل اتجاه .

— أنا مجتمعى ، وأنا كونى ، ولست مسئولا عن أخطاء أحد ، ولا عن مصير أحد

— والناس ؟

— هذا هو الخداع الأكبر ، أعيش أولا كما أريد وأعتقد ، وأنجح ، فيتعلمون النجاح تلقائيا دون خوف أو وصاية .

— هكذا !! .. تلقائياً ؟

— نعم تلقائيا ، أى فعل ليس تلقائيا فهو حقير لا دوام له ، التلقائيه هى الأصالة

— عنيد يا مختار ومحير ، ياليتنى افهمك جيدا لعل هذا هو الطريق

— كفى تخابثا ، خوفك يمنعك من أى فهم صادق

— ثورتك واحتياجك يمنعانا من أى فرصة للتفاهم الهادىء

— أقوالك تتردد كالحكمة على أفواههن ، قرفتنى الله يقرفك

— لا أخاف ، تطلب منى التراجع أو الندم ، فلربما كان هذا ضد الحرية التى تدعو لها

— أنت تستعمل حريتك فى العبث بعقولهن وكبت حرياتهن

— إذا سايرت منطقك فلا رد عندى إلا أنى « حر »

— نعم ، ولكنك ستدفع الثمن وحدةً وألماً

— صدقت . . أنا وحيد فعلا يامختار ، وأسعى بكل جهدى لأكسر هذه الوحدة ليل نهار

— بنشر تعليمات القمع ونشر أوهام أنت أول الواثقين من استحالة تحقيقها

— سأظل فى المحاولة حتى النهاية

— ليس لها نهاية

* * *

عدو لئيم ، ولكنى لن أتنازل عن حريتى يا زفت الطين حتى لو نجحت أنت فى كسرها ، لتذهب إلى الجحيم ، والموت أقرب وأهون .

— ٢ —

ـــ إسمى صفية ، قادمة من طرف صديقك غريب الأناضولى

ـــ أهلا . . وسهلا . . . و . . لكن

ـــ ولكن ماذا ؟ حدثنى عنك وقال إنك تحتاج إلى امرأة من نوع خاص ، وأنا من نوع خاص ، ألا ترى ذلك ؟

ـــ هه . . ، لقد فهمنى غريب خطأ ، لقد كان نقاشاً لوجهات النظر

ـــ أنا ـ شخصيا ـ وجهة نظر من لحم ودم ، وقد جئت أتفاهم معك مباشرة

ـــ تجربة مثيرة .

ـــ أنت لم ترشيثا بعد

ماذا فعلت يا غريب بالله عليك ، ؟ فكاهة أم سخرية أم تحد أم تجربة أم غباء ؟ ، ماذا تظن بى أيها الأبله ؟ أنا لا أفهمك ، ومع ذلك فلتكن التجربة والمصادفة أروع من الحقيقة والحسابات ، لم أضيع وقتا ووجدتها امرأة من نوع خاص فعلا ، تفاهمنا بسرعة فائقة ولزم كل منا حدوده ، تعودت على الحضور كلما ضاق بها الحال أو عز الصيد ، ثم زادت فترات حضورها بل انتظمت تقريبا ، ثم لم تعد تطلب منى نقودا ولكنها أصبحت تتصرف فى البيت كما لو كانت صاحبته ، سألتها يوماً لماذا كفت عن الذهاب إليك يا غريب ؟

ـــ أحسست بعجزى عن مساعدته تماماً .

ـــ مساعدته فى ماذا ؟

ـ كان الألم يعتصره فى كل مرة وهو يواجه عجزه .

ـ إذاً ... هذا هو السبب الذى دعاه لإرسالك هنا

ـ ربمـــا

ـ . . . شكر الله سعيه . . !

ـ لا مجال للسخرية ، هل أنت نادم على ذلك ؟

ـ أبداً ولـكنى أفـكر فيه هو

ـ أنا شخصياً ارتحت والشهادة لله

ـ الحمد لله أنها راحة فحسب

ـ ما ذا تعنى ؟

ـ كنت أخشى أن تدعى حبى

ـ انت تعلم أنى أحب غريب أولا واخيراً

ـ هنيئاً له من بعيد لبعيد

ـ أما أنت فطريقتك فى الحياة تعجبنى

ـ ليس لى « طريقة » فى الحياة

ـ وكذبك هذا أيضاً يعجبنى أ كثر فأ كثر

ـ حتى أنت يا صفية تتهميننى بالـكذب

ـ الـكذب ميزة وليس تهمة يا أ كبر حر

ـ هل كذبت عليك ؟

ـ طبعاً

ـ فى ماذا ، ذكّرينى

ــ فى ادعائك إهمالى ، وتصنعك التجاهل حين أتأخر أو أغيب .

ــ هذا بديهى

ــ تقدمنى لأصدقائك على أنى خادمة نصف الوقت

ــ لا بد من تفسير لانتظام مجيئك أمام الناس والجيران

ــ هذا أريح لى ، ولكنى أذكرك ببعض التفاصيل حتى لا تمادى فى ادعاء الصدق

* * *

تعودت عليك يا صفية والذى كان قد كان ولا بد من رسم خطة إطلاق سراحى بسرعة ، فأنا لا يخفى علىّ كيف تتطور الأحداث ، وها أنت تسدين نقصاً هائلا فى حياتى ولا بد أن أفكر عشر مرات قبل أن أتخلص منك ، تخلصت من زوجتى قبلك بأن طيرتها دون أجنحة ، أما أنت فأجنحتك أكبر من طائرة بوينج ، سوف أتنهز أول فرصة للطيران ، ولتكن الخطوة التالية منى .

ــ أحيانا أفكر أن أكتفى بوجودى هنا ، ولو فى ليالى الشتاء الباردة

ــ .....

ــ ولأكن خادمة « طول الوقت » فأنا لم أنس على الأصلى

ــ عرض مغر ولكن المقابل قد يكون خطيراً

ــ لا مقابل إلا اللقمة والصمت

ــ وماذا تجنين من هذا ؟

ــ وماذا أجنى من أكثر من هذا ؟

— أشك فى نواياك

— أريد أجازة طويلة من دورى « العام » ، ولن أكلفك شيئاً

— ... لا ... لا مانع ...

— نكتب بنود الصفقة حتى لا نختلف

— عندك يا شيخة ؟ لم يبق إلا المأذون

— لا تخف فلست غبية حتى أتزوجك

لم أنتهز الفرصة ، ولم أطر ، ولكن شكوكى زادت ، لا تطلب منى شيئاً ولا تتعدى حدودها أبدا ، يحسدنى أصدقائى عليها ولا يستطيعون إخفاء مرفقهم لطبيعة علاقتى بها ، أخذت أفكر — بالرغم منى — فى طبيعة علاقتها بغريب ولماذا تكن له بالذات كل هذه المشاعر ، يا ترى ؟ هل كانت أحبته لنفس الدرجة لو أنه لم يكن عاجزا ، حبٌ هذا أم شفقة ، أم أنه باق بهذه القوة لأنه لم يدخل الامتحان الحقيقى : حب مع وقف التنفيذ ، ولكن لماذا يشغلنى هذا الأمر بهذه الصورة ؟ ضبطت نفسى متلبساً مرة ـ أو مرات ـ بأمنية أن تحمل لى بعض هذه المشاعر ، ولكنى طردت الفكرة فى ازدراء .

— ألا تذهبين إلى غريب الآن البته يا صفية ؟

— ... أبداً

— لماذا . ؟

— قلت لك لأنى أحبه

— أحياناً يتحرك فى داخلى شىء غامض حين تتكلمين هكذا بحرارة من حبك له

— إلى أين أنت ذاهب يا سى مختار ، هأنذا أرد إليك جميل تحذيرك ، حذار من الخروج عن بنود العقد ، لا حب .. ولا مقابل .. ولا يحزنون ..

— أحياناً « يحزنون »

— دمك خفيف يا سيدى ومولاى

— سخريتك لاذعة ، فلست سيدك ولا مولاك

— ألست خادمتك ؟

— أمام الناس فقط

— ووراء الناس : ماذا أنا بالنسبة لك ؟

— إنسانة صادقة .

— هل تأكدت من صدقى ؟

— كل تصرفاتك تدل على أنك لا تكذبين

— أنت أعمى يا مختار تماماً

— نعم ؟ نعم ؟

— لا ترى إلا ما تريد ، حتى فى السرير

— ماذا تريدين قوله

— لا شى

بعد هذا الحديث بدأت أراجع علاقتنا — وأنا خائف .. ، فقد كنت أحسب أننا يمكن أن نعيش معاً دون أن يكون هناك « علاقة » قابلة للمراجعة ، كانت مفاجأة خبيثة حين انتهيت إلى ما أشارت إليه ، أدركت أنها تقدم لى جسدها باحتراف خالٍ من أى إرادة ، فى تلك الليلة بالذات ،

نظرت إلى عينيها أتأكد من ظنونى فوجدتهما تتفرج علىّ من بعيد وأنا مزهو برجولتى ، لم أحتمل نظراتها ولم أستطع أن أكمل الشوط .

ــ ماذا تقول عيناك يا صفية ؟

ــ . . ربنا يعطيك العافية ، لا تفتح الجرح يا مختار وخذ حاجتك دون تردد .

ــ لم أعد أعرف ما هى حاجتى ؟

ــ حديث عيناى ليس من بنود الاتفاق . فلا تفسد ما بيننا .

ــ ماذا « بيننا » يا صفية ؟

ــ خادمة بلا أجر ، على أن تشمل خدمتها طلبات السرير

ــ . . . هذا صحيح ، . . ولكن . . . ، ألست أنت التى نبهتنى إلى طبيعة ما يجرى ؟

ــ كنت تتحدث عن الصدق والكذب فحدثتك عن عماك

ــ أفسد ذلك كل شىء

ــ لا تبالغ فإنى مستعدة للتكفير عن خطئى بأن أدفع ضعف الحساب

ــ ضعف ماذا ؟ ونصف ماذا ؟

ــ ضعف الحساب ... أرضيك مرتين (!)

ــ أفكر فى البنود والحسابات فأجد أن علاقتنا بدأت تتعدى هذا وذاك

ــ حذار من الحب والكلام الفارغ ، لا مكان للكذب والخداع بيننا

ـ التعود أقوى وأخطر من الحب

ـ أخشى أن تكون النهاية قد بدأت ، وأنا لا أنكر أنى أفضل أن نستمر هكذا . . لا أكثر . . ولا أقل

ـ لماذا . . ؟

— سريرك المضمون أفضل من وقفة الأرصفة والكرسى الخلفى للعربات، وخاصة فى ليالى الشتاء

ـ أهذا كل ما أعنيه لك ؟

– هذا هو الاتفاق

— ليس تماماً . . .

— بل تماماً وَنصف ، أم تريدنى أن أدفع مقابل دفء سريرك أيضاً ؟

لم أنجح بعد تلك الليلة ، وبدأت أحس بالخوف كلما هممت بالاقتراب منها ، أحسست بالخطر ولكنها لم تتنازل عن النوم فى سريرى حتى فكرت أن أتركه لها إلى الأريكة التى فى الصالة ، لو كنت زوجها لطلقتها دون تردد ، ميزة الزواج أنه يحتمل الطلاق ، ولكنى لا أدرى ماذا أفعل الآن ، وهى لا تطالبنى بشىء البته ، أى تجربة قذفتنى فيها يا غريب حتى تختبر آراءك . أوقعتنى فى المصيدة وأنا الثعلب المراوغ إلى الأبد . . ولكنى متأكد أنى لن أعدم حلا .

— ٣ —

قالت لى ملكة متاع

ـ . . . آراؤك كلها لصالح غرائزك

— تخافين من رغبتك فى الحيـــاة وفى الحب الطليق ، مصهر الجنس هو الطريق إلى الحقيقة .

— غالى يقول إنى باردة .

— لم يعرف الطريق إلى مفاتيحك

تعجبت من نفسى وأنا ما زلت أقول نفس الـكلمات بسهولة وثقة ، غالى لم يعرف مفاتيح ملـكة وهأنذا أحدد العيب وأعد اللمبات المحروقة وأتهيأ لإصلاح هذا الجهاز الأنثوى حتى أسهل المهمة لغالى أن يدير المفاتيح بنجاح ، فأين مفاتيحك يا صفية ؟ مع أن جسدك هو رأس مالك ولا بد أن مفاتيحه ظاهرة للأعمى .

ماذا تنوين أن تصنعى بى يا صفية بعد أن تعودت عليك ؟ ، يشغلنى ليل نهار البحث عن وسيلة للتخلص منك دون أن تشعرى شريطة أن أكون قد تهيأت تماماً لمجرك النهائى ، لا أكاد أتصور ذلك فى الوقت الحالى ، إلا أنى لن أعدم وسيلة .

* * *

عادت « فؤادة » فجأة وكأن القدر أرسلها لتنقذنى من الدوران فى هذه الدوامة الجديدة

— أهلا يا فؤادة جئت فى وقتك

— أنهوا مهمة البعثة الصحفية قبل أوانها لأسباب مادية

— . . . الحمد لله على الفقر . .

— لا أدرك ما ذا تعنى فقد كنت أتمنى أن أكمل مهمتى ... قد كنت بدأت كتابة شىء مبشر ، كانت رحلة صحفية لها كل مبررات النجاح .

— أتكلم عن أشياء شخصية فأنا أحوج ما أكون إليك الآن . .

— تتكلم عن الاحتياج يامختار ، وأنت سيدالاستغناء ، ماذاجرى لك

— ظرف طارىء وسيمضى

— تغيرت يامختار أثناء غيابى فماذا جرى

— قلت لك جئت فى وقتك ويكفى هذا الآن .

عادت علاقتى مع فؤادة أبو النصر المحررة فى مجلة الصباح أقوى مما كانت ، وكنت أتعمد أن تعد صفية لنا كل شىء ، وأنا أتعمد إهمالها رويدا رويدا دون إهانه ظاهرة ، ولكن المصيبة أنها أصبحت أكثر هدوءا واستقرارا بعد أن ابتعدت عنها ، أما أنا فقد كنت أحسب أنى قادر على التخلص منها فورا ولو بالطرد الوقح . . و . . ولكن . . . . ذكاء فؤاده لم يخطىء موقف صفية .

— صفية يا مختار

— مالها ؟

— فى عينيها شىء غامض

— إياك أن يجرى لعابك الصحفى على بيتى وخادمتى

— فى كل مرة تقدم لى شرابا أو طعاما أكاد أقرأ فى وجهها نداء ما .

— لا أكتمك أنى قلق من ناحيتها فقد بدأت تتعلق بى بشكل مبالغ فيه .

— لا أخال الأمر بهذه البساطة .

— ماذا تريدين قوله يافؤاده ؟

ـــ أرجو أن تعرف ماذا تفعل يا مختار على وجه التحديد . .

ـــ لا أفهمك

ـــ أحسن

ـــ رجعنا إلى الجدل العنيد ولم تمض على عودتك بضعة أسابيع

ـــ كنت متأكدة منذ البداية أنك لن تحتمل أكثر من ذلك

ـــ علاقتنا حرة ، وهذا يجعلها أقوى من أى عهود

ـــ ليس بيننا علاقة يا مختار ، فلا تخدع نفسك

ـــ . . . هل تذهبين يا فؤادة ؟

ـــ لا أنتظر إذنك على كل حال

ما هذا كله ؟ ما الذى جرى لى هذه الأيام ؟ النحس يحيط بى من كل جانب ، ولكن الشياطين مجتمعة لا تستطيع أن تشككنى فى طريقى ، لو ظللت أجتر الفشل بقية حياتى فلن أتراجع ، لست وحدى الفاشل ، كل من « بالمجموعة » حضروا هنا لأنهم فشلوا ، لعل هذا وحده يرد على التساؤلات الحائرة بلا إجابة ، لعلى أحضر « هنا » لأشارك الفاشلين فشلهم . ، مفاتيح صفية مغلقة ،ومنذ البداية ..، ولكنى لم أكتشف ذلك إلا مؤخرا ، وفؤادة تهم بالهجر ولا أدرى متى تعود ؟ ونجوى شعبان أصبحت بعيدة المنال ويبدو أن علاقتها تتطور بإبراهيم بشكل محسوب ، وبسمة الطفلة العذبة تنظر إلى بشفقة وكأنها أكبر منى بخمسين عاما ، وحتى ملكة مناع صاحبة المبادىء التقدمية جدا تمارس مبادئها فى استعادة أرض زوجها بلا زيادة ، رقصت على السلم يامختار يا ابن لطفى ، لم تنجح فى استعمال الناس مثل أبيك ،

فشلت فى إغراء الناس بالكذب والمناورة ، وعجزت عن إثارة النساء حتى النهاية .

من أنت يا مختار ؟ ولماذا ؟ لماذا تفشل نفسك قبل أن تبدأ كل مرة؟ هل هذا هو سبب مجيئك إلى هنا ؟ لتبحث أسباب فشلك أم لتؤكده ، والدى كان ناجحا على حساب أمى ولا بد من أن أنتقم منه ، ترى هل يتم ذلك بأن أفشل . . فيلحق به فشله — ممثلا فىّ — فى تربيته ؟ ولكنى حينما أحاول آن أحطمه لا أحطم إلا نفسى ، ومادمت هنا فلماذا لم أستغل الفرصة وأعلن فشلى أو أكسره ، ما فائدة هذا التكرار السخيف ؟ كل أسبوع .. كل أسبوع .. ومع ذلك أصر على المجىء ولكن لمن أعلن هذه المصيبة ؟ لشيخهم الخبيث أم لإبراهيم اللدود ؟ أين أنت ياغريب ؟ لم ذهبت وتركتنى بعد أن لعبت هذه اللعبة البشعة ، هل أذهب إليك اسألك وأامنك وأرد لك الهدية بأحسن منها ؟

* * *

لابد من المحاولة ، وهاهى ذى المساعدة الذكية إصلاح فاضل ، تلميذة مجتهدة ولكنها لا تعطينى إلا شعورا أمويا هادئا .

— . . . . أرجو أن تفهمينى يا إصلاح

— أحاول طول الوقت يا مختار ، وصدقنى

— مشكلتى أنى أعبد حريتى

— لا تتحدث يا مختارعما لاتعرف

— ماذا تقولين يا إصلاح ؟

— اقول إنك لا تعرف معنى الحرية ولا تحتمل عبئها

— أنا ؟ أنا أتحمل عبئها وحدى حتى كدت أتحطم من أجلها

— الحرية بناء يا مختار

— الحرية هى اللامحدود حتى النهاية

— هذا هو المطلق ولن يتحقق إلا بالموت

— لو كان الموت ثمناً لها لدفعته عن طيب خاطر

— كفى خداعا

— ولكنى ما كلمتك يا إصلاح إلا بعد أن لاحظت رفضك لتعليمات أستاذك وهو يحاول أن يثبت رجليك إلى أرض الواقع البشع

— أنا أعارض أستاذى لأتعلم ، ولكنك علمتنى أكثر مما علمنى هو

— أنا ؟ . . . علمتك ؟

— طبعاً علمتنى كيف يكون الهرب الجبان ادعاء لتحقيق المطلق

— يبدو أنى خدعت فيك أنت الأخرى يا إصلاح ، خدعتنى مناقشاتك مع أستاذك وحماسك المتنـــــاهى بلا حدود . هل تراجعت عن موقفك فى طلب المطلق .

— معك ؟ نعم

— ما ذا تعنين ، هل تغيرين مواقفك مثل الجوارب والأحذية حسب المناسبات .

— . . . أنا حرة . . .

— يا ويحى .. أشرب دائماً من نفس الكأس ولكن ما عليك ؟ فلسوف أتفرج عليك حتى النهاية حين يجرجرك هذا التراجع إلى قفص الزواج الفولاذى

— حسبك . ! فلن أنزلق أبداً خوفاً منك أو منهم . . لا إلى الزواج التقليدى ولا إلى حريتك المزعومة .

— . . النصف الأول من رفضك هو الذى شجعنى على الحديث معك . . ولكن يبدو أن الأمر أصعب مما نتصور

— لكن صعوبة الأمر لا تبرر الهرب منه

— هل أفهم من ذلك أنك ستتزوجين يوماً ما

— ولم لا ؟

— خيبت أملى يا شيخة . . كلكن سواء حتى صفية

— صفية ؟ من صفية ؟

— إنسانة لا تعرفيها

— إحساسى يقول لى إنه نفس الإسم الذى حدثنى عنه كمال

— هل تعرفينها يا إصلاح ؟

— ربما هى التى سمعت عنها من كمال

— لعلك تقصدين من « غريب » ؟

— بل كمال ، قابلها عند غريب وحدثنى عنها حتى خجلت من صدقها وبؤسها ، وهى تمارس حياتها الشريفة العملية ، ونحن هنا نتبادل أحاديث الوجهاء ، هل هى هى يا مختار ؟

— لعلها هى . . لكنك شغلتنى فأنا لا أعرف لها حكاية مع كمال

— كيف حالها ، قل بربك كيف هى ؟

— بخير ، ولعلها هى التى ألجأتنى إليك .

— هى ؟ . . كيف ؟

— قصة ليست للحكاية ، مشكلة سوف أحلها بنفسها

— حاول يا مختار ، فلعلك تجد ما تريد حقاً ، أو تراجع نفسك منذ بداية البـــداية .

حتى أنت يا إصلاح ، حتى أنت تغريني بمراجعة نفسى ، ومنذ البداية ، أنت لا تعرفين متى كانت البداية ولا كيف ، أحاول أن أتذكر فلا يخطر على بالى إلا جبروت والدى وخوف والدتى المستسلم ، متى بدأت عبادتى لذاتى وحريتى ؟ لا أكاد أتذكر إلا أنى اضطررت أن أكون حراً منذ كل العصور ، أهملنى الجميع حتى أصبحت حراً جداً ، أى اقتراب منى يذكرنى بالتهام والدى لوالدتى ، أحس أن بداخلى كليهما معاً يتصارعان ، وأنا مالى يا خلق هوه .

— ٤ —

— عندى صنف الليلة يا فؤادة سوف يرفعنا إلى السماء التاسعة

— ذهاباً وإياباً أم ذهاباً فقط ؟

— المصيبة الكبرى فى الإياب

— لا فائدة يا مختار ، لا بد من البحث من جديد

— يا ساتر استر ، خذى نفسين أولا وحافظى على الطافية ثم نبحث ما تشائين ولو حتى شئون أنجولا أو مشكلة مجول البحر على شواطىء النرويج

تبحث ما ذا هــذه الصحفية محررة أوهام الناس ، عدة أنفاس ويبــدأ البحث الحقيقى

. . . .

البحث لا يكون إلا فى الداخل ولابد للسفر إلى الداخل من ركوب البراق ، والبراق هو مطية « الست » المفضلة موديل ١٩٧٤ ، سبسيال ، وطائرات الفانتوم المستوردة من شارع الشواربى تسير بالطاقة الشمسية .

— أين ذهبت يا مختار ؟

— معكى على الخط يا صفية

— لست صفية ، أنا فؤادة

— فؤادة صفيهْ . . . صفية فؤادهْ

تطورْ « شِويّهْ » ، حرية زيادة ،

حشيشة هنية . . والوحدة سعاده

— ما هذا التخريف الذى تقوله يامختار لم أعهدك هكذا أبداً مهماشربت

— أتصنع الخبل لأقرض الشعر ، لم يبق أمامى إلا أن أرسم وأكتب الموسيقى .

— عندك يا مختار لا تزودها

— هل تعرفين من هو أول من قرض الشعر حسب نظرية التطور لأبينا القسيس العنِّين تشارلس ابن داروين

— ماذا تريد أن تقول . . ؟

— فأر السبتية وشرفك ، ومنه أخذ كمال نعمان « القافية » .

— كمال نعمان ؟ هل تعرفه يا مختار ؟ إنى من المعجبين به ولكنى أفتقد شعره هذه الأيام ، هل هو فى رحلة فى الخارج ؟

— فى الخارج جداً يا ست الكل

— كفى مزاحا ، أنا أتساءل جدا.

— أقول لك الحق كل الحق ولا شيء غير الحق « تعين كمال نعمان خارج الهيئه العامة لقرض الشعر ، بوظيفة مريض ممتاز عند طبيب مجنون ، ولا عزاء للسيدات . »

— مختار . . المسألة اليوم ليست مسألة سيجارة حشيش ، إما أنك فعلا تتصنع أو أن عقلك اختل .

— الاثنان معا ياسيدتى . . ، ياسيدتى الجميلة . . هل لك فى قدح من الجعة الباردة أيضاً ؟

— يبدو أنى سأضطر للذهاب إذا أصررت على التمادى

— صفية . . ياصفية ، هذه سيدتى الجميلة تصر على الذهاب قبل الزفاف، فهى ناشز وأشهدك على ذلك لزوم قضية « بيت الطاعة »

— لست زوجتك ياغبى ، فكف عن أحلام والدك البشعة .

— بسيطة ، أتزوجك فى التو ، على شرط أن أتزوج صفية فى نفس اللحظة ، آمن وأحدث طريقة للزواج منعا للتسمم والمضاعفات ، إذا اضطررت لأخذ السم النسائى دواء فضاعف الجرعة تنجو ، هذا ما جاء فى فى تذكرة داود المصرى ابن خالة أيوب المصرى وزوج عمة أبو حيان البصرى

— لا . . لا . . هذا فوق الطاقة

— انتظرى ، والله إنى جاد ، نحضر المأذون الآن ونكتب الكتاب جماعة ، ونسوى الحساب بالقسط ، والباقى على سنة وربع .

— قلت لك إن فى الأمر شيئا

— عليك نور ، نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء واسألى

إبراهيم الطيب ، إن فى الأمر شيئاً ، وشيئاً إسم إن مؤخر ، لذلك فلن أكتب المؤخر لأنى سأطلقـكما فى الصباح جميعاً .

— ليست المسألة سيجارة حشيش وأقسم على ذلك .

— دعينى آخذ تعسيلة حتى يحضر المأذون . .

* * *

أفقت فى الصباح فوجدتنى ملقى على الأريكة فى الصالة كما أنا بملابس الأمس وأخذت أتبين ملامح الحجرة بصعوبة حتى ظهر وجه صفية وهى جالسة على الأرض بجوار رأسى ، هززت رأسى واعتدلت فى جلستى سريعا وتذكرت كل شىء ، كل شىء منذ هربى الأول .. ظلت صفية صامتة هادئة، أحسست بمشيئة جارفة فى أن ألقى برأسى فى حجرها ، وفعلت ، وانفجرت باكيا . . لم تتحرك صفية وظلت ساهمة تفكر فى شى ما . . رفعت رأسى فى إصرار جاد .

— هل تتزوجينى ياصفية ؟

— انتظر ياسى مختار حتى تكتمل إفاقتك

— أنا لم أكن واعيا ولا يقظا مثلما أنا الآن ، وإنى جاد فى عرضى الزواج عليك

— هذا فصل جديد فى حلقات معادة لدرجة الإملال

— لن يتغير شىء من واقعنا فماذا تخشين

— إذا لماذا الزواج مادام شيئا لن يتغير

— إتماما للتجربة

— لا ياشيخ ؟!

— فى الواقع إنى أتساءل عن السبب الذى يمنعك أن تعطينى نفسك تماما .

— وهكذا هداك ذكاؤك إلى أنى أنتظر إذنا من المأذون ؟ أليس كذلك ، أنا أعطيك جسدى حسب بنود الاتفاق الشفوى .

— . . لا . . غير صحيح أنت لا تعطيه تماما

— لم ترد حكاية « تماما » ولا « جدا » فى أى بند بيننا فلا تفسد الاتفاق بتصورات سخيفة .

— أنا أعرف ما أقول

— وهل الزواج سيجعلنى أعطيك جسدى وروحى ببصمة على ورقة ؟ لا تنسى أنى لا أفك الخط .

— تصورت أنه سيعطيك أمانا أو أنه سيؤكد لك صدق عواطفى نحوك .

— صدق ماذا ياسى مختار ؟ اسم الله عليك

— ألا تصدقينى والدموع مازالت على خدى

— يتبخر كل شىء بتبخرها ، لاتنسى أنى ابنة « كار » ولكننى فقط فى أجازة ولم أنس أصول اللعبة .

— أنا أعنى ما أقول ياصفية

— تعنى أن تتزوجنى أنا ؟

— وماذا فى ذلك ؟

— وماذا تقول لأصدقائك ؟

— لن أقول شيئا ، لست ملزما بقول شيء لأحد

— زواج سرى ؟

— مجرد طمأنينة لك

— أم لك ؟

— لا أنكر أنى أخشى اليوم الذى ستتركينى فيه ، وأريدك كاملة بلا نقصان حتى فؤادة لم تملأ الفراغ الذى يتهددنى بعدك ، لقد تعودت عليك

— تعودت على ماذا ؟ وأنت لا تعرفنى

— دعينا من التفاصيل ، هل تقبلينى زوجا

— .... دعنى أفكر .

* * *

هل جننت حتى أعرض عليها الزواج دون مبرر ؟ أى شيء ينقصنى ؟ التحدى يكاد يقتلنى ، لا أستطيع أن أنسى نظراتها الرافضة يوم فشلى ، لابد وأن ألف حولها حتى تلين ثم أحس بحريتى وأتخذ قرارى النهائى ، لا يخلو الأمر من فائدة ، لعلها تقبل فأجد مبررا لطلاقها فى حينه ، أو لعلها ترفض فأجد مبررا للتخلص منها احتجاجاً مثلا ، مغامرة مجنونة لكن نهايتها فى يدى وسوف تنهى هذا الموقف الفظيع على أى حال .

* * *

تمر الأيام ولا يبدو على صفية أنها تنوى الرد ، حتى مجرد التفكير لا أحس أنه يشغلها وكأن الأمر لا يخصها ، رجعت فى تلك الليلة بعد جلسة



صفية ...

علاجية حامية انفجر فيها عبد السميع إثر كلمة رفض عابرة من بسمة قنديل، آخر شخص كنت أتصور أنه يحمل أى طاقة من أى نوع ، أذكر أنى خفت على نفسى خشية أن يقتربوا منى أكثر فأكتشف فى داخلى أى شىء آخر غير ما أعرف أو أنفجر مثله دون علم منى ، رجعت ملهوفا إليها لعلها تحمينى منهم ومن أى احتمال آخر ، هجومها علىّ ورؤيتها لى أهون ألف مرة من هذه الفضيحة المحتملة ، دخلت عليها فإذا بى أجدها نائمة كالملقاة على الأريكة فى الطرقة الموصلة إلى حجرة النوم ، لونها شاحب لا يكاد يتميز من لون الوسادة البيضاء ، عيناها غائرتان ، ، صعقت من منظرها حتى كدت أتراجع خارجا .

ـــ مالك يا صفية ؟

ردت بصوت لايكاد يسمع

ـــ يبدو أنى أكلت شيئا فاسداً

ـــ ماذا حدث ؟ خبرينى ! !

ـــ لاشىء ، ولكننى لم أستطيع أن أقوم لمسح باقى القىء وسوف أقوم بعد قليل .

ـــ لا تكادين تقوين حتى على مجرد الكلام ، هل أستدعى طبيباً ؟

ـــ أرجوك ، أنا بخير ، وعمر الشقى بقى ، فى الصباح كل شىء سيكون على ما يرام ، أبعد عن هذه الرائحة الكريهة ، واذهب أنت إلى حجرتك وفى الصباح سأوقظك كالمعتاد .

• • •

• • •

ذهبت إلى غرفتى جزعا خائفا أحاول أن أنسى وجودها أصلا ، خيل إلى أن أى تدخل فى حالتها يحرمها من اختيارها ، شربت ، شربت ، شربت... حتى يلطشنى النوم وأمضيت ليلة لم استطع أن أميز فيها بين الحلم واليقظة ، اختلط على صوت كالقىء مع زئير لبؤة فى القطب الشمالى ، استيقظت متأخراً وما كدت أخرج حتى وجدت أبشع ما رأيت فى حياتى ، صفية ملقاه على وجهها فى الأرض وقد غرق كله فى القىء الأسود والأخضر العفن ، ويدها متقلصة على الحيشة فى تخشب ، هززتها بعنف فتحرك جسدها بارداً فى يدى .

ماذا حدث ؟

فعلتيها يا صفيه بذكاء مجرم ، وفى الوقت المناسب

* * *

رجعت من مدافن الصدقة مع غريب بعد إجراءات معقدة ، كاد البوليس أن يتخذ موقفا سخيفا لولا البطاقة التى وجدتها فى ثيابها مع عنوان غريب ، تولى غريب باقى الإجراءات وأنا فى شبه ذهول ، لم يتعرف أحد على أهلها فمر الاستجواب بسلام إذ يبدو أن البوليس لا يهتم كثيراً بمن لا أهل له . . كنت أسير راجما مطأطىء الرأس وغريب مازال يذرف الدموع فى صمت .

— ثم ماذا ياغريب ؟

— نهاية بشعة ولكنها أفضل من حياتها على أى حال

— ما زلت محتاراً فيما حدث ، حياتى تكاد تنقلب رأسا على عقب بمحض إرادتى .

— كانت شجاعة فى حياتها ، شجاعة فى موتها .

— يبدو أن هذه هى الحرية الوحيدة المتاحة ، حرية الموت . .

— من يدرى ؟

* * *

عبد السلام المنشر

— ١ —

أول ما فعلته فى المستشفى بعد أن انتشلونى من النيـــــل أنى بدأت — بمحض إرادتى — أتعرف على الأشياء من جديد ، إذا كنت فى لحظة يأس من اليـأس قد قررت أن أنهى كل شىء ، فهأنذا أعود ، وعلىَّ أن أتحسس طريقى إليهم وإلى نفسى من جديد ، هذه يدى وتلك ملاءة السرير بين يدى أتعرف على نسيجها الرقيق ، وللنسيج خيوط متداخلة فى رقة وعناد وله لون أبيض ، واللون الأبيض غير اللون الأخضر الأول لون الملاءة والثانى لون البطانية ، والفرق أساسىّ إن أردت أن أعيش . . ترى كيف عشت طوال هذه السنوات أنام على ملاءة وأتغطى ببطانية دون أن أعرف لونهما أو نسيجهما أو حتى وجودهما أصلا ، فضلا عن الفرق بينهما ، هذه الرؤية الجديدة تذكرنى باليوم الأول للأزمة حين فوجئت بضرورة التعرف على اسمى من جديد ، ما زلت أذكر كيف بدأت أميز درجات اللون الأخضر واختلافها . خضار لون الحشيش غير لون إشارة المرور غير لون أرقام عربات الدبلوماسيين ، ولـكن ثمـة فرق جوهرى بين تلك التجربة وبين ما أنا فيه اليوم رغم اتفاق الظاهر ، كانت التجربة فى أول الأمر مفاجأة مرعبـة ، أما الآن فإنى أتحسس طريقى بوعى كامل وإصرار على أن أعيش من جـديد ، فى أول مرة كان الوجود يصفعنى بلا هوادة ولا استئـذان .. أما الآن فإنى أنا الذى اقتحمه بلا خوف أو تردد ، فى التجربة السالفة كنت أفاجأ بالأشياء غريبة على ، وكأن المفروض ألا أراها

أما الآن فإنى أحس أن ما أفعله هو أبسط وألزم قواعد الحياة : كيف يمكن أن يعيش إنسان بأى درجة يستحق معها أن يسمى حيًّا وهو غير دار بالأشياء من حوله ، ما كنت أعتبره غريباً شاذاً حتى أسميته مرضاً أعيشه اليوم وكأنه الحقيقة الوحيدة الممكنة . دقت الساعة فى ردهة المستشفى فأخذت أستمع لدقاتها كأروع نغم موسيقى سمعته فى حياتى ، بُعدٌ جديد دخل فى حياتى اسمه الزمن ، أدركت لتوى أن بين كل دقة ودقة شىء اسمه الوقت ، وأنه أثناء هذا الوقت تدخل أنفاسى وتخرج وتنبض عروقى وتتابع أفكارى فتتغير الأشياء من حولى ، إذا صح أن أى واحد يمكن أن يعيش دون أن يتعرف على الأشياء من حوله فكيف يفعل ذلك بلا وقت يمضى ؛ حين تتوقف حركة الوقت تتوقف الحياة مهما أصدرنا من أصوات وأفرغنا من قاذورات ، أريد أن أعمق الفرق بين ما أنا فيه الآن من مشاعر وبين ما كنت فيه فى أول الأزمة ، أفكر الآن بثقة وإصرار فيما سبق أن مرّ على خاطرى وأنا فى عز الدوامة ، ترى ما هو الفرق تحديداً ، التجربة الأولى كانت مفاجأة مرعبة حاولت أن أهرب منها إلى كل مكان أما الآن فهى إرادة واعية يبدو أنى لا أستطيع أن أعيش إلا بها ، هل ينبغى أن أن يموت الإنسان فعلا حتى يبعث من جديد ؟ هل حصلت على سر الحياة من ماء النيل العظيم ؟ هل قابلت عروسه فى أعماقه فأفشت لى السر الذى كانوا يتخلصون منه معها كل عام حتى لا تفشيه ؟ هل تخرج الحياة من الموت بهذه البساطة ؟ الذى تأكدت منه هو أن إرادة الحياة استيقظت فىّ ولا سبيل إلى إخمادها ثانية أبداً ، وجوه الممرضات لها معالم ثابتة وواضحة وسمحة وطيبة ، حتى صراخهم الحاد وغضبهم وسبابهم يؤكد وجودهم ، أخلّق معالمهم من جديد وأتذكر صرّافة البنك قبيل انفجار الأزمة حين كانت بلا معالم أصلا ولا لون ولا طعم ولا رائحة ، حين احترت فى أن أميز



عبد السلام المشد

بين وجهها وقفاها ، تصورت أنى لو ذهبت اليوم إليها ووجدتها هى هى فلسوف أرى ملامحها خلية خلية تنبض من جديد ، سوف أتعبد فى تقاطيع وجهها وأعيد تنظيمها رائعة متحدية ، سوف أتصنت على أنفاسها وأسمع فى كل نفس صرخة انتصار على الموت ، أعاهد نفسى أن أزورها فور خروجى من المستشفى .

أحاول أن أتعرف على نفسى كما حاولت أن أتعرف على ما حولى . .
. . . أنا عبد السلام المشد ، لم أمت ، ولكننى لم أحيَ بعد ، استحالة أن ترجع الحياة كما كانت ، فلا أنا أستطيع ، ولا هو ممكن ، والأمام مجهول تماما ، أراه أحيانا صفحة بيضاء ساكنة سكون الموت الجديد ، وأراه أحيانا دنيا صاخبة تضرب تقلب بلا أول ولا آخر . .

منذ وقعت الواقعة وأنا فى دوامة لم ينشلنى منها إلا اكتشافى أنى لابد وأن أمشى على الصراط بعد أن غلبنى دوران الدوامة ، لم أعد أطيق لفة واحدة زيادة ، ليكن الصراط شعرة أو علاجا أو صحراء بلا ماء ولا خضرة ولكنه أفضل من الدوران حول نفسى الى مالا نهاية وأنا أنسحب إلى قاع بلا قرار ، لم أعد استطيع أن أنسى الرؤية التى رأيتها فى تلك الأيام كانت حادة وبسيطة ولذلك فهى لاتنسى ، أفكر فى غريب كثيراً واتساءل كيف نجح أن ينسحب وأفكر أحيانا فى زيارته لأعرفه من جديد أو لأعلم كيف أغمض عينيه بعد مارأى وكيف نسى ، الأمر الذى يريحنى من هذا التساؤل هو أن أرجح انه لم ير أصلا ، عجزت عن إعلان فشلى حتى بالموت ، اخترته فى يوم بائس وانا أتصور المؤامرة تحاك بالبلد كلها أو بى شخصياً ، ولكن الحياة انتشلتنى على الشاطىء الآخر ، شاطىء مجهول . . كل ما أعلم عنه أنه شاطىء « آخر » ، انتشلونى من جوف النيل العظيم لأواجه حقيقة جبنى

وهربى ولأجد العالم كله فى حالةفض اشتباك ، لاسبيل إلا المشى على شعرة وإما أن أصل إلى النور المجهول أو يأذن فى أمرى أحد سواى ، لا الدوامة احتمل لفها ولا ثانية أخرى ، ولا الفشل أستطيع إعلانه او ادعاءه ، ولا العمى سوف ينسيني الرؤية ، فإما حياة على أرض هذا الواقع الملىء بالعرق والدم والتراب ، وإما عذاب المشى على الشعرة إلى مالا نهاية ، لست أملك بعد النفخ فى الصور إلا مواجهة مصيرى . لا أمل فى رجعة ، ولا احتمال لوقفه ، ولا إمكان حتى لسخرية تخفف من بشاعة الرؤية ، يداعبنى أمل من بعيد : أن الانسان إنما خلق ليعيش .

* * *

— سمحوا لك بالزيارة اليوم يا أستاذ عبد السلام

— شكراً ، وإن كان لا ينقصنى شىء البته فإنى أشعر أنى بين أهلى تماما .

— زوجتك سيدة طيبة ، تنتظر هذه اللحظة منذ الحادثة ، الحمد لله على سلامتك .

— شكرا .

زوجتى ؟ لابد أن أعيد التعرف على نسيج هذه الكلمة مثلما أعدت التعرف على نسيج ملاءة السرير ولون البطانية ونفسى ، أعيد التعرف عليها بنفس الهدوء وبكامل اختيارى ووعيى ، ز . . و . . ج . . ت . . ى . . يبدو أن هذه الكلمة تعنى أمورا كثيرة معاً ، أمورا معقدة وربما متناقضة ، ويبدو أن من أوجب مهامى وأصعبها هو أن أحل رموزها بإصرار ومثابرة ،

زوجتى اسمها فردوس الطبلاوى على ما أذكر ، من أنت يا فردوس وكيف اكتسبت هذه الصفة ، وما معنى هذه الصفة ، وكيف اكتسبت أنا بدورى صفة زوجك ، طوال الأزمة وأنا أخشى الاقتراب منك حتى عجزت تماماً بعد موت أمى وكان ما كان ، أما الآن فلا أستطيع الابتعاد عنك إذ أنى أقترب من كل شىء . . بلا استثناء ، كَتَبَ علىّ الموت أن أحيا ، وهأنذا أحاول التعرف من جديد على كل الأشياء وكل الناس ، وعلى الزمن وعلى نفسى أى على كل أطراف معادلة الحيـاة البسيطة ، ولـكنى أجدك أصعب هذه الأمور جميعاً من أنت يا فردوس ، كم أنت ؟ هل أنت أمل الخطوبة ، أو التسليم المطبخى ، أو يأس المستقبل ، من أنت يا فردوس ، حلمت فى نوبة فرحتى بالجديد أن أبدأ مع واحدة أخرى ولـكنى تيقنت أنى سـأمر معها بنفس أطوار الخداع ، وأن واقعى هو إلهى وهو مصيرى وهو التحـدى الحقيقى وهو اختيارى الأصعب ، ترى هل أستطيع ؟ وحتى إذا لم أستطع فليس أمامى إلا أن أستطيع .

— حمداً لله على السلامة يا عبد السلام

— الله يسلمك يا فردوس كيف حال الأولاد

— بخير ويسألون عنك

— . . .   .

— . . .   .

— لماذا فعلت ذلك بنفسك يا عبد السلام

كل الحسابات تتداخل وتكاد تختفى تماما

— قدر ولطف يا فردوس . .

— . . .

— . . .

فى لحظة تسطع الشمس فتضىء السكون جميعه حتى أحسب أنه لاظلام ، ثم تأتى سحابة قاتمة تافهة فتخفى ضياءها بلا استئذان ، كيف تستطيع مجموعة قطرات الماء المحملة ببقايا التراب أن تقف أمام شمس جبارة تغمر العالم بالدفء والضياء ، هذه هى الحقيقة التى كنت قد بدأت فى التعرف عليها كالشمس المضيئة ، ثم هاهى ذى كل حسابا تى تذهب هباء بحضورك يا فردوس ، يبدو أنه أسهل على أن أتعرف على نسيج الملاءة ولون البطانية وحتى طبيعة خشب القبقاب من أن أتعرف عليك يا فردوس ، تاريخنا قديم وطبقات الجرانيت والصلب والفحم والنفط تحول بينى وبينك ، كنت أحسب أنى تخلصت نهائيا من هذه المشاعر التى تجعل الخيط يفلت منى قبل أن أهم بالإمساك به ، ولكن لماذا هذا معك أنت بالذات ، مم يتكون نسيجك ، هل لك نسيج أصلا أو لون أو تمييز ، منذ لحظات كنت أزهو بقدراتى عَلَى إعادة خلق الملامح من جديد فلماذا فشلت معك أنت ، وأنا أواجهك كواقعى الأول حيث لامجال لمحاوَلة الهرب ، ماذا تصنعين ، مم تتكونين ، فيم تفكرين ، من أنا بالنسبة لك ، كيف نواصل حوارا ما ، أى حوار ، ونحن لم نتعرف ببعضنا بعد .

— مازلت تسرح بعيداً حتى بعد ماحدث الذى حدث ألم تشبع سرحانا يا عبد السلام حتى تفيق وتعود إلى أولادنا وبيتنا كما كنا .

— كنا ؟ نحن لم « نكن » يا فردوس

— أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، نعود نتكلم مثل زمان وكأن شيئاً لم يكن ، هذا الكلام الفارغ هو أصل المصيبة كلها ، أما كفاك ما كان ، قلبي يحدثني أنه لو استمر الحال على هذا المنوال فإن مصيبة أكبر تنتظرنا وسبحان المنجى .. انفتح البركان وأخذ يقذف بالحمم دون حساب ، واختفى كل شيء وراء أفق مجهول ، الانسحاب مثل التقدم ، لا فائدة على المدى القريب ، فلنوقف إطلاق النار ، اعتداء من جانب واحد والعدو أعزل

— لا تنسى يا فردوس أنى أسترد وعيي بالتدريج فلا تتعجلي الأمور

— قلبي عليك ، وعلى مستقبل الأولاد

— أعدك أنى سأحاول . ماذا سأحاول وكيف ؟ قضيت يومين وأنا أحاول وخيل إلى أن الطريق ممهد وأن الرؤية واضحة وأن العالم موجود من حولي لأنى موجود بداخله ، حتى واجهت امتحان القبول فى مدرسة الواقع الحقيقى ، فإذا بما أنا فيه وهم فى وهم .

— ماذا ستحاول ثانية ياعبدالسلام ، ألم تشبع محاولات ؟ لماذا لا تعيش مثلنا ، يا أخى كن مثل الناس دون محاولات ولايحزنون

— يا ليت يافردوس ، ياليت .

— وماذا يمنع يا عبد السلام

— يمنعني الشديد القوى

— نفعل أى شيء حتى تعيش مثلما يعيش الناس .

• • • • •

• • • • •

— وهل هم يعيشون يا فردوس ، يا ليت يا فردوس ياليت، ماذا أقول لك الآن وكيف أنهى هذا النقاش ؟

— وهو كذلك

— نذهب لمن يعرفون ، نغير اللعب ، نفك العمـل ، أى شىء إلا أن يستمر الحال هكذا بعد ما حدث الذى حدث . .

ـــ ألم تتعلمى من حكاية فشلنا مع المرأة السودانية بأن هذا الطريق لا جدوى منه . .

— هناك من هو خير منها ، يعرف أكثر منها

— وثقافتك ، وليسانسك ، ودراستك للتاريخ وآمال الخطبة ، وتحدى النسيان والسرقة والتسليم

* * *

* * *

ما زلت يا فردوس كما أنت ، كنت أحسب أنك تغـيرت وعرفت سر الحياة مثلما تصورت أنى عرفته ، ولـكن يبدو أنك قد توقفت تمـاماً منذ زمن بعيد ، أناوحدى ؟ أنا لن أقدر عليك ولو أوتيت سحر هارون وقوة هرقل وحكمة سليمان ، وكل حل بعيداً عنك متجاهلا وجودك هو حل زائف منذ البـداية ، إما الواقع كله . وأنت صرة الواقع ، وإما إعلان الـكذب والبحث عن المسكنات ، أين كانت ويا ليتها تفيد ، يخطر على بالى أنى إنما أحاول المستحيل ، وأنى أصر على أن تـكون « هى » خطيبتى ، . . هدفى الأول واختيارى الصعب — لم يعد يملؤنى اليقين أنها ستفشل أو أنى سأفشل معها ، وهكذا لا أستطيع أن أبرر توقفى ، فليـكن ، ولـكنى سأخوض

الدنيا بالمرض دون استثناء أو تبرير ، ليكن ما يكون وأكثر ، كل ما أستطيعه الآن هو أن أبحث عن معين ، أين أنت يا إبراهيم يا طيب ، لو أنى أعرف عنوانك لذهبت إليك أسألك النصيحة والعون ، قابلتك فى عيادة طبيب فهل لا بد أن ألقاك هناك دائماً ، لماذا يحتاج لقاء اثنين إلى ثالث دائماً ، ما الذى يحدث عند ما ينفرد اثنان ببعضهما البعض ، كيف يسيل لعاب كل منهما لالتهام الآخر فى غفلة من الناس ؟ كيف أوثق علاقتى بزوجتى دونك يا إبراهيم ، وكيف أوثق علاقتى بك دون طبيب ، لا بد أن فى العلاقات الثنائية سرا معطلاً لا أفهمه .

— ليس أمامى يا فردوس إلا استكمال العلاج

— .. أى شىء .. أى شىء .. أوافق على أى شىء لكى ينتهى السرحان والكلام الغامض الذى لا يفهمه أحد

— ومن أدراك ، لعلك تضطرين إلى فهمه يوما

— أنا أفهمها وهى طائرة ، ولكنك أنت الذى تعقد الأمور .

— ليكن

— ربنا يرجعك لى ولأولادك بالسلامة

— لا توجد إصابات ويبدو أنى سأخرج فى خلال يوم أو اثنين

— ربنا يجعلها بداية خير .

— كريم ..

* * *

— ٣ —

الظاهر أنه لا بد من المواجهة الشاملة فعلا ، ولا مفر من المحاولة حتى النهاية ، طلب منى الطبيب أن أحدد موقفى من زوجتى أولا ، كان خبيثاً وهو يتظاهر بإعطائى حق الاختيار فقد أفهمنى أن أى تقدم لا يمكن أن يتم على حساب « آخر » مجهول له ، وعلى زوجتى بدورها أن ترى ثم تختار ، وخاصة — على حد قوله — وأن الأعراض شملت علاقتنا من كل جانب ، جزعت من احتمال حضورها ولكن أملا استيقظ فى داخلى يلوح باحتمال أن أعيد التعرف عليها من خلالهم ، ما دمنا قد عجزنا عن ذلك وحدنا ، جزعى أكبر من أملى ، بل هو خوف القديم خوف منها على وجه التحديد ، لا بد وأن أعرض عليها الحضور ويا ويحى لو رفضت . . ويا ويحى لو قبلت ، لا أنسى أنى أنا الذى أغريتها بالبقاء فى البيت دون عمل بعد أن حصلت على الليسانس ، كنت أخشى أن تتغير من خلال عملها بعيداً عن حساباتى وهأنذا أدعوها بنفسى لأكبر مخاطرة للتغير لم يعد أمامى اختيار ، أقولها للمرة المائه ، واللعبة تستدرجنى خطوة خطوة . . متطلبات « الحياة » تزداد تعقيداً وصعوبة ، واحتمال الموت يختفى تماما .

— مالى أنا بكل هذا يا عبد السلام الله يهديك

— هذا هو رأيه ، وهذه مهنته وهو يعرف الصالح أكثر منى ومنك

— . . .

. . . .

— نحن بخير يا عبد السلام وكفى جرياً وراء الأوهام

— لست بخير يا فردوس

— وما الذى يمنعك أن تكون بخير ؟

— أنت

— أنا ؟

— لا أقصد أنت أنت ؟ ولكنه أى «أنت» ؟

— الله ! .. الله رجعنا للخلط من جديد ؟

— آسف . . ولكن . . آسف .

نعم أى أنت ، فإذا كان لى أن أعيش فعلا فلا يمكن أن ينغلق العالم وراء حدودى أنا ، لابد من « أنت » ، وهذه هى المغامرة الكبرى ، حين تزوجتك يافردوس كان عندى أمل فى أن تكون حياتنا هى هذه المغامرة وأن ننجح فى تنفيذها ، وها نحن نواجهها بعد أن حسبناها دفنت فى أعماق الخوف والموات ، نعود إلى نفس المغامرة ربما بأمل حقيقى ، وربما فى يأس أمر ، هل ضاعت هذه السنوات هباءا ؟ أو أنها كانت استعدادا للممكن « بالرغم معا » ، دعينا نبدأ ثانيا يافردوس لنرى ماذا هناك ، إصرارك على المقاومة ييئس الأنبيـــــاء ويحيى فى الطمأنينة الخبيثة إلى أنك لن تتغيرى ، هل أيأس لأطمئن للاستسلام ، هل أستطيع أن أقترب منك منك وقد سبق أن أعلنت أعضائى العصيان لأى أوامر كاذبة مسكنة ، هل أطلقك وأبدأ من جديد .. ولكن ماذا لو اكتشفت خيبة أملى فى الجديد بعد عشر سنوات أخر؟ أكون ساعتها قد فقدت كل مقومات صراعى ، هل أستسلم حينذاك انتظر صدقات العطف والتمريض ؟ حين أفقت من الغرق وبدأت أتعرف على الأشياء والناس من لون ملاءة السرير حتى الشغالة تنظف الأرضية ، خيل إلى فجأة أنى إنسان آخر ، ربما تصلح له كلمة لها رنين خاص .. إنسان «حضارى» مثلا ؛ نعم هذه هى الكلمة لست

أفهم معنى الكلمة تماما بقدر ما أشعر بها ، لم أعد أنا عبد السلام المختبىء فى حضن عماه المستسلم لمصيره ، انتهى كل ماض لى بلا استئذان ، سوف أعمل شيئا باقيا قبل أن أموت وليكن هذا الشىء هو « الحضارة » ذاتها حتى لو لم يكن كذلك ، سوف أعتبر أن الحضارة هى أن أمضى أربعا وعشرين ساعة واعيا عاملا متفاعلا ، أنا الحضارة ..!! ياحلاوة لا بد أن أسجل نفسى ، هذه فائدة الكتابة ، سيأتى أحدهم بعد سنة أو مائة ليقول أن الإنسان الذى هو عبد السلام المشد كان إنسانا حضاريا ، ياحلاوتين ، خيل إلى أن مجرد بقائى على هذه الأرض بهذا الشكل الجديد خليق بأن يغير السياسة ويعدل الاقتصاد ويحدد مسار التاريخ ، فإذا كان ذلك كذلك فأنا مساهم لامحالة فى صنع نفسى ، يعنى بلدى ، يعنى الإنسان فى أى مكان فى الأرض ، لم أكن أحلم ولا أتمنى ، كانت الأمور بسيطة فى شكلها وتتابعها وكأنها نسيج متماسك مثل نسيج تلك الملاءة البيضاء ، وحين هممت أن اقوم من السرير لأول مرة ذاهبا لقضاء حاجتى وسألتنى الممرضة إلى أين أنت ذاهب ابتسمت ، ولم تدرك الممرضة أنى ساعتها كنت أهم بالقول أن هذا أيضا فعل حضارى ، وكأن أى عمـــــل أقوم به بهذا الوعى الحاد كان من ضمن رحلتى الجديدة مع الناس والأشياء . . هكذا أصنع التاريخ ، . . ولو ناقشنى مائة متبحر فى سخف يقينى هـذا ، لأقنعتهم ، حيث كنت مستوعبا تماما أن الحضارة ليست نتاج الرفاهيـة ووفرة الوقت ولا هى عناد فنان أو تقشف فيلسوف ، ولكنها أنا . . وأنا كل هـــــذا معا ، والفنان أو الفيلسوف أو العالم إنما يسجلانى « أنا » لن لا يستطيع أن يكون أنا . . الله أكبر !! يا حلاوتى . . أنا عبد السلام الحضارى !!!! اللهم لا تجعله جنونا جديدا . .

ثم انتهى هذا اليقين إلى مشكلة فرعية تشغلنى ليل نهار : كيف أعيش مع زوجتى ، وكيف تتغير أو أتغير ، حتى نتفاهم ونتواصل ، هذا هو مربط الفرس حتى ولو كان الإسم هو ، الحضارة العلاجية الطبية الزوجية الحديثة ؟

ولكن هل أنا صادق فعلا فى المحاولة ؟

* * *

بعد ضغط وإصرار ابتدأت فردوس تألف المكان والأشخاص ، نظراتها إلى بسمة تعيد إلى صورتها الوديعة المحببة أيام الخطبة ، تحاول أن تتبادل الحديث مع كل من بالمجموعة حتى خيل إلى أنها تستكشف الطريق أولا ، ولكنها سرعان ماألفته وأصبحت تنطلق دون تردد أو استئذان ، سمعتها تبادل ملكة الحديث — ربما بصفتها الوحيدة التى تحضر مع زوجها هى الأخرى ، كانت تحاول أن تثنيها عن الحضور دون جدوى وملكة تبادلها الخوف والاحتقار سراً ، ألاحظ محاولتها وتغيرها دون تدخل ولكنى أشعر أكثر فأكثر بالخوف والأمل ، أشياء كثيرة تستيقظ فيها تلوح لى بإمكان الحياة معها كما تصورت يوما ولكنى أحس بالتهديد حين توجه الهبات الجديدة إلى غيرى ، سأواصل المحاولة ولو كانت هى الدمار ذاته ، لابد من « أنا » و« أنت » ، افهمينى يافردوس لأنك أقرب « أنت » إلىّ ، ومع ذلك فلايخفى عنك اهتزازى إزاء نشاطك الجديد ، وأنت تريدين استغلال هذا الاهتزاز للنهاية ربما يضطرنى خوفى إلى الرضوخ والتوقف .

— ....

— أنا فى انتظارك يافردوس من زمن بعيد

— لاأظن ياعبد السلام

— ....

— ....

— ... بماذا تهددينى يافردوس

— ....

— ....

— لن تحتمل لو تخطيت حدودك

— يجوز

— شىء يتحرك فىّ يا عبد السلام فهل أستمر ؟ هل تتحمل نتائجه ؟

— كل واحد مسؤول عما يفعله

ولكن هل أنا حقيقة صادق فيما أقول ؟ أراها تسرع الخطى ولا أدرى إلى أين على وجه التحديد ، مسئول ؟ ما معنى مسئول ؟ ما زلت أواصل بحثى لمعرفة معنى كل شىء من جديد ، ولكن وجودها ومفاجآتها تربك خططى تماماً ، فهى إما مهاجمة تغرينى بالتراجع وإما منطلقة ألهث وراءها لأعرف إلى أين تذهب فى عدوها الفجائى وكثيراً ما لا أستطيع تحديد وجهتها أو اللحاق بها فيملكنى الرعب ، نظراتها إلى إبراهيم تحمل أكثر من معنى ، ولكنى أثق فى إبراهيم تماماً ..

— ليكن ما يكون .. ماذا أصنع ؟

— هب أنى اكتشفت من خلال كل هذا أنى لا أحبك يا عبد السلام

— ..... قسمتى

— استسلام مائع

— يؤلمنى كلامك جزعاً .. ولكن لا سبيل إلى التراجع .

أبحث فى الخفاء عن طريق سرى للتراجع فلا أجد حتى السراب على مدى بصرى ، نار الضياع وسرعة الدوامة ينتظرانى حيثما التفت بعيداً عن هذا الذى يجرى ، وحين أفترض أن الطريق الوحيد الباقى لى قد ينتهى إلى لا شىء ، أو حتى إلى خدعة أنا مساهم فى صنعها ، يظهر لى شبح الموت من جديد ، فأبعده بعنف صادق وأجدنى مندفعاً إلى الحياة ... ، سوف أفعلها حتى ولو لم يبق سواى ، يا ترى ماذا تفعل فى كل هذا يا إبراهيم

— الألفاظ لا تسعفنى يا إبراهيم فهل تعرف مابى ؟

— أعتقد أنى أعرف ما بى ، وأظن أنه هو هو

— ليس بالضرورة

— يخيل إلى أحياناً أنها فى النهاية قضية واحدة

— فردوس هى المشكلة ، وعلاقتى بها امتحان يومى عسير وأحياناً أقول لنفسى إنى لو كنت خالياً مثلك لهان الأمر ..

— ومن قال لك إنى خال

— خيل إلى ذلك

— خدعة الوحدة توحى بالاتزان الظاهرى ، ولكنى مصر على كسرها رغم فشلى السابق .

— حتى الفشل أفضل مما أنا فيه ، صعوبتى معها متناهية لأنها كل يوم فى شأن جديد .

— الصعوبة موجودة مع أى آخر ، لو صدقت فى محاولة الاقتراب ، لوجدتها هى صعوبة أى واحد مع أى واحد .

— أنت أذكى من أن تختزلنى هكذا إلى « أى واحد » ، كثيراً ما يرعبنى تبسيطك الزائد للأمور .

— محاولة الاقتراب الصادق هى مخاطرة حقيقية

— لا سبيل غير ذلك وأنت خير من يعلم

— ولكنك قصرت محاولاتك عليها تماماً .

— زوجتى ... وأم أولاى

— لهذا كانت أصعب من كل آخر

— أخشى أى ابتعاد مرحلى فيلتقطها جائع نذل

— حدث ؟

— ماذا حدث

— دفعتها بنفسى إلى التمرغ فى الوحل

— دفعت من ؟ فردوس ؟

— لا .. زوجتى ..

— أنت متزوج إذاً ! وزوجتك ؟ لماذا لا تحضر معنا ؟ أين هى يا أبو خليل ؟

— قلت لك فى الوحل

— وحل ؟؟

— نعم .. وحل ؟فى حضن أدنأ الرجال بلا أى أمل فى أن ترى ما تفعل

— وأنت .. وهى .. هى زوجتك ؟ ما زالت زوجتك ؟

— نعم .. أدفع ثمن خطئى صاغراً

— أى خطأ ..

— ماذا جرى لك ؟ ألم تقل لتوك أخشى الابتعاد عن فردوس فيلتقطها أى جائع نذل

— وهل حدث لك ذلك

— بالضبط .. لم تحتمل الانتظار ، ولم أنتبه لضرورة المحاولة ، فذهبتْ تبحث عمّن « يفهمها » ، وما زالت فى بحث متصل ...

— وأنت .. تفهم الجميع هنا .. ولا تفهمها ..

— تريدنى أن أفهمها كما تريد ..

— و ... و ... ولا سبيل لأن تأتى بها هنا .

— لا سبيل إلا إذا جئت بعشاقها معها ..

إبراهيم يا طيب أهذا هو ما وراءك أيها الإنسان المتزن الهادئ ، أهذا هو سر حكمتك يا إبراهيم ؟ ماذا تفعل إذا يا أخى ورفيق رعبى ، هل كتب علينا أن نكذب عليهن حتى يرضين ، أو أن نصبح قوادين سراً أو علانية ، لا تكاد تفتح إحداهن عينيها حتى تبحث عن طريقة خاصة تبرر بها اعتمادها الجديد ، وتعلن أنها إنما تبحث عن لغة للتفاهم ، والاستماع لمن يقدر مواهبها الغائبة عن فراش زوجها الغبى ، ولكن كيف تحتمل هذا الجرح المقيح يا أبو خليل

— لماذا لم تطلقها حتى الآن يا أخى

— أدفع الثمن وأنتظر المعجزة

— أية معجزة

— أن أفعلها دون حقد أو اصطناع بطولة ، أو .. أو أن تعود ونحاول من جديد .

مصيبة سوداء هذا الذى يجرى ، كيف يمكن أن نبتعد دون خيانة ،

كيف يتحمل اثنان معاً وعورة الطريق « معاً » ، كيف أبتعد عنها «لها» ، واقترب منها « لنا » ؟ ، ما الضمان وَقد أرسلت مراسيلها إلى كل من يهمه الأمر ، نظرات مختار لطفي لا تخفى على ، ولولا أنها اختارت إبراهيم فى أول جولة لكان رعبى هو الجنون ذاته ، هل أطلقها من الأول حتى أرتاح أو أدعها تختاره ؟ تختـــار ماذا ؟ وكيف ؟ دون رؤية أو بدائل ؟ وهل أستمر بقية حياتى أفكر فيها وفى احتمال خيانتها وكيفية تغيرها والحرص فى البعد عنها واليقظة فى الاقتراب منها ؟ يا حلاوة !! « والحضارة » التى أنا هى تذهب فى ستين داهية انتظاراً لشفاء ست الحسن والجمال ؟ ما هذه الكلمة الجديدة التى دخلت قاموسى اليومى : « الحضارة » هل هى مهرب أو مطلب ؟ ماذا قلت لها يا إبراهيم وماذا قالت لك ، هل أنت كما أعتقد أم أن جرحك قد يبرر لك لعبة جانبية لا تعرف أبعادها .

ـــ الحمد لله أن فردوس طرقت بابك أولا يا إبراهيم .. قبل ...

قبل مختار مثلا

ـــ ماذا تعنى ؟

ـــ أتقزز منه يا إبراهيم ، لعابه يسيل دون تمييز

ـــ حلمك يا أخى ، مصيبته أكبر منى ومنك

ـــ وخطره أكبر كذلك

ـــ خطره أكبر على من يريد التعرض لخطره

ـــ الأطفال جوعى لقطرة عطف حتى ولو كان مسموما

ـــ الخوف والتبرير ليس لهما مكان

ـــ ... والنساء لا يحتملن الحرية والانتظار

— لهذا كان واجبنا أصعب ...

— حكمتك ورؤيتك تذهلانى ، وأتعجب كيف انزلقت امرأتك وأنت بهذه الحكمة .

— تعلمت الحكمة منها .. من فشلى معها .. ومن فساد الكلمات ، إما أن تصبح الكلمة واقعاً أو أن نكف على ترديدها .

— ٤ —

وبعد يافردوس ؟ إلى متى تتلكئين وتقاومين وأنا ألهث وراء تقلباتك وكل حيــــاتى معطلة إلا من حكايتك ، أملى يتزايد وإصرارى يتحدى ولا سبيل إلا هذا السبيل مهما طالت مناوراتك ، اعقلى يا فردوس ووفرى الوقت لنا . . ألاحظ أنك بدأت فى إدراك أن فرصتك أكبر وأن أمانتى معك هى نوع من الارتباط أقوى من الكذب والنفاق والاستغلال .

— . . . .

— فلتكن أيامنا مليئة بالحياة . . مازلت انتظرك يا فردوس

— . . . .

— . . . .

— كلام غير مفهوم تماما ، ولكنه يكاد يطرحنى أرضا . .

* * *

وقد كان ، طرحت مقاومتها أرضاً فى تلك الليلة ، أشرقت شمسها حتى غمرنى دفؤها وأنار لى ضياؤها ، تمنيت الموت خوفا من اللحظة التاليـة ، المفاجأة أكبر من تصوراتى وحساباتى ، لايمكن أن يكذب الجسد يافردس ،

ها نحن نقترب ، ولـكن . . يا ويحى لو كانت هذه خدعة من صنف جديد ؛ أريد أن يتوقف الزمن حتى لا أفاجأ بما بعد هذه اللحظة ، يهددنى أى احتمال آخر ، أنظر إلى الباب وكأنه عالم غريب علىّ أخشى قدوم أى طارق يثبت لى أن هذا الذى حدث غير قابل للاستمرار . .

* * *

تحققت مخاوفى تدريجياً إذ لا يمكن أن يكون هذا هو نهاية المطاف . . لحظات اللذة الغامرة كلها صدق ولـكن هناك نقص هائل لا أدرك حقيقة أبعاده .

— أليس هذا هو نهاية المطاف يا عبد السلام ؟

— بل ربما بدايته إن استطعنا . .

— لست أفهم ماتعنى

— قلبى غير مطمئن . .

— . . .

— . . . .

— اذهب أنت ، وسأنتظرك لأجعل من بيتنا الجنة نفسها

— فى هذه الجنة خطأ ما . . ولا بد من الاستمرار

— . . .

— . . .

— ماذا تريد منى بعد ذلك ، أو أكثر من ذلك

— أين أنت ؟ أكاد لا أرى داخلك ، كأنه انقلب إلى الخارج جميعه فلم يعد هناك داخل ، ليس للإنسان كيان إلا بالحفاظ على أعماقه .

* * *

تيقنت يوماً بعد يوم أن هـذه الإشراقة التى بدت رائعة لم تـكن إلا نتيجة مباشرة للتراجع والاستسلام ، ألغت فردوس كل التزام لحدث هذا التوافق الخادع ، تحاول أن ترشونى بكافة السبل وقد استجبت لها فى كثير من الأحيان وانتصرت على عجزى نهائياً ، أحياناً يراودنى خاطر خبيث أن أتناسى بقية القصة ، ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، فلنكف عن الذهاب ونحترم السن والإمكانيات والأيام والواقع ، لا أكاد أستسلم لهذا الخاطر بضع ساعات حتى يثور علىّ داخلى وأحس بالخطر الداهم .

٢ ـــ لن تمر فترة حتى تنفرد بك لتلتهمك قرباناً فى هذا المعبـد الشبقى البهيج .

١ ـــ ولـكن إلى متى أظل أرفض الشىء ونقيضه ؟

٢ ـــ إلى أن تقبل الشىء ونقيضه

١ ـــ أحسدها أحياناً وهى فى قمة نشوتها ناسية كل شىء ، متناغمة مع كل شىء وأنا مثل ذكر النحل . . عاملا ثانوياً يحقق تآلفها الشبقى المقدس يا ليتنى كنت هى

٢ ـــ كاذب . . فلن تستطيع .. ولا أنت تريد

١ ـــ أستطيع لو أغلقت على أبوابى ونسيت كل العالم وألغيت الوقت وعشت عمق اللحظة ونشوتها .

٢ ـــ ... جرب

١ ـــ أفـكر أن أترك نفسى معها إلى نهاية النعيم ، ماذا فى ذلك ؟ هل ستتهدم الدنيا فوق نافوخى ؟ هل ستتوقف الأفلاك لو شاركتها خدعتها

٢ ـــ حاول . . ثم قابلنى

* * *

المصيبة أنى لا أستطيع ، وفى نفس الوقت لا أستطيع رفضها تماما، خطر دعارتها أكبر وهى على هذه الحال ، لا أستطيع أن أرضى بما وصلنا إليه . . ولا أنا قادر على تخطيه ، بعض أفراد المجموعة يكاد يفتش سرى ويتهمنى بالتوقف والسرقة ، أنا لم أتوقف عن المحاولة يا جماعة ، ليس من حقكم أن تحكموا علىّ هذا الحكم القاسى ، كلكم تخليتم عن مسئولية مثل هذه العلاقة إما بالعزوف أو بالهرب أو بالفشل ، حتى إبراهيم نفسه جرحه مازال ينزف ولا ضمان لنجاحه فى الجولة القادمة ، نجوى هربت وتركت ابنتها ولم تحقق شيئا بعد ، ترى هل تدركين مابى يا نجوى ، أنا أحس أنك تقدرين صعوبتى وإصرارى .

— أخشى أن تيأس معها يا عبد السلام فأحس بالوحدة أكثر فأكثر

— لست هنا لأيأس يا نجوى

— اليأس يتربص بنا عند كل منحنى ، وعمركما يبرر أى توقف .

* * *

قاربنا الأربعين يانجوى وما زلنا فى بداية البداية ، ولكن أى بداية أفضل من حياة كاذبة حتى لو مضينا بقية عمرنا عند نفس النقطة ، الموت نفسه أصبح بعيد المنال ، إن لم تكلى يا فردوس حتى تشعرى بالناس وبى دون أن ينقص هذا من وجودك وسعادتك فلن تنتهى إلا إلى الضياع من جديد ، لن تنجحى فى خداعى مهما قدمت لى من أطباق شهية رغم ما تعلمين من جوعى الشديد ، . . أنا فى حاجة إلى نوع آخر من الصحبة وأنا فى انتظارك يا فردوس ، يثيرك رفضى وتتساءلين عن أسباب وساوسى .

أنا مصر على إكمال الطريق .. فأنا لم أنس أيام العمى الحيسى ثم العاصفة وهزات البرق والرعد وَجبال الظلمات ، لم أنس عجزى ولا أمانى ، ولا أمها الحاجّه ولا آمال ولا المرأة السودانية ، ولأنى لم أنس كل ذلك فلن أرضَ بالتوقف لأن نهايته هى كل ذلك بعد أن أكون أكثر ضعفاً وأشد إنهاكا ، لا يا فردوس لست بديلا عن الناس ، وجسدك لن يقنعنى بالتوقف ، أحس أحيانا وأنا معك فى السرير أنى مسمسة جافة على سطح وعاء مملوء بالدهن المتكاثف ، وحين تنصهرين أحس بالبرد والتقلص خشية التلاشى تماما ، الناس والتاريخ ينتظروننا يا فردوس ، لا أصرح لك بموقفى الجديد ، الملىء جداً فهو الجاد جداً ، الآمل جـــداً ، الواعى جداً ، مرة ثانية حتى لا تظنينى مخرفاً ، ماذا لو قلت لك أنك أول خطـــوة « نحو إنطلاقى إلى رحاب حياة كاملة فيها فائض الوقت للاسهام بما يبقى ويفيد » .
لا تستهينى بتجربتنا على بساطتها ، تبدو لى أحيانا ثانوية معطلة .. ولكن يقينى يقول أنها تحد للفشل ذاته والبحث عن إمكان أن « يعيش » الإنسان فعلاً ، أشاهدك أحيانا تنفضين التراب عن كتبك أيام الكلية وأحس بدبيب الأمل يتسرب إلى عقلى ووجدانى ، وأحلم بصحبة حقيقية ، آه لو فعلتيها يا فردوس ، لابد أن تفعليها وحدك لك ، كل ما أستطيعه هو أن أرفض استمرار كل حل آخر ، ولكن جرح إبراهيم وخوفى علمانى أن أحافظ على شعرة معاوية ، أشعر أحيانا أنى أطلب منك ومنى أسهل شىء فى الوجود ، وأحيانا أشفق عليك من محاولة فشل فيها الجميع حتى الآن ، غريب كان أشجعهم وانقطع عن الحضور ويتجنبنى على السلم باستمرار ، أنا الذى دعوته فى أول الأمر لكنه كان أشد حاجة إلى المساعدة منى ومنك ، وهاهو ذا ينسحب فى إصرار ، أفكر فى أن أعاود المحاولة معه .

— ٥ —

— لماذا امتنعت يا غريب عن الحضور

— خدعتني مرة . . فلا تحاول استدراجي ثانية ، أنت غيري يا عبد السلام ، هذا ما أحاول أن أوصله لك منذ اليوم الأول الذى تعارفنا فيه .

— نعم أنا غيرك ، ولكننا التقينا فترة ، وأفتقدك كل يوم أكثر فأكثر .

— لاتخدع نفسك لم نلتق أصلاً ، ويكفيك فردوس ، فأنا لا أستطيع التظاهر والخداع مثلها .

— لست مخدوعا ، ولكنى صابر لأنى أعلم صعوبة الطريق وطوله

— ماذا تريد منى ؟

— أنت « الآخرون » ، وعلاقتى بكم تحمينى من بيع نفسى لها أو سرعة الضجر منها .

— تريد أن تستغلنى لأحميك منها ؟

— استغلك وأسمح لك باستغلالى يا أخى ، ياليت

— هأنذا أسكن أمامك فأفعل ماتشاء بلا تعقيدات فارغة ، أم أنه لا بد أن نلتقى عند طبيب مرتزق .

— هناك نتكاشف وَنتعرى دون حرج ، ثم لاتنسى أنك تصدنى بطرق مختلفة باستمرار ، وأنا ماعرفتك على حقيقتك إلا هناك

— مالك أنت وحقيقتى ، إياك أن تخدع فى ذلك اليوم الذى تنازلت فيه عن وعيي ، كانت لعبة تصنعتها بمحض إرادتى ، وأظنك أذكى من أن تتصور أنها تعنى تواصلا أو خلافه .

— تراجعك لا يخدعنى ولست مصرا على نقاشك ولكنى أشفق عليك من وحدتك . .

— ياعبد السلام كفى إشفاقاً ، شبعت نصائحا وتبرعات عاطفية مغذ عرفتك ، وأحب أن أواجهك بوقاحة تعلمتها من شيخك البذىء ، إذا لم يكن فى قدومك هنا شىء غير النصح واتهامى بالمرض ، أو دعوتى للعلاج فأنا لاأريد أن أرى خلقتك ولامؤاخذة .

— أحس بخوفك أكثر ، وبرغبة فى الاقتراب أكثر

— علمتنا هذه اللعبة الوقاحة والتبلد معا

— شكرا ، ولكن أى علاقة أفضل من لاشىء

— مثل علاقتك بفردوس ، ملكة الحمام المحشى ، هنيئاً لك بها ولكنى لاأقبل علاقة مماثلة معك أنت بالذات .

— أنت شىء وهى شىء ، ثم إنى لاأكف عن مواصلة السعى معها وإليها .

— أريد شيئا آخر . .

— أم لاتريد شيئاً البته ؟

— من حقى أن أحلم كما أشاء ، والنساء ليس لديهن إلا الخوف والكذب وأنت لن تفهمنى حتى الموت .

— المحاولة المستمرة أفضل من التسليم

— . . . واللحم المذبوح « بطريقة شرعية » أرخص الموجود

— لا ألومك يا غريب ، ولا أستطيع أن أنسى محاولتك الصادقة ذلك اليوم

— يا ليتك تنسى يا أخى وتريحنا من ادعائك الشهامة والشعور بى كذبا وعدوانا

— ولكن هل تستطيع أن تنسى أنت ؟

— أحاول جاهداً . . وسأنجح لا محالة

— يا ليت . .

— وجودك قبالتى مصيبة فى ذاتها .

— أعلم ذلك ، ولولا أزمة المساكن ما رأيت خلقتى بعد اليوم .

— سأحاول أن أتجنبك حتى نلتقى .

— لن نلتقى

ما أبشعها وما أصدقها من نهاية ، لم يتغير غريب منذ عرفته ، كنت آمل أن أجد صديقا حقيقيا فدعوته ليرى بنفسه هذه المحاولة الجديدة . . . خاصة وأنه قد بدأ طريق العلاج من قبل ، توقف مصراً على اجترار ألمه ووحدته إلى ما لا نهاية ، أنظر فيمن حولى يترجّحون على السلم فأشفق عليه وألتمس له العذر ، ثم أنظر إلى وحدته وألمه فأشعر أن أى محاولة خير من هذا

التوقف اليائس ، كيف إذاً يا فردوس تكون حياة أو سعادة أو حضارة وأنت تنسين غريباً تماماً وهو يسكن أمامك ، كيف تحاقين فى السماء السابعة وتتصورين أن هذا هو نهاية المطاف ، وغريب على مرمى بصرك مطحون تحت سابع أرض بلا معين ولا يخطر على بالك ولا ثانية ، لن أتحرك من موقفى ، لن أقترب أكثر حتى لا تقفزى على كتفى ، ولن أبتعد أكثر حتى لا تبررى لنفسك الدعارة ، وعليك أن تكملى الطريق وحدك بعد هذه اللحظة ... ، أبارك كل محاولاتك صادقاً رغم أنى أشعر أنك تبتعدين عنى لكن دون ارتماء فى أحضان أحد إلا حضن ذاتك ، يطمئننى ذلك أكثر إلى قرب عودتك ثانية إلىّ باختيارك ، لن أرضى بالوحدة ولن أمارس الكذب وليتحقق المستحيل أو نمضى بقيــــة حياتنا فى نفس النقطة ، الصبر والوقت والاصرار والعدل ، نعم هذه هى قيمى الجديدة .. لا مفر منها ، ولا إعلان عنها . . وكلى أمل يا فردوس أن تصدق محاولتى من واقع مسيرتنا اليومية

ألاحظ تسهيماتك اليقظة أحيانا وأحس إن عقلك قد دبت فيه الحياة من جديد وأنتظر . . لابد أن يحدث الشىء يوما ما

— التحقت بوظيفة مدرسة إعدادى

— دون مشورتى ..؟

— نعم ..

— هكذا ..؟ ببساطة ..؟

— نعم ..

— شكراً يا فردوس

— ليس شيئاً يخصك حتى تشكرني عليه . . ألم تكن أنت سبب بقائي بالمنزل

— كان الخوف هو الموجه الأول وعلي أن أعتذر وأشكرك لمحاولتك الاقتراب

— لا أحاول الاقتراب ، ولكني أزيل آثار العدوان

— لا أنكر دوري المحطم

— لم انتبه إليه إلا أخيراً ، إلا أني مسئولة ع:ه بداهة ، هكذا تعلمت

— لم يكن لدينا خيار ، كنا وحدنا . . . تماما . .

— ولكني وحدي الآن أكثر من أي وقت مضى

— أشعر بذلك ، ولكن هذا هو هو مايشعرني أنك أقرب إليّ من أي وقت مضى .

— لا أستطيع أن أدرك معنى هذا الموقف الصعب ويبدو أنه يستحسن ألا ادرك معناه . . يكفي أن نعيشه . .

— ليكن . . ولكن كيف . . كيف يمكن ؟ . . . لايهم ، المهم . . أنه يمكن .

— سيحدث .

— ٦ —

كنت أهبط الدرج ببطء ، وإذا بي أجد نفسي وجها لوجه أمام غريب، واجهت منظرا لم أره فيه أبدا ، انطفأ وجهه اكثر من ذي قبل وزادت التجاعيد فجأة فيه وبرزت عظامه وكأنه لم يأكل منذ شهور طويلة ،لاحظت

رباط عنق أسود مختبئا وراء ثنيات سترته التى تهدلت عليه بشكل ملحوظ بعد هزاله البادى ، توقفت قليلا وترددت فى مفاتحته فى أى شىء ولكنى أحسست بألم طاغ منعنى من الانسحاب ، هل فقد عزيزاً دون أن يعلم أحد ، هل هو ممن يواسيه العزاء أنا لا أعلم له أقارب يمكن أن يمثل فقد أحدهم كل هذا التغير .

— أنا آسف ياغريب . . لم أعلم شيئا

— لاشىء . . لا شىء . .

— لماذا هذا الرباط الأسود ، نحن جيران يا غريب ، ياليتك تسمح لى حقيقة أن أكون بجوارك

— لا فائدة .. كنت أعلم دائما أنه لا فائدة ولكنى تأكدت الآن تماما

— لماذا كل هذا اليأس يا أخى ، دعنى أصحبك إلى شقتك ، حتى لو طردتنى بعد دقائق

— إفعل ماتشاء ، فقد فقدت القدرة على أى شىء حتى على الرفض .

— من ذا الذى فقدت حتى يغيرك إلى هذا الحال

— فقدت كل شىء .. كل شىء

— لا يفقد الانسان أى شىء مادام نفسه يتردد

— كفى عبثا وتلاعباً بالألفاظ .. شبعت أوهاما

— ياليت يا غريب ياليت .. ياليتك تقول لى أى شىء

— لن تفهم شيئا . .

— حدثنى ياغريب .. لعل الخيط بيننا لم ينقطع تماما

— ماتت صفية أبشع ميتة ..

— من صفية ؟

— لقد التقيتَ بها عندى يوما ، أشرف وأصدق من عرفت ، الوحيدة التى أحبتنى بلا مقابل .

— آه .. تلك الـ .. يرحمها الله

— الـ ... الماذا يا عبد السلام .. أنت وجميع من تعرف لا تساوى شيئاً بجوارها ..

— قضاء الله يا غريب ، ولعلها تصنع لك بموتها ما عجزت عن أن تفعله لك بحياتها .

- ماتت .. وأنا السبب

— لا تتهم نفسك بما لا يكون .. لا يتسبب أحد فى موت أحد .

— يا عبد السلام أنت لا تعرف ماذا فعلت ، تخلصت منها بأنذل مما تتصور ، أرسلتها بيدى إلى حتفها ، يأسى وعجزى كانا السبب فى موتها .

- لعل الله قد رحمها يا أخى ، كانت حساسة ضائعة فى عالم من الكذب والسَّحق ، لعلها استراحت من كل هذا الشقاء والامتهان .

— وأنا ؟ كيف أستريح من شقائى وامتهانى

— لا أستطيع أن أقول لك ارجع إلى المحاولة بعد ما كان ، فلا أخالك تقبل ، إلا أنى متأكد أن ثمة طريق لا يقفل بابه أبداً ..

— طريق ..؟ ألن تكف يا عبد السلام عن تهاويمك ؟ حتى الموت لا يوقظك من سباتك ..

— لن نتناقش ثانية مثل زمان ، وَلكن ثمة طريق يظل مفتوحاً ، وهذا هو السبب الوحيد للاستمرار .

— لو كنت معى ورأيت جسدها بعينيك وهم يهيلون عليه التراب لعرفت ما هو الطريق الأوحد الذى تنادى به ، إنه الطريق إلى هناك

ولن يكمم أفواهنا عن الخوض فيما لا يكون إلا حين يملؤه التراب الرطب الحنون . .

— ما أبشع المسك .. ولكن لفتة صغيرة قد تريك ماذا يعنى الألم ، ... إنه تصميم على الحياة .

— جوف الأرض هو الرحم فحسب . . والحقيقة الوحيدة تجدها فى مقابر الإمام يا عبد السلام .

— الله رحمان ورحيم يا أخى .

— تذكرنى بيقين ذلك الفلاح الفطرى إبراهيم الطيب . . أو تشنج عبد السميع الأشرم .

— ولكنى أعنى فعلاً « الطريق إليه » ، هذا ما عنيته منذ بداية حديثنا .

— هل تعرف أى اسم من أسمائه ، كنت أعتزم تسبيحه حين فكرت فى التصوف يوماً .

— هل فكرت يوماً فى ذلك حقيقة ؟

— كنت أنوى أن أسبحه طول الليل فى مكبّر خاص صائحاً به : « يا جبار يا جبار » حتى أصل إلى الوجد الصوفى الذاهل .. أو إلى سجن مصر .

— لم تتركك سخريتك حتى بعد هذه الصدمة .

— لست أسخر يا عبد السلام ولكنى أحذرك من هذا التخريف الخادع

— المسألة أقرب من كل هذه المخاوف ، أحس أنه أقرب إلينا من كل هذا ، من عرف نفسه عرفه يا أخى

— خدعة جديدة ، ومذهب نور الدين ينتشر بأسرع مما توقعت .

— أى مذهب يا أخى

— أى مذهب تتبعه هو الضلال بعينه ما دام يلهيك عن حقيقة الموت والتراب .

— يا غريب ، يا غريب .. اسمعنى ..

— يا عبد السلام ، إذهب الله يخليك ، وإذا لم تجدنى فى الصباح فأعلم أنى سافرت إلى كندا .

— كندا ؟ هكذا بين يوم وليلة ، إن هذه الأمور تحتاج إلى ترتيبات

— قمت بترتيب كل شىء وأنا أودع صفية .

— ماذا تقول يا غريب ؟

— ... لعلك لا توافق على كندا .. اعتبرنى سأسافر إلى استراليا ، الأرض هناك ما زالت خاماً لم يشوهها الإنسان ، وهى أرحب وأكثر حناناً بأجسادنا .

— غريب ..

— نعم يا عبد السلام أفندى يا مشد

— لن أدعك اليوم

— تضييع وقتك يا أخى بلا مبرر .. ولكن لن أحرمك هذه المتعة قبل سفرى .

— لا سبيل يا غريب إلا البداية من جديد .

— مهاجر فوراً إلى كندا أو استراليا أو روسيا أو بنجلاديش أو الإمام الشافعى . ولكن أبداً ليس عند طبيبك المفتون ..

ـ المحاولة مستمرة فى كل مكان

ـ موت صفية من آثار المحاولة المستمرة

ـ ماذا تقول ياغريب ؟ ماذا تعنى ؟

ـ ألا يحضر مختار معكم حتى الآن ؟ ألا يعالج بأحدث الوسائل ، ألا يمثل أعظم صور الحرية العصرية ؟!

ـ ... مختار ؟ ماله مختار بما نحن فيه الآن ، بما أنت فيه ؟

ـ يسهم فى استمرار المحاولة بطريقته الخاصة .

ـ لا أفهمك ياغريب

ـ يوما ما ، فى مكان ما .. ، قد نلتقى .. وتفهمنى

* * *

ابراهيم الغيب

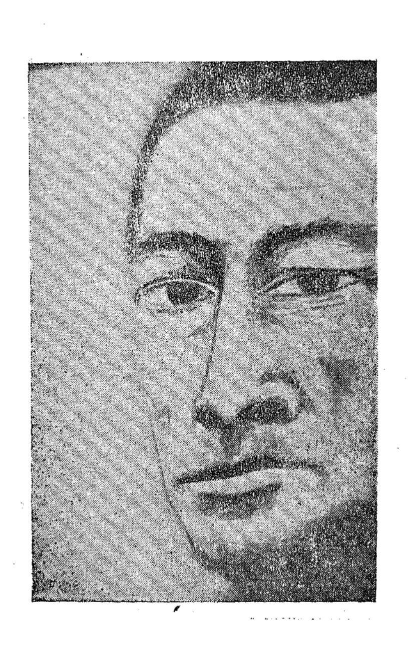
كلما اقتربت من نهاية الرحلة — أو خيل إلىّ ذلك — كلما أحسست بخطورة الخدعة ، لا بد من اليقظة المستمرة حتى لا يستدرجنى أى بديل مهما بدا براقاً سهلا ، أخذت دوراً أكبر من طاقتى ... أخذته بكامل وعيى وحسب رؤيتى ، وأعتقد أنى قمت وأقوم به بكفاءة حقيقية ، لكن يا ترى هل هذا الدور هو أنا ، ألا يمكن أن يلهينى عن أصل الحكاية ؟ عن حقى فى الحياة ؟ هذا هو الخطر القائم المهدد ، منتبه إليه ملء وعيى... لكنى لست متردداً و لا متراجعا « فالأمام » هو الطريق الأوحد .

وحيد تماما ، بالرغم من أنى أشعر أن نبض الحياة فى داخلى يكفى لأن يدفع بعجلة الناس — كل الناس — إلى نهاية المطاف، المطاف الذى لا أعرف له نهاية ، وأتساءل لماذا لا يدفع عجلتى أنا أولا إلى اتجاه واع .. أحياناً أحس أن عجلتى تلف حول نفسها مثل كورونا السيارة لكنها تدفع بهذه اللفات عجلاتهم إلى الأمام ، هل تكون هذه الحركة ذاتها انتقال بى إلى الأمام ضمنا ؟ وهمٌ آخر أخشى الوقوع فيه .

لا أحد يدرى ما بى ، وأكاد لا أريد أن يدرى بى أحد ، لا أريدهم أن يتوقفوا عندى لينظروا إلى وقفتى وخوفى ، يكاد كل واحد منهم أن يستمد منى شيئاً ما ، وفى هذا ما يبرر استمرارى حتى ولو كان الاستمرار هو أن ألف حول نفسى بقية حياتى ، يحبنى الجميع .. ويثقون فى .. هكذا يخيل لى .. ولكنى أزداد وحدة حين يخطر على بالى حقيقة موقفى وأن أحداً منهم لا يرانى كما أنا ، ومع ذلك فأنا أحبهم بلا حدود ، وهل أملك إلا هذا ، حياتى فى حبهم

وحب من هم مثلهم ومن ليسوا مثلهم ، فقط أريد أن أحب نفسى بنفس القدر ونفس الوضوح ، أكرمونى بهذا الحب وبهذه الثقة . . . ولكنهم قيدونى بها قيداً عنيفاً لا أعلم كيف السبيل إلى التخلص منه ، وحتى ، ترى هل يستمر هكذا إلى نهاية المطاف ؟ جاهز لحلكم من أول فردوس الطبلاوى حتى عبد السميع الأشرم . . ، أقوم بدور لست متأكداً آه أنا ، حتى غريب نفسه لم يتنازل عن ذاته لحظات إلا بين ذراعى ، يعطينى هذا كله معنى لوجودى ، أحس أن بقائى على هذه الأرض — رغم كل شىء — هو مفيد فى ذاته . . ومن حقى — لذلك — أن أستمر ، وأرجع أتساءل : هل هو حقى أم واجبى ، أحس أن الدرق ليس هيناً ، لا أشعر بحقى فى الحياة إلا من خلال تواجدى معهم فأين حقى الذى اكتسبته بالولادة ، هل نسيت أمى أن تعطينيه ، هل ضاع بين اللفائف والضجة وبقايا الأشياء ، هل أخذه الناس خطأ قبل أن أتعرف عليه أنا صاحبه الأول .

وحيد حتى القاع ، وحيد فوق القمة ، وحيد معهم وبهم ولهم ، وسأظل وحيداً حتى يرانى أحد دون أن يستدرجنى إلى لعبة البيع والشراء ، دون أن يمصمص شفتيه ، دون أن يستدرجنى إلى الوراء طلباً للراحة ، دون أن يرفعنى على كتفه أو يقفز فوق رأسى ويدلى قدميه حول رقبتى ، وحيد حتى معك أنت شخصياً يا شيخى الطيب ، لن أنكر فضلك ما حييت حتى ولو لم أتقدم خطوة عما أنا فيه ، حتى ولو ظل جرحى ينزف الدم ويفرز القيح إلى ما بعد الموت ، جرحى خطير .. ، هو الذى جاء بى إليك وما زال كما هو ، ومع ذلك كان موقفك هو مفتاح هذه المرحلة التى أخوضها بكل ألمها وقسوتها وعبثها وروعتها ، لم تشوه زوجتى الداعرة . . ولم تلفظها ، يكفينى هذا حتى الموت ، جئتك وفى قلبى حقد العالمين ولم يكن قد تبقى إلا الترتيبات النهائية حتى أقبض



ابراهيم الطيّب

روحها حقيقة لا مجازاً ، ماذا بعـد الخيانة ؟ مطعون فى رجولتى وو جودى وقيمتى وشرفى ، والـكذب والخديعة تخرجان لى لسانهما فى مرآة الحمام . . وزجاج الأتوبيس وشمع الأرضية ، صورتهـا تبصق فى وجهى والأطفال فى الشارع يشيرون إلىّ هاتفين « أبو خليل ، أبو لبن .. » « كرباج ورا يا اسطى » كنت أقرأ ذلك فى نظراتهم ، لم يصل بى الحال إلى سماع ما لا يقال، ولـكن الخيانة كانت أكبر من احتمالى ، ويا ليتها خيانة فيها قصة حب أو أى قصة مما نسـمع ولـكنها مجرد خيانة ليست مع واحد بذاته ، كيف لم أشك فيها قبل ذلك ، وكيف عرفت كل ما حدث فجأة وكأنى كنت مسحوراً أو منوماً قبل ذلك ، جئتك لتصدمنى بحقيقة أن الحـكاية ـ مثل كل حكاية ـ بداخلى أنا أصلا . . تعلمت معنى « المومس » الحقيقية ، واكتشفت أن أى علاقة غير صادقة هى علاقة مومسية ، جاءنى اليقين من خلالك حتى كدت أشكر زوجتى المسكينة أنها صدتنى بهـذا الوضوح بدلا من أن تمارس معى نفس العلاقة بورقة مشروعة فأظل مسحوراً منوماً حتى الموت ، رحمتنى معرفة هذه الحقيقة من الانسياق وراء مبررات القتل والانتقام التى كان يمكن أن تستغرق بقية حيـاتى ولـكنها فتحت علىّ أبواباً أصابتنى بالدوار ، ورؤية لا يحتملها إلا نبى ، وأنا وحيد مسكين ، أمى نسيت أن تسلمنى حقى فى الحياة ، زوجتى أعلنت مومسية حياتنا جميعاً وأنت أوقفتنى على الأرض عاريا معزولا ، نزعت منى سلاح الانتقام والبكاء على الظلم والاضطهاد ، وها أنذا أمضى عاريا وجلدى ينزف وجرحى يفرز الصديد والناس من حولى تغرينى بالدوران حول نفسى لأدفع عجلتهم هم ، هل يكفينى هذا حتى الموت ؟ كيف أكسر وحدتى يا شيخى الطيب وقد تخليت عنى بعـد أن سحبت من تحتى أرض الحقد وَالانتقام ؟ عيناك تحـذرنى من الاعتماد عليك ، تخشى أن أتخذك

بديلا عن نفسى ؟ ولكنك أيضاً أوقعتنى فيما ترى فاتخذتهم هم بديلا عن وجودى ، ولكنك ياشيخى تحيرنى ماذا فعلت بوحدتك أنت ، لعلك وحيد وحدتى وأكثر ، ولكن ياترى هل لك جرح مثل جرحى ؟ ، ماالذى رماك على الناس هكذا إلاقلة الناس ، أكاد أقسم أنى أعرفك ولا أملك لك شيئا إلا أنى أعرف ، هذه العلاقة الصامتة تعطى لحياتى معنى آخر ولعلها تعنى لك شيئا حقيقيا ، يتهمونى أحيانا أنى مساعدك مثل إصلاح فاضل ، وأتمنى أحيانا أن أكون مساعدك فعلا لو أن لى مثل مهنتك لاختبأت فيها بقية حياتى غير ملتفت إلى وحدتى وألمى أصلا ، ولا مانع من الارتزاق على الماشى ، أحيانا أشك فيك ولا أراك إلا حرفيا ماهرا ، وأعود وأراجع نفسى وأتساءل وماذا فى ذلك ؟ أليست حرفتك هى التى رأت بؤس زوجتى العاهر ومأساتها وهى تتمرغ فى طين جوعها وعماها فرحمتنى من أوهام الضحية وخدعة بطولة الانتقام ؟ أليست حرفتك هى التى ضمدت جرحى فى نفس الوقت رغم أنه مايزال ينزف إلا أنى واقف أمسح مايتراكم عليه بشجاعة عاشق الحياة المزمن ، أحسدك على حرفتك وأشفق عليك منها ، ربما تضطرك إلى نسيان نفسك بقية حياتك أما أنا فمضطر لكسر وحدتى مهما استغرقت فى مساعدتهم ، فرصتى أفضل منك ، سأعطى نفسى لهم فترة موقوته تؤكد لى قدرتى ، ثم أنطلق منها إلى . . إلى . . إلى أين ؟ إلى نفسى ! ولكن كيف ؟ أحيانا أتصورك مريضا مثلنا سواء بسواء ، لافرق بيننا إلا أننا ندفع وأنك تقبض ، ولكنى أصارع وحدتى ليل نهار فماذا تفعل أنت ؟ أنا أتقبل حبهم بصبر وحذر ، ولكنه يثرينى حاليا حتى أجد شيئا آخر ، أعطيهم مايريدون ولكنى لاأخدع نفسى .

— إبراهيم ، لاتبدو واثقا هكذا والا حسبتك مثل ملكة

— هذا طريق أعرفه تماماً يا فردوس .. آسف . . . ، ليس تماما ، ولكنى أعرف ضرورته وأنه ليس لى إلا السير فيه ، ولكنك لاتريدين أى تردد أو شك ، انى لا أكذب عليك يافردوس ولا على غيرك حين أقول أنى أعرفه تماما ، وإلا تخبرينى أنت وزوجك عن طريق آخر .

— أنا أحبك يا ابراهيم

— وأنا أيضاً

— يانهار اسود

— ليس أسود من قلوب الحقد

أحبك يافردوس وأحب نجوى وبسمة ومختار وشيخنا الطيب وكل الناس رغم وحدتى المرة .. أو بسببها يافردوس ، وهل لى شىء غير أن أحبكم، إذا كنت تعنين حبا آخر فأنت تعيشين خرافة الأولين والآخرين ، ما الذى جاء بك هنا إلا فشل الحب الآخر ، الكذب هو الحرام الأوحد يافردوس فلا تهربى من خوفك ، اما الحب فيا فرحة من يعرف الطريق إليه ، الحب الذى يقتل الشر يا فردوس ، الحب مسؤلية بلا حدود ، الحب أن أراك بحجمك وترينى كما أنا ، زوجك عبد السلام لا يعرف لك معالم ولذلك فهو يكاد يغرق فى بحرك ، لوأنك يافردوس أكلت شيئا حقيقيا ، لو انك نجحت مع عبد السلام بشرط الصدق رغم العرى والصقيع ، لو أنك فهمت معنى ماتقولين ، إذاً لانكسرت قوقعة وحدتى وأمنت للعالم من خلالك ، وحدتى قاسية والفرصة أمامك أكبر وأعمق ، عبد السلام معك لم ينسحب بغباء الجبناء ، عفارم عليك ياعبد السلام . ولكنى أتمنى لو صبرت عليها حتى تتعلم المشى فلا تضطر إلى التمرغ فى وحل الخطيئة وهى لم تفتح عينها بدرجة كافية ، مضيت أكمل معها .

— بل أبيض من اللبن الحليب

— ألا تخاف مما تقوله

— بل أخاف مما لا أقوله

— وعبد السلام

— هولى مثلك تماما يا فردوس

* * *

— ماذا تفعل ياعبد السلام وحدك ؟

— الألفاظ لاتسعفنى يا ابراهيم فهل تعرف مابى ؟

— أنا أعرف مابى ، ولابد أنه هو هو ياعبد السلام

— ...

— ...

— الأطفال جوعى لمسة عطف

— ....

— والنساء لايحتملن الحرية أو الانتظار

وكيف أحتمل أنا الحرية والانتظار؟! جرحى ينبض ويصرخ علىّ فكيف أعيش إلا بكم ، حسابات شيخى الطيب تلزمنى بالمسئولية عن كل ماجرى وما يجرى ، وقد آمنت بها حتى حسبتها حساباتى وزالت كل نوازع الانتقام إلا أن آلامى تثور على فجأة فأنسى كل شىء وأرتمى فى أحضانكم لأنسى ، جرحى غائر ياعبد السلام ، ومتقيح ورائحته نافذة ، ولكنه هو هو الذى أتى بى هنا إليك ياعبد السلام وإلى فردوس وإلى كل الناس ، خطيئتها ليست فوق الغفران ولكنى أصبحت الآن أجبن وأعقل من أن أنتقم ولكنى ايضاً أعجز من أن أغفر ، يقول شيخنا إنى مسئول إذ لم أستطع أن أتفاهم معها فراحت تبحث عن من تتفاهم معه ، وأنت تعلم يا عبد السلام

ماذا تعنى المحاولة ، لم أستطع أن أستسلم لها فانقطعت خطوط الاتصال بيننا ، ذهبت تبحث عمن يفهمها وجئت إليكم أبحث عمن يفهمنى ، ولكن يا ترى أين أهتدى إلى الطريق الصحيح ، دفعت هى جسدها ثمناً لكل من لوح لها باحتمال تبادل لغة ترضيها وتخدعها ، ودفعت أنا «نفسى» كلها لأجد سبيلا إلى التفاهم مع أى واحد منكم ، لعبة الضياع ليس فيها كبير مهما اختلفت المعايير ، من منا يا ترى وجد بغيته دون خداع ، أما هى ، فهى تتدهور علانيـة .. تزداد عمى وتزداد امتهانا لنفسها وتزداد بلادة .. لم تعد تفهم أبسط العبارات ولا أمل — فى مجال بصرى — فى إيقاظ إحساسها إلا بعملية جراحية تغير جلدها وأحشائها ، ويا ترى ! ، أما أنا فلم أجد من يفهمنى لى .. حتى بينكم ، مع أنى أتصور أنى أفهمكم جيداً ، وأعيش على أمل أن يرانى أحدكم «كما أنا» فعلا ، حتى الشيخ الحكيم نفسه لا أجرؤ على خوض بحره وحدى ... وأخشى أن ينغلق عالمى عليه فلا يشعر بى إلا هو ، أنتظر اصطحاب أحدكم إليه ، أخاف أن أضع بيضى كله فى سلته وحده ، فمن يدرى فقد يكسرها فى لفتة هنا أو سهوة هناك — حتى بلا قصد — أنتم أهم عندى منه ، وأنا أهم من الجميع ، إياك يا عبد السلام أن تتوقف عن المحاولة مع فردوس ، ليس أمامك إلا المومسية السرية المشروعة كبديل عن محاولتك الصعبة معها ، ليست الشطارة فى أن تكتشف خدعة الحياة .. ولكن أن تتحمل مسئولية اكتشافك ، لقد تبينت دون قصد كيف كانت علاقتى مع عزيزة كاذبة مرهقة ثقيلة طوال سنوات طويلة ، كان اكتشافا متسللا هادئا اتخذ شكل الضجر الثقيل المر ، حتى انتهيت إلى أن شيئا ما فى حياتنا لا بد وأن يتغير ، وما إن تراجعت بضعة خطوات ،

أنظم فيها صفوفى وأعود إليها نبدأ من جديد حتى فسدت اللعبة كلها ، ما زلت أذكر يوم أعلنّا بداية النهاية .

ـــ أنت أنانى وتريد أن تشكلنى على مزاجك

ـــ أريد أن نتفاهم بأى شكل

ـــ ... كاذب .. ليس بأى شكل ولكن بالشكل الذى تريده أنت

ـــ هل عندك شكل آخر ؟

ـــ ليس عندى شىء ولم أعد أطيق الخوف منك أو طاعتك ، أنت عنيف ومدعٍ ولم أعد أحتمل مناوراتك .

ـــ ماذا جرى يا عزيزة ؟ ، أنا أريد أن أصنع شيئا يحافظ على حياتنا .

ـــ أنت تتفلسف فقط ثم تنسانى تماما

ـــ كيف أنساك يا عزيزة ؟

ـــ إما صامت كئيب ، وإما تفكر فى تغيير شئون الكون .. وكأنى لست من شئون الكون ..

ـــ أنت تريدين أن تكونى كونى الأوحد

ـــ حقى لم آخذه وآن أن أنتبه لنفسى

ـــ يا ليت .. ولكنك تعدين نفسك أنثى تنتظر دائماً ، وأنا لا أراك هكذا .

ـــ ترانى ماذا إذاً ؟ خادمة متخفية أم أسطوانة تردد ما يملؤها به صوت سيدها

ـــ سأتركك حتى تعرفين ما تريدين

— ليس بيننا لغة حقيقية منذ تزوجنا ، لاتشعر بى ولا تدرك أى شىء مما يدور فى فلك حياتى .

— تريدينى أن أهتم بفساتينك وباروكة شعرك ولا أهتم بحقيقة ما بداخلهم .

— هذه هى الحجة التى تغلف بها إهمالك لى ، نحن مختلفان وأنا ـ بصراحة ـ لا أفهم أفكارك وحين أفهمها أحتقرها .

— لماذا ؟

— لا تعنينى فى شىء ، مالى أنا وما للناس ، والمستقبل ، و . . . ما لا أدرى ماذا ، كلماتك تضجرنى . . « الوعى » . . « العمق » . . ، هل يمكن أن يرى العمق من لا يرى سطحى وحاجاتى .

— تعرضين علىّ أن ينتهى عالمى عند رغباتك

— ينتهى ؟ يبدأ ؟ أنا لا أستطيع التفاهم معك .

وهكذا انتقل الضجر المر والابتعاد البطىء إلى إعلان الشرخ الذى ظهر بيننا : عميقاً متزايداً معلناً عن الأخدود العميق القابع فى نفوسنا من داخل الداخل . . ، ابتعدت أكثر ونسيت كل شىء إلا استحالة الاستمرار هكذا ، وكنت أتصور أنى أنتظر أن ترى صدقى وصبرى — فتحاول أن ترى الجانب الآخر لكنها لم تستطيع الانتظار وَذهبت تبحث عمن يفهمها ويتبادل معها لغة يبدو أنى لا أجيدها ، وسرعان ما وجدتهم بالعشرات فى كل مكان . . ولم أنتبه إلى كل ذلك إلا مصادفة ، وهأنذا أدفع الثمن . وما أغلاه يا عبد السلام ، فلا تفعل مثلى يا أخى ، الله يسترك ويسعدك لا تتركها . . ولا تستسلم لها ، كيف ؟ لست أدرى ، ولكن لا تفعل

مثلى والسلام، ولا ترضى برشوتها و فى نفس الوقت لا تعاف بضاعتها قبل الأوان ، متى ؟ لست أدرى ، ولكن لا تفعل مثلى يا عبد السلام . . يا ليتنى أساعدك فيما عجزت عنه أنا ، ربما كان ينقصنا ثالث أمين ، فلأكن لكما هذا الثالث الأمين فأكفر عن خطئى وأمسح عن جرحى بنجاحكما ونجاحكم جميعاً . . يا ليت يا عبد السلام ويا إصلاح ويا شيخى ويا غريب . . ويا كل الناس . . يا ليت

— ٢ —

لماذا كل هذا يا غريب بالله عليك ؟ مصيبتك كبيرة وأنا أعرف ذلك ، ولكن مصيبتى أكبر ، فبسمتى الواثقة وجنونى المحب ليسا دليلا على أنى أعب من نهر التفاؤل دون حساب ، ولكنهما إعلانين عن إصرارى على ألا أتركك لهذه الوحدة القاسية ، أنا وحيد مثلك ، وجرحى لم يلتئم بعد . . إلا أن آلامه ورائحته أقل بكم ومعكم ووسطكم ومن خلال الإحساس بنا معا ، أنا أحبك يا غبى.. صدق أولا تصدق .. بل صدق حتما ، حبى لك يعطى حياتى معنى وأنا فى قاع الهجر والنبذ ، وإياك أن تحسب أنى أعطيتك شيئاً من فضل، أنت الذى تعطينى لو قبلت صدقى ومحاولتى ياغريب يا صنو نفسى آه لو تسمعنى يا أخى ، ماذا فعلت بوحدتك حتى تاريخه يا غبى؟ أنا وحيد مصارع ، أما أنت فوحيد تدعى الحكمة بالاستسلام قبل أن تحاول أصلا ، الجبن ليس وراءه إلا الصقيع والخيال المر، حتى لو حاولنا يا أخى مدى الحياة؟ تمضغ الزجاج المكسور وتشرب ماء النار ، وتدخل الحروف التى تقرؤها فى عينيك كأسنة الدبابيس . . ثم ماذا يا جزءاً من كيانى ؟ . . يا أبى ويا ولدى ويا أخى . . ثم ماذا ؟ لا أنت قادر على الموت والتبلد ، ولا أنت

تريد أن تحاول معى ، يدى ممدودة لك وقلبى مفتوح ووحدتى أكبر من وحدتك لكن خوفى أقل ، لتمش معى هذا الخوف وهيا نحاول بصدق ، ليست دموعاً ما ترى فى عينى .. إنما هى الماء المقدس الذى يطهرنا من أوزار الوحدة ، أراها وراء مقلتيك بعيداً بعيدا ، فلا تحبسها ، الضعف ليس عيباً ولكن العار كل العار فى هذه الحياة .. هو الشقاء ، الشقاء جريمة ، غول نذل غبى ، وهو هو سبة حياتنا مهما أقمنا حوله من أضرحة وقدمنا إليه من قرابين ، هو جريمة ، الجانى فيها هو المجنى عليه والشهود الذين يحضرون ساحة الإعدام يدرجون فى كشف العدم حتى يأتى دورهم ، وهم يسيرون فى طوابير الوحدة الجبانة .. ما كان أروعك يا غريب حين تركت نفسك بيننا لحظات فأيقظت فينا أملا حقيقياً أن نتواجد معاً دون أن يلتهم بعضنا بعضا ، حسدتك يومها على شجاعتك وتمنيت أن يأتى علىّ الدور لأفعلها فى حضنك . . فى ظل أمانك ، ولكنك تراجعت بعد ثوان يا غريب ، لملمت نفسك وتراجعت إلى أبعد مما كنت ، لماذا يا غريب ؟ وماذا أخافك يا أخى ؟ ماذا حجر على وجودك ؟ من أرعبك من حقك فى الحياة ؟ ومن يومها يا أخى يا حبيبى ، يا صنو نفسى لم تعد ثانية أبداً ، تركتنى وحيداً كما جئت وألعن ، وحدتى غير وحدتك قلت لك ، ما زلت مع غيرك أحاول فماذا تفعل أنت يا غريب ، اسمع جَرْسَ كسر الزجاج يملؤ فمك وأنت تمضغ الألم وحدك ، وأرى قطرات الدماء تقطر من قلبى ووجدانك معا ، لو كنت أعلم ما يبرر كل هذا لعذرتك فى أن تنجو بجلدك من التهام أو مساومة ، لو كنت قد استمررت مع زوجتى وحدنا مع عجزى عن قتلها لاستمرت حياتى مثلك وألعن ، ولكننى تركت المحاولة أصلا وجعلت كل الناس مثل بعضهم البعض كما يصورهم لك خوفك الغبى ، حتى فى عز سخريتك اللاذعة كنت

أرى الدم يتساقط من شدقيك ، وحول قلبك ، وتحت جلدك ، أنت عارٍ مهما حاولت أن تخفى وجودك ، فهو ينضح بالمشاعر وطلب النجدة بالرغم منك ، ويحى منك ، لست غبياً حتى أضيع وقتى معك ، لا سبيل إليك الآن ، ولكنى أشك فى قدرتك على النسيان ، ولهذا فأنا فى انتظارك رغم أنفك فمتى وأين ألقاك ؟ ! . . سأعيش ما حييت على أمل أن نلتقى يوماً فيخفف بعضنا من وحدة بعضنا الآخر ، ولتبتعد كما تشاء ، ولتحذر كما تشاء ، ولتحسب كما تشاء ، ولكنك لو لم تستسلم إلى الموت وتختفى تحت التراب فلسوف نلتقى لا محالة . .

— غريب يا إبراهيم

— ماله يا عبد السلام ؟ .. لم نره من زمان

— هو جارى كما تعلم وهو هذه الأيام فى حال . .

— ماله يا عبد السلام

— شىء ما قد حدث له بعد فقد صديقة عزيزة ، شىء يبدو خطيرا ، لا أفهمه جيداً ، ولكنه يتكلم عن الهجرة إلى استراليا ، وحضن التراب ، وأشياء غريبة أخرى ، وقد أصابه الهزال بدرجة مخيفة . .

— لا تقل هذا يا عبد السلام فإنى أنتظره

— وأكاد أحس أنه ينتظرك ، ولكن لا سبيل إليه فهو يكاد يقتل من يقترب منه .

— هل كتب علينا يا عبد السلام أن نتفرج على بعضنا البعض بقية حياتنا .

— الحواجز من جرانيت الخوف ولا سبيل إلا لمن يفتح بابه

— يزيد هذا من صلابة موقفى المتحدى بطريقة لا متناهية

— إياك أن تفقد حساباتك . . أو تتهور

— لو كان معى الآن

— لا يخدعك أملك ، فالحواجز قائمة حتى بينك وبين من معك

— وهذه مصيبة أكبر

— لو كان هناك شيء يعمل قهراً لمن فى متناولك لعملته لزوجتك

— ولكنها وجدت مخدراً يخفى وحدتها ، أما غريب فيعيش بلا مخدر

— . . إلا أنك تعلم أن وحدتها أكبر وأنها تزداد بعداً كلما عقدت صفقة . . فاقعة الألوان

— أعلم . . للأسف

— لا سبيل للأسف يا إبراهيم

— وما السبيل إذاً ؟

— السبيل فى تحقيق الممكن

— ولكن المستحيل هو الممكن الوحيد الذى يرضينى

— أعلم ذلك . . فليكن السعى إليه هو تحقيقه

— . . . على شرط أن أصل يوماً ما

— يوما ما

— ٣ —

ما أقساك يا مختار وأروعك، رأيتنى كما أنا دون الآخرين رغم أنك أقل مَن أخذ منى ، إنى لا أكتمك الحقيقة إذأقول لك إنى أخذت منك أكثر مما اخذت منهم جميعاً، رؤيتك زادى وأملى ، رأيتنى كما انا ولكنك توقفت بعد إعلان بيانك القاسى الصادق ، حتى أخذت أتساءل هل كنت ترانى أم ترى خوفك منى ، حسبتها بداية علاقة أفتقر إليها من قديم . . . لا علاقة إلا برؤية صادقة مسئولة ، رؤيتك صادقة بلا شك ولكنها ليست مسئولة ، ألم تسمعنى يا مختار ، وأنا أستنقذ بك بملء وحدتى وألمى .

— أنا الوحيد الذى أفهمك ، أنت تعلم ذلك يا إبراهيم

— يجوز ، وإنى أنتظر هذه اللحظة منذ سنين

لكنها لم تأت يا مختار ، لوّحت بها ثم ألقيتنى معها بعيداً ونعتنى بأبشع الصفات .. وكانت هى نقطة بدايتى ولكنك تركتنى وحيداً ملطخاً بصدقك هذه رؤية لك ، ياليتك علمت كم أنا محتاج لها ولكنك تقولها لتحمى بها نفسك من الجانب الآخر لوجودى ، أنا جبان كما قلت ، تماما ، ولكن ليس «فقط»، خشيت أن تقترب بعد بيان الشتائم الخائف حتى لا ترى الجانب الآخر فتضطر للحياة ، تساؤلك عن سبب وجودك هنا يصلنى واضحاً صارخاً وأنا أقول لك فى السر إنك هنا لأنك ملطخ أيضاً ، وجودك يعنى أنك تحاول كسر وحدتك بالرغم من كل دعواك ، كل منا هنا ليكسر وحدته وإن اختلفت الطريقة ، أنا بالخوف ومدِّ يد المساعدة فى غفلة من شيخنا المتأمل ، وأنت بالإشعاعات الجنسية تحت شعار الحرية ، لم أنجح فى الوصول إلى ذاتى أو كسر حواجزى ولم أخدع نفسى ، وأنت . . ماذا فعلت ؟ قلبى يحدثنى أنك أيأس الناس وأشقاهم ، رغم بريق حديثك وسحر استغنائك ، غريب

رأيته بضمة ثوان وعقدت معه معاهدة بلا توقيت ، أما أنت فمختبىء دائما وراء ضباب أحلامك ، قشرة غريب من فولاذ ، ولكنها تغريني بكسرها لأن لها ملمس صلب ، أما قشرتك فرخوة تنسجها من جو حالم يغلفك بلاأمل فى اختراقه من فرط طراوته واهتزازه ، تترجم كل مايدور حولك إلى رموز خاصة تعينك على ندف الصوف من حولك حتى لايراك أحد إلا فى غمامة من الإدعاء ، تنسى أنك أرق من ذوقك الكاذب، وأيأس من صوتك الحالم ، وأكثر وحدة حتى من غريب ومنى ، حتى غريب له صاحب ، إنه يصاحب الكلمات ولو فقأت عينيه «دبابيس» الحروف ، ولكنك لاتدرك إلا ما فى عقلك ، وعقلك ليس به شيء إلا صوتك الرخو وما نفستو حقوق الإنسان . . عن الحرية والمساواة ، وأنت لاتكاد تسمع حتى صوتك وأنت تتحدث عنها، ياليت ماتقوله وماتريده ممكنا ياأخى ،لو كان كذلك لكنت أول الحاجزين فى جنتك ، هل هناك أروع من الحرية بلا شروط ، والأخذ والعطاء بلا بيع أو شراء والاختيار للفرد بلا خداع أو إملاء . . ولكن كيف يا مختار ؟ جنتك تؤجل رفع الستار باستمرار إلى العرض القادم ، وما يجرى وراء الكواليس لايبشر بخير ، كيف تلوح للاطفال بحرية لاتستطيع أنت تحقيقها ؟ كيف تحمّل الوضع مسئولية الانتحار ؟ كيف تغرى الجوعى بأكل السم . . ثم تتركهم يتلوون ذات اليمين وذات اليسار ، يدفعون ثمن جوعهم الحر ؟ ، زوجتى فى أحضانهم وتقرؤك السلام ، ما أسهل الحلم يا مختار ، ما أصعب تحقيقه ، قبلت رؤيتك لى وسمدت بها فهذا أنا ، ولكنك تركتنى أتمرغ فى جبنى وحدى ، ألعق الدم والصديد من جرحى الغائر ، ما أصدقك حين قلت لى.

— كبتك وخوفك يحبس الأطفال فى مهودها حتى تكاد تموت من الشلل والرعب .

وأنا لا أكتمك شوقى للجـرى عاريا والبزازة فى فمى ، فهل تضمن لى ألا يطلقون على النار ؟ لن تدفعنى وحدتى للاستسلام لأحلامك ولن أكون حتى مثل غريب ، ترى ماذا فعلت أنت بوحدتك ؟ أراها وراء مجيئك إلى هنا ، ولـكن ماذا بعد مجيئك ؟ هل جئت تحكم الرباط على عينيك ؟ ياترى هل يكسرها استجابتهن لك ؟ ياليتك تواجه نفسك بشجاعة الفرسان . . فإذا كنت قدنجحت فأنا أول اتباعك ، تقول إنك لا تحتاج أتباعاً وانك است صاحب دعوة ، أليس هذا فى حدذاته دعوة ياأخى ، ياشريك وحدتى على القطب المتجمد الآخر،أمسك بخطا طيفى وألقى بها حيثما اتفق والجليد يخوننى فى كل مرة ، أتصبب عرقا وأتلفت فى كل اتجاه لعل خطا فى يشبك فى شجرة أو صخرة مدببة ، لابدأن أسعى بعيدا عن الصقيع ، يصاب بعض الأحياء أثناء محاولاتى الملهوفة للابتعاد عن قطبى المتجمد ، ولـكنى لاأملك إلاهذا، لا أملك فراء أحلامك ، ولا قوقعة غريب ، ولا حتى شجـرة كمال التى اعتلاها يتفرج علينا من فوقها ، أتابع خطواتك وخطوات غريب وكمال بصدق وشغف وأنتظر بديلا خيرا من سعيى المتلهف الأعمى ، وكلما فشلت رمية خطاف نظرت إليـكم ولـكنى أصاب بخيبة أمل من جمودكم الساكن رغم مايعلو وجوههم من بسمة ساخرة او ثقة عنيدة ، إخص عليـكم ياأوغاد لماذا لا تنجحون وتريحونى، اخص عليك يامختار ياأخى . . لماذا لاتغرب عن وجهى .

ــ ليس لى دعوة بأحد . . . لابد أن أعيش كما أريد وأعتقد، قبل ان افكر فى الناس ، فإذا نجحت فسينجحون مثلى .

ــ هكذا ؟ تلقائيا . .

ــ نعم تلقائيا . . التلقائية هى الأصالة ذاتها .

— ياليتك تنجح إذاً ياأخى ياليت ، ياليتك تكسر وحدتك حتى تحنى فىّ الأمل ، وأنا أواصل سلخ جلدى حتى لا يتنجس من اليأس او يتيبس من جفاف القيح والدم والقاذورات ، أفضل أن اظل أدمى حتى تحت التراب من أن ألبس درعاً منسوجاً من فشلك وخوفى .

— ٤ —

متى ترجع إلى مرسمك يا كمال ؟ متى تعود لتبعث الحياة فى ألفاظ ماتت على ألسنتنا من سوء الاستعمال؟ متى ترقصها على أنغام إحساسك ؟ حضورك هنا يا كمال كان اكبر مصيبة قضت على ماتبقى لى من أمل فى حل مؤجل، لماذا فشلت يا كمال ، إذا لم تستطع أن تصنع المستقبل ، فلنرسمه لمن يصنعه بعدنا ، ماذا فى هذا بالله عليك حتى تتوقف ، ثم تأتى مثلك مثل العجزة أمثالنا ، أهم فى كل مرة أن أطردك من هنا وأنهاك عن المجىء لو كان لى هذا الحق ، أدعو أن أذهب فلا أجدك ، أقلب الصحف لأراك ، أبحث عن شعرك يوميا لأطمئن أنك عدت إلى قلمك سالما ، سمعتك تتحدث مع مختار فى عنف صادق حين رفضت حريته الزائفة ، ولكنك فشلت فى مواصلة الحديث بلغة فنك . . . تحتقر هرب غالى وزوجته حتى نخاعك ، فماذا أنت فاعل يا أخى أفضل منهما ؟ لم تفاتحنى ولم أفاتحك ولكن حواراً يدور بيننا يقول :

— لن أكون مثلك أيها المسكين ، حتى ولو كنت أنت الحياة ذاتها

— لست الحقيقة . . لست شيئاً أدعو أن تكون مثله يا كمال فماذا أنت فاعل .

— وجودك هكذا عارياً عاجزا مدعياً يدعوها يعطلنى

— يعلطلك عن ماذا .. أنا أتمنى أن تذهب إلى مرسمك وأوراقك اليوم قبل غد

— كذاب . . . أنا أملك فى كسر وحدتك لأنى أكثرهم تماسكا وأقلهم رقصا على السلالم .

— لا أنكر أنى أتمنى أن أشاركك وجودك لحظة صدق . . ولكن خسارة . . خسارة أنت يا كمال . . أنت فنان

— كفى ادعاء ، أية خسارة ؟ ولماذا لم تلجأ إلى الفن أنت بدلا منى .

— لا أملك مقوماته .

— كذاب . . الفن ليس له مقومات . . هو رؤية المستقبل بصدق . . ثم دع رموزك تتحرك بلا وصاية .

— ولماذا توقفت أنت ؟

— رأيت أكثر مما أستطيع أن أترجم

— وهكذا أنا . . وأنت تعلم ذلك

— إذاً . . كفى ادعاء ، ودعنا نواصل الفرجة

— إلى متى ؟ !

— حتى أيأس من محاولاتك المستميتة ، فأرجع إلى أحلامى أضعها فى شكل يبقى ؟ لأصحابها فى جوف المستقبل

— تغرينى بالتوقف من أجل هذا الأمل

— كذاب . . لانستطيع التوقف

— جرحى غائر يا كمال . . ورؤيتى شملت الكون طولا وعرضاً فماذا أصنع بها ؟

— لا أنصحك . . ولكنى أنتظر فشلك ولا أتمناه

— تتمنى نجاحى إذاً

— هذه هى المصيبة الأعظم لو حدثت ، لأنى قد أحاول النجاح مثلك .

— ولكن يا كمال فى نفس الوقت أشفق على اللحظة التى ستذهب فيها فأنا أعلم ما يمكن أن تعنى لى ، لا أستطيع أن أغمض عينى أو أتناسى ، قد تواصل فنك ثانية ، ولكن ألم العالم يغلى فى داخلك .. فليكن ، وليخرج الغليان بخاراً يتصاعد إلى سحاب يمطر أمل المستقبل وليحققه أصحابه فينمو زرعهم أنفذ وأعظم . . ولكن لا تطل وقفتك يا مختار .

— ٥ —

يا ناس يا هوه . . تدفعونى إلى معركة متصلة لتحدى سلبياتكم وهى داخلى ترعى ، من يرانى يصفعنى بها ، ومن يعمى عنها يتحدانى بها من داخله هو ، وحدتى بلا حدود ، وحيرتى دوامة بلا قرار ، ومع ذلك فإن إجاباتى حاسمة وسأستمر بلا تردد ـ أتحدى سلبياتكم وسلبياتى حتى الموت ، أنا لا أملك الاستسلام ولا التراجع مهما تراكمت سلبياتى أو سلبياتكم خوفاً أو استسهالا أو عمّى أو ما تشاءون من تسميات ، كلها لا تعنى شيئاً ذا بال وجودها لا يريدنى إلا تصميما على استيعابها لأتخطاها إذا أردت أن أعيش ، وأنا أريد أن أعيش . . ولكن كيف ؟ كيف يا ربى ؟ ، أين أنت ؟ كل ما حولى يقول إنك هناك ، إنك هنا ، يقول إنك الخير المطلق وبك وحدك سوف أقتل وحدتى ، رأيتك الضمان الأوحد فكيف السبيل إليك ، أعيش بين مصيبتين أكتوى بنارهما معا ، ومع ذلك فنارها لا تدفعنى بدرجة كافية إليك ، يسلمنى كذب الدعارة إلى صقيع الوحدة ، وحين أهم بالهرب من الوحده

أجد الموس البشعة ترقص لى حواجبها ، لم تعد تخفى علىّ صور الدعارة المتخفية ، والوحدة عذابها تعدّى احتمالى ، أحاول أن أعرف نفسى لأعرفك ، ولكنى حين أغوص فى ذاتى أبتعد عنهم فأرعب . . وحين أتلاشى فيهم أبتعد عنك فأضيع ، عبد السميع يصر على زيفه وعلى الحديث باسمك وهو لا يعرفك إلا بالتهديد والوعيد والرشاوى ، وغالى يلغيك ويحطمك خوفاً منك ، وهو لا يحطم إلا خوفه بخوف أكبر ، أنا لا أخافك اصلاً ، وهذا أملى فى الوصول إليك ، يكفينى خوفى من الشياطين والناس ولكنك بعيد بعيد ، أجدك أحياناً فى لحظات سكونى الآمن اليقظ ، أجدك اقرب فعلاً من حبل الوريد ، ولكنك لا تلبث أن تذلنى باختفائك ، أعلم أنى المسئول عن ذلك ، لو كنتُ صادق السعى إليك لما تخليت عنى ، ولكنك تعلم كيف ينهشنى الناس من كل جانب ، وانا أحبهم ولا أستطيع أن أستغنى عنهم لأحارب بك وحدك يارب أنا لست أنت الآن ، والصور التى يشيعونها عنك ابعدتنى أكثر عنك وعن ادعاءاتهم ، هل يعجبك منظر عبد السميع الأشرم وهو يتصور أنه الوحيد الذى يرفع رايتك، إنه مثال يشوه صورتك بادعاءاته ، أنا أعرف أنى واصل إليك لا محالة ، هكذا يقول التاريخ والمستقبل والطول وَالعرض ، ولكنى الآن . . انا الآن أهرب منك إليك ولكن عن طريقهم ، وهأنت ذا تراهم راقدين فى الخط والعياذ بك منهم ، أكاد أعلم أنك تعلم ، فلماذا تتركنا هكذا سمك فى بحر فى هذه اللعبة الخطرة ، تقضى على أغلبنا قبل أن نصل إليك، تترك كل من ينفر منك يرعى تحت إسمك ويحتكر رحمتك متوهما أنه يوزعها على المحاسيب حسب درجة خوفه وعماه ، أكاد اصرخ فى عبد السميع أن « لا » ليس كذلك ، يحاورنى ويداورنى وأنا واثق انه لا يعلم شيئاً عنك إلا باطل الأباطيل أما وجهه الآخر « غالى جوهر » فهو يثير زوبعة غبية يتصور أنه سيخفيك فى ترابها ، يحاول تحطيمك دون أن يعرفك اصلاً .

قال لى غالى فى سخرية

— أريد أن تعطينا مما أعطاك الله

— لم يعطنى الله شيئاً . . ولـكنى عرفت الطريق إليه .

كذبتُ يا رب فأنا لم أعرف بعد الطريق إليك ، لو كنت عرفته لما شعرت بكل هذه الوحدة ولما جريت خالعاً جلدى وسطهم أهبش فى أى منهم فإن المصيبة سوف تـكون أعظم بإذنك ، لماذا تفعل بنا ذلك كله ؟.. لا يمكن أن يكون وصولى إليك استغناء عنهم بل لابد أن يكون عودة إليهم باختيارى الذى هو إرادتك الذى هو إرادتى ، كيف يكون الوصول إليك هو هو طريقى إليهم ، وكيف يكون الوصول إليهم هو هو طريقى إليك ، بل كيف يكون الوصول أصلاً إلى طريقى إليهم وإليك ، أكره الغموب والإستسلام والهرب من الألم بالذهول ، أكاد أجزم أن الطريق إليك هو نفسه الطريق إلىَّ ، وكله مسئولية وصحو شائك ، ولـكن أنَّى لغالى جوهر أن يعرف عنى ذلك كله ، هذا كلام لا يقال وإن قيل فهو لا يُفهم ، أدفع نصف عمرى ، حتى أعرف أين يقف هذا الطبيب منك ، هل عرفك داخله أم أنه يستعملك من الظاهر ، الهرب من مسئولية معرفتك هو المفسر لـكل ما نعيشه من شقاء

قال لى غالى ساخراً خائفاً .

— وكيف ستوصّل عطاء الله إلى الجوعى أفادكم الله ؟

— جوعى لماذاياغالى...؟

— لا يوجد إلا جوع واحد ، الجوع للقمة والغموس

— وهل أنت جائع . . ؟

— . . فى ظل هذا النظام القائم يمكن أن أجوع فى أى لحظة

ـــ وإلى أن تجوع بإذن الله ، ماذا أنت صانع

ـــ أحمى الجوعى من أمثال أفيونك . .

هل أنا الذى أتعاطى الأفيون يا غالى يا جوهر ، هلاّ نظرت فيما تفعله أنت وزوجتك المصون ، أنا لا أكرهكم ولكنى أشفق وانتم تهربون من كل شىء فى اللا شىء .

ما أعظم الحديث عن الشبع والعدل والمساواة ولكن ما أصعب الطريق إلى تحقيق كل ذلك .. أما أن يكون الحديث عن الجوع إلى اللقمة والغموس هو مبرر التوقف والغيبوبة ، فيما ضيعة كل شىء ، ولكنى أشعر أنكما محقان ، بل أحيانا أشعر أنكما أفضل منى ألف مرة ، على الأقل فأنتما تمهدان للخطوة الأولى إليه حتى لو لم تروا إلاّها ، أما أنا فهل من حقى أن أحكم عليكما وأنا أعيش وحدتى فاشلاً أكاد أكون مدعياً ، أخاف من طريقكما فهو قد يزيد العميان عمى وينقل المعركة إلى الحارات والمستنقعات بلا أمل فى قهر موج البحر ، أو ركوب الجبال ، وليس عندى بُراق أركبه إلى هناك ، ولا بد من اللقمة ، والعدل والمســـاواة ، أكاد أتصور أنى أعرف ما تقولان وأومن به وأحترم نبضه أكثر مما تدركان ، ولكن منظركما لا يوحى بأى يقظة محتملة ، ولو بعد نهاية العالم ، عجبت من نفسى وأنا أقول لك فى ثقة بادية . .

ـــ دينك داخلك يا غالى ، فدعه يترعرع بلا إذن من ملكة ولا خوف من كال .

وأنا ؟ لماذا لا أدعه يترعرع أنا ايضاً ، زوجتى وذهبت تعبد جسدها وهو يتمرغ فى الوحل ، تبيع بضاعة لا تملكها لناس لا يعرفون ماذا يشترون ،

أنا وحيد مع خوفى يلفنى فى قمقم لاترونه ، أصارعه دوما بالهجوم على وحدتى ليل نهـار ، هزيمتى فى الخارج ، فلمـاذا لايترعرع أملى من داخلى ، لمـاذا أنصح غالى بثقة لاأعرف من أين تأتى ، هم لايدركون أن كل كلمة أقولها إنما هى موجهة لنفسى فى المقام الأول ، أنا أكلم نفسى أولا ، وأحاول أن أكون صادقا ثم يصلكم بعد ذلك ماتيسر ، لاأحد يصدق حين أعلن خوفى أمامهم فإنى أعلنه بطريقة غير خائفة ، يبدو أن أول الطريق للتخلص منه هو أن تواجهه وتحسم أمرك معه .. فإذا أصر على البقاء فليكن الصراع علانية أمام شهود ، ياخوفى التنين لن استسلم لك أو أعتـذر بك ، أنت نقيصتى وسوف أستغلك فى حساباتى الخاصة بـكامل وعي ، لن تغرينى بالوحدة — فـكل من استسلم لها فهو بائس يائس يائس ، وليس عنـدى حـل وسط ، الموت أهون من الاستسلام ..

— كيف السبيل

— المواجهة المستمرة

— رعب أزلى يعوق الأنبياء أنفسهم

أى والله ياغالى ، رعب أزلى يعوق الأنبياء أنفسهم ولست نبيا ولا مدعيا النبوة ، أنقذهم الوحى من الوحدة ونحن نريد أن نصنع صنيعهم دون وحى ، رعب حقيقى من هول المشقة ومظنة الفشل ، ولـكنى سأصنع من هذا الرعب ذاته نصلا أخترقك به حيثما كنت ، فإن هربت منى ياغالى كما فعل غريب فسألقى كل يوم ألف غالى وألف غريب ، هذاهو عبدالسميـع نقيضك ووجهك الآخر بدأ يلين ويقشعر جلده ، بعد أن كان قد نحس بلا أمل فى أدنى اهتزازه ، أنت تختبىء فى الناس أو بالأحرى فى الحديث عن الناس وهو يختبىء فى الدين — بالحديث عن الدين ، ولـكن من الذى أعطانى كل

هذا اليقين حتى أحكم عليك وعليه وأنا لم أصل بعد إليه ؟ لماذا يارب ؟ لماذا كتب على أن ارفض الاختباء حتى فى أسمائك أو مظاهر التقرب إليك أو معارك القضاء عليك؟ لماذا تركتنى أواجه كل ماأنا فيه بلا أمل فى غفوة أوَ سهوة ؟ أواجه الدعارة فى بيتى ، والوحدة حتى فى عـلاجى ، وصراخ الحقيقة فى فـكرى ، وأشواك الخوف تحت قدمى ، ولا سبيـل أمامى إلا الاستمرار فى هـذا دون أن أرفـع أى شعار أحتمى به واو بعض الوقت ، لست متصوفا ولازاهدا وَلا مجذوبا ،ولـكنى عار من كل شىء،أعبد الحياة وأصرعليها وأسكب دما من كل جانب ولاأحد يلتفت إلىحقيقة صراعى، يادمى المسكوب أصرخ فيهم أنى وحيد وأنى فى نفس الوقت مصر على تلقى الحراب والسهام عارى الصدر حتى النهاية .

بلغ بى الغيظ من عبد السميع الأعمى حتى صحت فيه أن مرضه بأمعائه كفر صريح ، فقـال منزعجا :

ــ هذه مسخرة ؟ المرض كفر ؟

كنت ساعتها على يقينن مما أعنى ، نعم ياعبد السميـع يابن الأشرم ، كفر ، ولـكن ياخيبتى البايغة ، نسيت أنى مريض أتردد على عيادة طبيب، فهل أنا أيضاً كافر ؟ لابد أنى كذلك ، هذه الوحدة وهذا الخوف كفر صريح بلا شك،شاطر أنا فى الهجوم على الناس وكفى ، لاأكف عنإسداء النصح وكأن كل شىء عندى قد تم واستقر ، عذرى أنى فى صراع دائم ، أهاجم بلا هوادة ، وأحيانا بلا دعوة . . . أقول كلاما كبيرا يخـرج منى بيقين هائل لو وصل إلى عمق وجدانى لعشت بقية حياتى كما حلم كل الأنبياء

قلت لعبد السميع بنفس اللهجـة :

ـــ أنت لاتعرف الله

ـــ لاتفكروا فى ذاته ، ولكن فى مخلوقاته

ـــ أنت لا تفكر لافى ذاته ، ولافى مخلوقاته ولا فى أى شىء أصلا

ـــ ...

ـــ ...

ـــ أعمى أنا ؟

ـــ بل على قلوب أقفالها

ـــ يعجبنى منك أنك تحفظ كلام الله وتستشهد به

ـــ كلام الله داخلنا ، إذا ما صدقنا خرج سهاما للحق ومشاعل للحياة

ياصلاة النبى على ، من أين آتى بكل هذا الكلام كالقنبلة الذرية ، وكيف يخرج منى بلا تردد ولا خجل « سهاما للحق ومشاعل للحياة » ثم أرتد فأجدنى وحيدا مسكينا لاحول لى ولا قوة ، لماذا لاأشعل الحياة من حولى فورا وأضرب الباطل بسهام الحق فيصلح الناس ، لكنى مازلت أعرف أين أنا ومن أنا ؟! وأحاول أن أتحسس طريقى بهدوء وحذر ، فأنا على يقين من أنى لو أعلنت ذلك أو بعض ذلك بلا حساب لكان مصيرى هو المستشفى ، أو السجن حسب مزاج الساسة أو خوف الأطباء أيهما أغلب ، ، أحترم قانون العقوبات بنفس الدرجة التى أحترم بها هذه القوة الطاغية داخلى ذات القانون الخاص ، أخاف من الخارج الكاذب القاهر الغبى ، قانون العقوبات وكل القوانين أغبى قيود صنعها الإنسان بمحض إرادته ولكنها هى هى التى تحمينى من أن يقذفوا بى فى مستشفى المجانين بقية حياتى ، ربما هذا هو سر خوفى ومبرراته ، فأنا ارى الواقع فى

نفس اللحظة التى أواجه فيها الحقيقة ، ياويحى وياقسوة الزمان يا كلاب ، ماأسهل أن ترى أيهما وترتاح ، لو أنكم تعرفون قسوة كل هذا ماتركتمونى وحيدا ، من الواقع لايخففه الهرب منه ، أو التحايل عليه ، وهأنذا أمضغه فى أناة ، وأتجرع عصارته حتى الثماله ، ما أسهل الصياح والجنون والدعارة يا كلاب ، ما بين قانون العقوبات وإلحاد غالى جوهر ومادية زوجته العمياء ، وتشيّـخ عبد السميع الأشرم لابس مسوح الدين يغطى بها عينيه وأذنيه أساساً ، سوف أعيش مصارعا إلى النهاية.. لاتراجع ولاتردد ، ولا استسلام ياعبد السميع ، إسمع لما أقول لك يا جدع أنت ، أنت لست مؤمنا يا أخى ، اتق الله ، المؤمن ليس ذليلا ولا جبانا » .

أقولها لنفسى قبلك يا أخى ، سوف أقهرها بعنف الأولين ، وحساب الآخرين ، لا خوف ولا ذل بعد اليوم يا إبراهيم الـكلب .

— ٦ —

كيف يانجوى أعيش بلا ذل وبلا خوف وأنا أعانى كل هذه الوحدة ، أجتر آثار الخيانة ، وأنت تحسبينى الحكيم القوى إلى النهاية ، هل غرك أنى ملجؤكم ، وكأنى طبيب مجانى قبل الجلسة وبعدها ؟ هل غرك صوتى العالى ومنطقى الواثق وحبى للحياة ؟ أنا أحب الحياة يا نجوى لأنى أحمل فى داخلى موتاً يكفيكم جميعاً ، حتى أنت جئت تسألينى وكأنى أحمل مفاتيح خزائن السعد ، وما أنا إلا مريض يصارع الموت والضياع ، أتسلق جبال الوحدة وأقتحم كهوف الخوف دون سلاح إلا تعويذة حب الحياة والناس « تسألينى ما الحرية ؟ » وكأنى أعرفها وأجيبك فى وضـوح ثابت « هى المسئولية » وندخل فى نقاش حول حرية الحيوان وحيوانية الحرية، وتتذكرين

مختار وألاعيبه الخاصة ، ونداءه المتصل مثل ذكر الصرصور الأسود فى ليالى الشتاء ، وأحذرك منه ومن خطره ، وكأنى أحذر نفسى ، ثم أدعك لنفسك فلابد من أن تهتدى وحدك .

– إسمع .. لو أطلقت نفسى سوف أكتسح العالمين وقد يتغير التاريخ ، أنت لاتعرف طاقتى ونهمى .

– أعرفها ، وأخاف منها أحيانا ، ولكنى أعرف أنها مهرب من حريتك الحقيقية .

نعم أخاف منها يا نجوى ومنك ، لقد ذكرتنى أن كل هذا قد يكون « سر صبرى وسر شقائى الداخلى اللذين لا يعرفهما أحد » .

ولكنى أجيبك بأن «شقائى قد يكون حريتى» فهل صدقتنى يا نجوى ؟ ما أغباك لو صدقت ، لقد ضبطتنى متلبسا بالشقاء مثلما ضبطنى مختار ممتلئا بالخوف وضبطنى غريب غارقا فى الوحدة ، ما كان أكذبنى يا نجوى وأنا أقول لك «لا بد من عش فى النهاية، أزواج الحمام تهدل فى كل مكان» كيف جرؤت على قول هذا وعشى قد أختبأت فيه حية رقطاء تلتهم زغاب الحمام ، بل بيضه أولا بأول ، لماذا صدمت لما عرفت أنى متزوج ؟ ، وأن زوجتى فى تلك اللحظة فى حضن عشاقها تبحث عن شكاة ذليلة تختبىء فيها إذ تبرر بها عماها وإصرارها على التوقف ، حاولت يا نجوى أن تخفى صدمه لك بهجوم وقسوة لم أفهمهما .

— « لهذا فأنت صاحب فضيلة ، وتدعى أن الدنيا بخير » .

هل أملك إلا هذا يا نجوى ، ماذا أنتظر لو كانت الدنيا بشر ؟ لماذا أعيش ثانية واحدة ؟ وهل أمضى وقتى أنفخ فى مزمارى للحية الرقطاء ، وهى ترقص على أنغامى ؟ والصغار ينزلقون فى جوفها مع نغمات المزمار ، وهى تنفث سمومها فيمن يقترب منها أو تلتف حوله حتى الموت ، لا بد أن تكون الدنيا بخير حتى أجد لنفسى عذراً يبرر وجودى دون قتل أو انتحار ، وإن لم تكن بخير فلأملؤها أنا خيراً .. أو .. أو لتنته الحكاية بيدى لا بيدها ولا بيدك ، ليس أمامى خيار بين الموت والحياة ، ولن أقبل أى صورة للموت إلا بعد أن تكف أنفاسى عن التردد ، إما أن أواصل سعيى بكل ما يدب فىّ من نبض أو يهمس لى من أمل أو يهزنى من رعشة ، وإما « لا » كاملة ، والآن ، لو قطعوا يدى ورجلى ولسانى وفقأوا عينى وأصموا أذنى لاستمررت أتدحرج هنا وهناك على غير هدى لعلى أصدم بكاذب يفيق من كذبه ، إذ يرى بشاعة منظرى وإصرارى على الحركة حتى بلا غاية ولا وسيلة . أتصور نفسى وأنا على هذا الحال من العجز وأقول إنه حتى لو افترسنى وحش جائع أو التفّت حولى أفعى دنيئة فلسوف أحس بقيمتى وأنا فريسة تصرخ لتعلن عدم استسلامها إلا لقهر خارجى لا تعرف مصدره أصلا ولا طريقة دفعه ، سوف أحيا يا نجوى من أجل ما فى الدنيا من شر .. لأصنع الخير منه وربما اكتشفت أنه ليس شراً أصلا إلا لأننا تركناه يستشرى .. سوف أستمر يا نجوى حتى لو بقيت وحدى مدى حياتى . فلماذا تتركيننى وحدى يا غبية ، يا أغبياء ، أحاول اختراقك واختراق كل من حولى ؟ لنتواصل بأى درجة ممكنة من الصدق ، ولكنك إما أن تهاجميننى أو تعتدين علىّ ، وأنا لم أعد أطيق أيهما منك أنت بالذات ، أفكر فى أن أنسحب إلى وحدتى فى انتظارك أو انتظار أى واحد يريد ، قد أعذر بسمة وهى تطمئن لإصرارى ووضوح رؤيتى والتمادى فى نقاشها

نقاشاً حاداً مثل السيف ، قاطعاً مثل الماس ، ولكن معك يا نجوى يا من تركت الجمل بما حمل سعياً إلى حقيقة ذاتك ... فلاَ ، وألف مرة لا ، أدعوك للرجوع إلى زوجك وابنتك بدلا من التردى فى هاوية زوجتى الغبية ، زوجك وابنتك أولى بك لو لم يكن لديك إلا اللذة أو الركوب والالتهام ، حتى بسمة الرقيقة ترانى فى أوقات صحوها ترانى على حقيقتى وتحيى فىّ الأمل أن يرانى أحدكم قبل النهاية .

— .. ولكن أنت .. أنت هارب بجلدك يا إبراهيم وتخدعنى بألفاظ فخمة .

— لا أنكر مصيبتى ، ولكنى لا أخدعك يا بسمة ، طبعاً يا بسمة أنا أستعمل ألفاظاً فخمة ولكنى لا أجد غيرها إلا الكذب، الألفاظ إما مسئولة نابضة ، او جوفاء باهتة ، وألفاظى تخرج من أحشائى يا بسمة يا حبيبتى ، لست على عقيدة غالى أو ذهول عبد السميع ، وما أنا إلا مصارع دائم بلا حول ولا قوة .

— ووحدتك ؟

— لست وحيداً يا بسمة ما دمت أصارعها فى كل لحظة ، قد لا أنجح أبداً فى التخلص من وحدتى ، ولكن صراعى المستمر معها يبرر استمرارى منتصراً حتى النهاية ، حكمتى يا بسمة ـ قلت لك ـ نسجتها من الوحدة والهجر والدعارة والجنون ، قلبى عليك وقد رأيت كل هذه الرؤية فى أول الطريق ، ما أشجعك وأشقاك ، يا ليتك تمتعت قليلا بلذة العمى ، ولكن يا ترى هل كان للعمى لذة ، قلبى معك يا بسمة حتى لو تراجعت فهذا حقك ولو بضع سنوات ولكن أين أنت يا نجوى يا ابنة شعبان يا راقصة السلم بلا شمعدان .

— ٧ —

مثل القضاء والقدر ألقت إلىّ نجوى بالخبر دون استئذان أو حتى انتظار لرأيى ، وقبل تنفيذ الحكم طلبتُ طلباً واحدا ؛ هو أن يكون قتل الوحدة إعلانا للإيمان ، فعلتها يا نجوى وسط النار ، والجرح لم يندمل بعد ، وأنا على أتم الاستعداد لمقاومة أى اقتراب كاذب ، لن تتكرر مأساة الكذب والدعارة بإذن المأذون أو بسببه ، لن تتكرر قصتى أو قصتها .

— هل يمكن يا نجوى ؟

— قد أمكن

— ماذا تنتظرين منى على وجه التحديد

— . . لا شىء

— لا شىء بتاتا ؟

— . . . ربما التوقف عن الأوهام حتى ندع الفرصة والوقت لالتئام الجرح .

— هكذا فى بساطة

— لم لا . .

— وأوهامك يا نجوى .. لعلها أكبر من أوهامى

— لذلك فعلت فعلتى دون تردد .. وقررت دخول الحياة مرة ثانية .

— ومن يضمن الاستمرار ؟

— رحلة الداخل والخارج ... منهم إليهم

— هل تحبيننى يا نجوى ؟

— خيبك الله . . طبعا لا

— أعلم إجابتك ولكنى أردت أن أسمعها لأطمئن

— ياشيخ . . ؟

— لا أنكر أنى احتاج حبك الذى يبدأ بك وينتهى بك مارا بكل الناس . . وأنا واحد منهم ، وهنا أحس بالاختيار والطمأنينة معاً

— أمامنا عمل لا ينتهى لوصول هذا للناس

— دين الناس علينا . . يبرر خلودنا

— لا بد أن نوفيه لأصحابه

— ذهبت الوحدة إلى غير عودة

— بل أصبحت السبيل الصحيح للحياة .

* * *

أعيش هذه الأيام معها بدونها ، لا أصدق أن هذا ممكن ، أدخل عالمها وقتما أشاء دون شرط أو مقدمات أو مطالب ، واستقبلها وقتما تريد بلا حقد أو عدوان أو اعتماد ، تطردنى فلا أموت ، وأطردها فلا تجرح كرامتها ، أو من أنى سأجدها وقتما أريد ، لأنها تجدنى دائما . . نحترم العلانية والناس بضعفهم وخوفهم . .

الناس يملئون حياتنا بلا واجب ولا اختيناق، لا ننسى أنفسنا من أجلهم ولا ننساهم ابدا . . نعيش بعمق دون خوف من الوحدة أو الجنون ولكن الألم لم يختف لحظة . . لأن الناس جزء لا يتجزء من وجودنا ، عماهم مسئوليتنا وعملنا الهادىء لا يساوى شيئا إن لم يفتح الطريق لأكبر عدد منهم للحصول على اللقمة والعدل ومن ثم للوصول إلى الله . . إلى انفسهم . .

أحبك يانجوى لأنى أحب نفسى لأنى أحب الناس ، حلقة بلا بداية ولا نهاية ، اتجه إلى نفسى فأجد الله ، وأتجه إليك فأجد الناس وأتجه الى الناس فأجد نفسى .

* * *

يارب . . لم أطلت الطريق علينا . .

أهكذا ؟

أوضح الأمور أصعبها ؟ !

والمستحيل ... هو هو أبسط صور الممكن ؟ ! !

* * *

الخاتمة

الوقت : بعد فترة ما من أحداث هذه الرواية

المكان : عيادة د. عبد الحكيم نور الدين

الأشخاص : الطبيب ، ومساعدته إصلاح فاضل

* * *

المنظر :

عدد من المرضى يخرجون الواحد تلو الآخر ، ليسوا من أشخاص هذه الرواية ، وما يكاد يخرج آخر واحد منهم حتى تلقى إصلاح بنفسها على الكرسى ، فى ثورة مكتومة ، تنظر إلى الأرض مليا ، ينظر اليها عبدالحكيم وكأنه ينتظر شيئاً يعرفه ، ترفع إصلاح رأسها وتواجه أستاذها بوجه غاضب:

ـ يعجبك هذا ؟

ـ مازلت يا إصلاح كما أنت رغم مرور السنين

ـ أحس أحيانا أنى قوادة حين أفكر فى مصير الشموس التى تضىء هنا ثم تنطفىء وتهبط مثل النيازك المحترقة بعد حين

ـ ولو . . !

ـ أنت تعلم أنى أتهمك قبلى .

ـ طبعاً أعلم . . ولا أتخلى عن مسئولية ما أفعل . .

ـ أليست حكمتك وعقاقيرك أحيانا هى التى تسمح لهم بذلك، وأنا ؟ ألست أساعدك فى ذلك ؟

— وهل جنونك الذى لا يهدأ هو الذى سيحافظ على شموسهم مضيئة يا إصلاح ، ألم تتعلمى بعد ؟

— حيتان الظلام تلتهم بشائر النور أولا بأول .

— أبدا . . . حتى النيزك الساقط يضىء قبل سقوطه . . وعلينا أن نقذف إلى المجتمع فى غفلته بحصان طروادة مشتعلا مخيفا بين الحين والحين

— تصر أن المحاولة تستحق حتى ولو لم يفعل أحد شيئا .

— الجميع يفعلون بالرغم منك ، وما علينا إلا زيادة الرؤية بالقدر المزعج المسئول

— أليس هذا فنا لا ثورة ؟

— ولم لا . . ليكن خليطا بين هذا وذاك

— ياويحى من ثقتك وهدوئك ، وياخوفى من معادلاتك الصعبة

— أنت تعلمين أن هذا هو ما أضطر أن أواجه به جنونك ، ولكنك أعلم بما بى .

— وتصر على الاستمرار

— ليس لى خيار . . إلا أن أتنازل عن كيانى الإنسانى

— تبالك . . ولليوم الذى رأيتك فيه

— مازلت مختارة ، كل الطرق أمامك

— .. « إلا أن أتنازل عن كيانى الإنسانى » !! أليس كذلك ؟ ، عملتها ، والذى كان قد كان .. ولكن أرجوك خفف من جرعة « الواقع » من فضلك ..

— ليس أمامنا إلا اللغة المادية .. لكافة الناس ..

— إذاً .. فالمصيبة أكبر يامولانا ..

— مازلت مختارة ..

— إن كنت أنتَ مختاراً ..

— مختار رغم أنفك . . .

— تمتع بأوهامك ..

— سوف نرى

— سوف نرى

تحصيل حاصل . . .

شخصيات هذه الرواية ليس لها وجود فى الواقع ، بأى صورة ، اللهم إلا إذا كان وجودها فى كيانى الذاتى هو هذا الواقع . .

لذلك لزم التنويه !

يحيى الرخاوى

شكر

رسم اللوحات فى هذا العمل الفنان محمد علوان (الآن: الدكتور محمد علوان) من المنصورة د.ن أن أعرفه أو ألقاه ودون أن يحدد لى أسماء الشخصيات . . ، وقد كان لإحساسه النابض بالعمل ما طمأننى على إمكانية التواصل ، ولا أستطيع أن أشكره فعلا إلا أن استمر فى المحاولة . وأرجو له مثل ذلك بالرغم من كل شيء . . .

أما الفنان محمود مصطفى فقد قام باستلهام هذه الشخصيات ليصمم منها الغلاف فله خالص عرفانى . .

د. يحيى الرخاوى

كتب للمؤلف

١ — حياتنا والطب النفسى :

(مجموعة مقالات) ١٩٧٢

٢ — حيرة طبيب نفسى :

(مشاكل الطب النفسى المعاصر ـ رؤية نقدية) ١٩٧٢

٣ — عندما يتعرى الإنسان :

(صورة من عيادة نفسية) ١٩٧٢

٤ — أغوار النفس :

المتن : شعر بالعامية المصرية الشرح : صور وأطوار العلاج النفسى ١٩٧٨

٥ — مقدمة فى العلاج الجمعى :

(عن البحث فى النفس والحياة) ١٩٧٨

٦ — الواقعـــة :

(رواية علمية الجزء الأول لهذه الرواية) ١٩٧٨

٧ — سر اللعبـــة : (تحت الطبع)

(المتن : شعر بالعربية الشرح دراسة فى علم السيكوباثولوجى)

الناشر : دار الغد الثقافة والنشر — دار المقطم للصحة النفسية

رقم الإيداع بدار الكتب ٣٤٢٧ / ١٩٧٨

مطبعة الكيلاني
المدير المسئول : رشاد كامل كيلاني
٢٢ شارع غيط العدة باب الخلق - القاهرة
ت : ٩١٨٥٩٨

هذه الرواية

الجزء الثانى من الرواية الطويلة المشى على الصراط ، ومع ذلك فهى رواية قائمة بذاتها بشكل ما ، وقد صدر الجزء الأول باسم "الواقعة" حيث كان مونولوجاً متصلا لإنسان فى أزمة كيانية (تسمى مرضا أحيانا) غاصت حتى نخاعه .

وهذا الجزء الثانى يحكى - من خلال رؤية أفراد مجموعة علاج نفسى جمعى - خطورة المسيرة الإنسانية ورعبها فى عصرنا الممزق رغم ما يحمل من بذور قفزة تطورية رائعة .

وبهذا يضيف الأستاذ الدكتور يحيى الرخاوى مزيدا إلى محاولاته التى أسماها "الفن العلمى" آملا أن يرتوى كل من يرد سبيله من عمق التمهر الذى استطاع أن يصل اليه .

الناشر

الناشر
دار الغد للثقافة والنشر
٤٧ شارع الفلكى - القاهرة

الثمن ٢٠٠ قرشاً

